

سولمون نورثوب

اثنا عشر عاماً من العبودية

ترجمة : مروة هاشم

سولمون نورثوب

اثنا عشر عاماً من العبودية

ترجمة: **مروة هاشم**

مراجعة: **عمر الأيوبي**

بيانات الفهرسة أثناء النشر

E444.N8712 2015

Northup, Solomon 1808-1863?

[Twelve Years a Slave]

اثنا عشر عاماً من العبودية : قصة سولمون نورثوب ؛ ترجمة مروة هاشم ؛ مراجعة عمر الأيوبي. - ط. 1. - أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2015.

341 ص. ؛ 13,5 × 20,3 سم.

ترجمة كتاب : Twelve Years a Slave

تدمك : 978-9948-17-417-2

1- القصص الأمريكية- القرن 19. 2- العبودية- لويزيانا.

أ- هاشم، مروة. ب- أيوبي، عمر.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Solomon Northup by Twelve Years A Slave



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY



سولمون في زي المزرعة

«مصادفة فريدة من نوعها أن يُحمل سولمون نورثوب إلى مزرعة في مقاطعة رد ريفر - المنطقة نفسها التي هي مسرح أحداث أسر العم توم- إن روايته عن هذه المزرعة، وأسلوب الحياة هناك، وبعض الأحداث التي يصفها، تحمل تشابهاً كبيراً مع ذاك التاريخ».

إشارة إلى رواية *كوخ العم توم*، صفحة 174.

مُهداة بكثير من الاحترام وبشكل خاص

إلى

هاريت بيتشر ستو

التي ارتبط اسمها في أرجاء العالم كافة بحركة

الإصلاح العظيم

فهذه القصة تنطوي على إشارات أخرى إلى رواية

كوخ العم توم

المحتويات

قائمة بالرسوم التوضيحية:

مقدمة المحرر

عندما شرع المحرّر الإعداد للقصة التالية، لم يفترض أبداً أنها سوف تصل إلى حجم هذا المجلّد. غير أنه، حتى يتسنى تقديم كل الحقائق التي تم نقلها له، بدا من الضروري تركها لتداعياتها التلقائية في أن تخرج في طولها الحالي.

كثير من الأقوال المتضمّنة في الصفحات التالية مدعومة بأدلة وفيرة، بينما ثمة أقوال أخرى تعتمد على رواية سولمون فحسب. والمحرّر على الأقل مقتنع جداً بأنه التزم التزاماً تاماً بالحقيقة، بعد أن أتيحت له الفرصة لكشف أي تناقض أو تباين في أقواله. فقد كرّر القصة ذاتها دائماً من من دون الانحراف عن أدقّ التفاصيل، كما أنه قرأ المخطوطة بإمعان، مطالباً بإجراء تغيير حيثما ظهر أتفه الأخطاء.

وكان من حظ سولمون أن امتلكه أكثر من سيّد خلال فترة أسره. فالمعاملة التي لقيها في أثناء عمله في «باين وودز»، تظهر أن من بين مالكي العبيد رجالاً على قدر من الإنسانية، وآخرين يعتمدون القسوة. بعضهم يُذكرون بمشاعر الامتنان، وبعضهم الآخر يقترن ذكرهم بالمرارة والألم. ومن المُعتقد أن السرد التالي لتجربة سولمون في «بايو بوف» يمثّل الصورة الصحيحة للعبودية، بكل تجلياتها وظلالها، على النحو الكائن حالياً في ذاك المكان. إن الهدف الوحيد الذي يسعى

إليه المحرّر، من غير انحياز مسبق، هو توخّي الصدق عند تقديم تاريخ حقيقي يصوّر حياة سولمون نورثوب كما سمعها منه.

وفي إنجاز هذا العمل، يثق المحرّر في أنه قد نجح في غايته، برغم النقائص الكثيرة في الأسلوب والتعبيرات التي انطوى عليها النص.

ديفيد ويلسون

وايتهال، نيويورك، مايو 1853

مقدمة المترجمة

يعدّ هذا الكتاب واحداً من أفضل الأعمال التي تناولت قضية العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ إنه يستعرض قصة حقيقية هزت المجتمع الأمريكي لمواطن أسود حر، «سولمون نورثوب»، وُلد في «مينيرفا» بولاية نيويورك التي كانت تحظر العبودية في ذلك الوقت، ثم اختُطِف من واشنطن في عام 1841 وجرى بيعه في سوق العبيد، ومكث في ظلام العبودية الحالك اثني عشر عاماً - حيث امتلكه أكثر من سيد في مزارع ولاية «لويزيانا» التي كانت تجيز العبودية - تعرض خلالها لعذابات العبودية وأشكالاً مختلفة من الوحشية والقهر والصراع من أجل البقاء على قيد الحياة، حتى تم إنقاذه في عام 1853، وعاد أخيراً إلى أسرته.

سجل «سولمون نورثوب» سيرته الذاتية في هذا الكتاب بعد أشهر قليلة من عودته إلى الحرية، بمساعدة «ديفيد ويلسون» الذي قام بتحرير هذا الكتاب الصادر في عام 1853، وكان من الكتب الأكثر مبيعاً في ذلك الوقت، وحصد فيلم «12Years a Slave» - المأخوذ عن قصة هذا الكتاب - العديد من الجوائز، منها جائزة أوسكار أفضل فيلم للعام 2014.

يعرض هذا الكتاب تجربة استثنائية فريدة عاشها «سولمون

نورثوب»، الذي كان يتنفس هواء الحرية في الشمال لأكثر من ثلاثين عاماً قبل تعرضه للاختطاف ووقوعه في براثن العبودية في الجنوب، يتناول خلالها التفاصيل المؤلمة والمروّعة لحياة العبيد خلال فترة ما قبل الحرب الأهلية الأمريكية، فضلاً عن مثابرة «سولمون» الحثيثة على مواجهة الظلم وكيفية إنقاذه وإجراءات استعادة حريته.

يقدم لنا هذا الكتاب سرداً قصصيّاً تاريخياً يوثّق المجتمع في الجنوب الأمريكي، ويرسم صورة دقيقة لتفاصيل الحياة اليومية للعبيد في ولايات الجنوب الأمريكي؛ حيث كان من حظ «سولمون نورثوب» أن امتلكه أكثر من سيد خلال فترة أسره. ويفصح الكتاب عن صورة واقعية للمعاملة الوحشية التي كان يتلقاها العبيد، ويوضح حقائق طالما فشلت الكثير من الأعمال الأدبية في تجميلها أو إسقاطها من التاريخ الأمريكي.

يمكن القول إن هذا الكتاب بمثابة لائحة اتهام خالدة ضد ممارسة العبودية والاستعباد البشري، وفيه يوضح «سولمون نورثوب» أن العبودية لم تترك آثارها على العبيد فقط، وإنما تركت ظلالها على مالكي العبيد أيضاً؛ حيث إن شيوع الرق في أبشع صوره بينهم أسفر عن ميلهم إلى الوحشية بدلاً من التحلي بالمشاعر الإنسانية الطيبة الفطرية، والدليل على ذلك أنهم كانوا لا يعبؤون بصراخات العبيد المؤلمة وأجسادهم تئن تحت وطأة السياط التي لا تعرف الرحمة، أو حتى موتهم ودفنهم بلا توابيت ولا أكفان. ويرى «سولمون» أن خطأ القسوة لا يقع على عاتق مالكي العبيد، بقدر أن الخطأ يكمن في النظام الذي يعيشون في إطاره والقوانين والعادات والتقاليد السائدة

في الجنوب، ووصف المؤسسة التي تتسامح مع مثل هذه الأخطاء والممارسات اللاإنسانية بأنها مؤسسة قاسية وظالمة وهمجية.

ينتقد «سولمون نورثوب» تلك الآراء الخاطئة التي كانت سائدة في بعض الأوساط، من أن العبيد لا يفهمون مصطلح الحرية وفكرتها، ويرى أن أكثرهم جهلاً يعرف للحرية معنى عاماً ومكتملاً؛ فهم يستطيعون التمييز بين الأوضاع التي يعيشونها وتلك التي يعيشها حتى أكثر البيض وضاعة، ويدركون ظلم القوانين التي تضع في أيدي البيض السلطة لامتلاكهم والاستيلاء على أرباح صناعتهم، وإخضاعهم في الوقت نفسه لعقوبات غير مستحقة وغير مبرّرة من من دون قصاص أو الحق في المقاومة أو حتى الاحتجاج.

وعلى الرغم من أن أحداث هذا الكتاب تتناول الفترة ما بين عامي 1841 و1853، أي قبل اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية (1861 – 1865)، فإنها بما تحمله من تفاصيل حول ما يشكله العبيد من ثروات ضخمة في الجنوب وتسخيرهم بوحشية في العمل بالمزارع والصناعات المختلفة من من دون أي مقابل أو حقوق، تفسر للقارىء سبب رفض ولايات الجنوب الأمريكي الحملة التي شنها الرئيس الأمريكي «إبراهام لينكولن»، أثناء الانتخابات الرئاسية عام 1860، لإلغاء نظام الرق، ومن ثم كانت العبودية السبب الرئيس للحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب، وتعد هذه الحرب الأكثر دموية في التاريخ الأمريكي، وقد انتهت بانتصار الشمال وإنهاء الرق في الولايات المتحدة الأمريكية.

إن أهم ما يميز هذا الكتاب أنه يروي للقارىء قصة ليست من

صنع خيال المؤلف، بل قصة واقعية نستشعر في كلماتها صدق التجربة، كما أن نبرة الحديث التي نسمع صداها بين الكلمات تجعلنا نتيقن من أن هذه الرواية واقعية وحقيقية، فضلاً عن حرص «سولمون» على سرد حقائق أساسية عن ذلك الوقت وأسماء الأماكن والأشخاص.

تجسد قصة «سولمون نورثوب» درساً في قوة الروح الإنسانية والإصرار الدائم على الأمل والمثابرة. وعلى الرغم مما يتضمنه الكتاب من مشاهد مؤثرة ومحزنة منها - على سبيل المثال - إجبار «إليزا» على فراق طفليها الذي كان أشد حزناً وقسوة مما شهده «سولمون» من قبل لأمهات يقبّلن وجوه الموتى من أبنائهن، وكذلك تعذيب «باتسي» وجلدها، فإن الكتاب لا يخلو من التشويق الذي يدفع القارىء إلى متابعة أحداثه، ويجعله شغوفاً بمتابعة كيفية استعادة «سولمون» حريّته التي باتت حلماً بعيد المنال، ولن تغيب عن إدراك القارىء الرسائل والمضامين التي حواها هذا العمل بين طياته؛ إذ تتجسد عبقريته في التأكيد على مبدأ أن الإنسان يولد حرّاً وأن الحياة لا معنى لها حين ينقطع رجاء المرء في الوصول إلى الحرية.

مروة هاشم

الفصل الأول

اقترح عليَّ بعضهم أن رواية سيرتي وتصاريف حياتي لن يدفع جمهور القراء إلى الملل؛ ذلك أني وُلدت حراً، ولأكثر من ثلاثين عاماً كنت أرفل في بركات الحرية في ولاية تحظر العبودية، حتى انتهت تلك الفترة بخطفي وبيعي في سوق العبيد حيث مكثت، حتى أُنقذت لحسن الحظ من براثن الرق في يناير عام 1853، أي بعد اثني عشر عاماً من العبودية.

ومنذ عودتي إلى الحرية، لم تزغ عيني عن ذاك الاهتمام المتزايد بموضوع العبودية في كل أرجاء الولايات الشمالية؛ إذ راحت الأعمال الروائية تبدع في وصف سمات العبودية في أكثر أبعادها إثارة للإمتاع وأشدها اشمئزازاً، ولاقت في ذلك معدلات توزيع غير مسبوقة. وحسبما أظن فقد كنت موضوعاً مثمراً للتعليقات والنقاش.

في وسعي أن أتحدث عن العبودية كما رأيتها فحسب؛ كما عرفتها واختبرتها في تجربتي الشخصية، وهدفي أن أقدم استعراضاً للحقائق الصريحة الصادقة، عبر سرد قصة حياتي من دون مبالغة، تاركاً للآخرين الحكم إن كانت الأعمال الروائية تقدم صورة أشدّ فداحة وقسوة عن العبودية.

بالعودة إلى الوراء قدر ما استطعت التوثّق منه، فإن أسلافي، من

ناحية الأب، كانوا عبيداً في «رود أيلاند»، لدى عائلة «نورثوب» التي انتقل أحد أبنائها إلى ولاية «نيويورك» واستقر في «هوسيك»، في مقاطعة «رينسلار»، مصطحباً معه أبي، «مينتاس نورثوب». وبوفاة هذا النبيل، ربما قبل خمسين عاماً أو نحوها، بات والدي حراً بمقتضى عتقه في وصية الرجل.

أما المستشار القانوني البارز، الأستاذ «هنري ب نورثوب» من «ساندي هِلْ»، والرجل الذي أدين له بفضل العناية الإلهية، بحريتي التي أرفل فيها اليوم، وعودتي إلى كنف زوجتي وأبنائي، فهو من أبناء تلك العائلة التي خدمها أجدادي، ومنها جاءت تسميتي. ولعل هذه الحقيقة هي التي أدت إلى اهتمامه المتواصل بي ودفاعه عني.

بعد قليل من نيل الحرّية، انتقل أبي إلى بلدة «مينيرفا» في مقاطعة «إسكس» بولاية «نيويورك»، حيث وُلدت في يوليو عام 1808. ولم أتمكن من معرفة المدة التي قضاها هناك، ثم انتقل بعد ذلك إلى «غرانفيل» في مقاطعة «واشنطن»، بالقرب من مكان يُدعى «سلايبُرُه»، ومكث هناك بضع سنوات عمل فيها في مزرعة «كلارك نورثوب»، وهو أيضاً أحد أقرباء سيده الراحل، وانتقل من هناك إلى مزرعة «آلدن» القريبة في شارع «موس»، شمال قرية «ساندي هِلْ»، ثم إلى المزرعة التي يمتلكها اليوم «راسل برات»، على الطريق الواصل بين «فورت إدوارد» و«أرغيل»، حيث أقام حتى وافته المنيّة في الثاني والعشرين من نوفمبر عام 1829. رحل والدي تاركاً أرملة وطفلين؛ أنا وأخي الأكبر «جوزيف» الذي ما يزال يعيش في مقاطعة «أوسويغو»، بالقرب من المدينة التي تحمل الاسم ذاته، أما أمي

فتوفيت في الفترة التي كنت فيها في العبودية.

على الرغم من أن والدي قد وُلد عبداً، وعمل تحت وطأة الظروف العسيرة التي خضع لها عرقنا المُبتلى، فإنه كان رجلاً يحظى بالاحترام لمثابرته ونزاهته، وكثير ممن لا يزالون على قيد الحياة يذكرونه جيداً ويشهدون له بذلك. وقد قضى والدي حياته في الزراعة، متمسكاً بها، ولم يسعَ للحصول على وظيفة من تلك الوظائف الحقيرة التي تبدو مُخصصة لأبناء إفريقيا على وجه التحديد. وقد وفّر لنا قسطاً من التعليم، يتجاوز القدر الذي يحصل عليه الأبناء عادة في مثل ظروفنا، وحصل إلى جانب ذلك، بفضل اجتهاده واقتصاده، على أملاك كافية تؤهّله كي يكون له حق في التصويت. اعتاد أبي التحدث إلينا عن الفترة الأولى من حياته، وعلى الرغم من أنه كان يولي دائماً الأسرة التي يعمل رقيقاً لديها أسمى مشاعر المودّة أو حتى المحبّة، فإنه أدرك ما يشتمل عليه نظام العبودية، وكان دائم التفكير في انحطاط شأن عِرقه. كما سعى جاهداً كي تتشرب عقولنا حبّ الأخلاق، وعلّمنا أن نثق ونؤمن بالخالق الذي لا يفرّق بين عباده الفقراء والأغنياء. من ذلك الحين وذكرى نصائحه الأبوية تتواتر في ذهني، أذكرها وأنا مستلقٍ في كوخ العبيد في أرجاء «لويزيانا» النائية الوبيلة، متألماً من جروح لا أستحقها ألحقها بي سيّد تعوزه الإنسانية، ومتحرقاً شوقاً إلى ذاك القبر الذي ضم أبي كي يدرأ عني أيضاً سوط هذا الظالم. وفي ساحة كنيسة «ساندي هِلْ»، ثمة شاهد قبر متواضع يشير إلى البقعة التي استراح فيها والدي بعدما أنجز بجدارة مهامّ تلك الحياة الوضيعة الشأن، التي قدرها الله عليه.

كنت حتى تلك الفترة منخرطاً في الأساس في العمل مع والدي في المزرعة، واعتدت قضاء ساعات الراحة التي أحظى بها بشكل عام إما مع كتبي وإما في العزف على الكمان؛ إذ كان هذا الكمان شغف حياتي الذي سيطر على شبابي. وكان أيضاً مصدر عزائي، فيما كان يكفله من مسرات للأشخاص البسطاء من قومي، وتسلية لأفكاري لساعات عديدة بعيداً عن التأمل المؤلم في أقداري.

وفي يوم عيد الميلاد في عام 1829 تزوجت من «آن هامبتون»، وهي فتاة سوداء تعيش على مقربة من مسكننا. أقيمت مراسم الزواج في «فورت إدوارد» من قِبل السيد «تيموثي إيدي» قاضي البلدة، ولم يزل مواطناً بارزاً في البلدة. وكانت «آن» قد انتقلت للعيش في «ساندي هِلْ» منذ فترة طويلة مع السيد «بيرد» صاحب حانة «إيجل»، وعملت كذلك لدى أسرة القس «إسكندر برودفت» من «سالم»، الذي ترأس جمعية البرسبيتاريين في ذاك المكان الأخير، واشتّهر بعلمه وتقواه. ولم تزل «آن» تذكر ممتنة عطفه البالغ عليها ونصائحه الرائعة. لم تكن آن تستطيع تحديد سلالتها التي انحدرت منها، لكن دماء ثلاثة أجناس تمتزج في عروقها. ويصعب القول ما إذا كان السائد فيها هو العِرق الأحمر، أو الأبيض، أو الأسود. بيد أن اجتماعها جميعاً في أصولها وهبها ملامح متفرّدة ولطيفة يندر رؤيتها. وعلى الرغم من أنها تشبه أرباع الزنوج، وهي الفئة التي أغفلت أن أمي تنتمي إليها، فإنه لا يمكن اعتبارها منهم.

كنت قد تجاوزت لتوّي سنّ القصور وبلغت الحادية والعشرين في شهر يوليو الماضي. وكنت محروماً من نصيحة والدي وعونه،

ولديّ زوجة تعتمد عليَّ لإعالتها، فعقدت العزم على ولوج حياة الجدّ والمثابرة. وعلى الرغم من عائق اللون، وإدراكي لحالي المتواضع، انغمست في أحلام سارّة بأن أوقاتاً طيّبة ستأتي، عندما أمتلك مسكناً متواضعاً تحيط به بضعة فدادين نظير العمل الجادّ، ومن ثم تتحقّق لي أسباب السعادة والراحة.

لا يزال الحب الذي أكنّه لزوجتي منذ يوم زواجنا وحتى اليوم، صادقاً ولم تنطفىء جذوته، ولا يقدّر عاطفتي تجاه فلذات أكبادي الذين أنجبناهم إلا من شعروا بالعاطفة المتوهّجة التي يدلّل بها الأب أبناءه. وأرى أنه من الملائم والضروري قول هذا، حتى يدرك من يقرأ هذه الصفحات مرارة المعاناة التي قُدّر لي أن أتحملها.

بدأنا العمل مباشرة بعد زواجنا، في تدبير شؤون المبنى الأصفر القديم القائم في الطرف الجنوبي من قرية «فورت إدوارد»، الذي تم تحويله إلى قصر حديث، ويشغله مؤخراً الكابتن «لاثروب»، وهو يُعرف بـ «فورت هاوس». في هذا البناء كانت تعقد المحاكمات أحياناً بعد تنظيم المقاطعة. كما شغله «بيرجوين» في عام 1777؛ كونه يقع بالقرب من «فورت» القديمة على الضفة اليسرى لنهر «هدسون».

عمِلت أثناء فصل الشتاء مع آخرين في إصلاح قناة «شامبلين» في القطاع الذي كان «وليام فان نورتويك» يشرف عليه. وكان «ديفيد ماكإيشرون» المسؤول المباشر عن مجموعة الرجال الذين أعمل ضمنهم. وبحلول وقت افتتاح القناة في الربيع، استطعت شراء زوج من الخيول وبعض الأشياء الضرورية المطلوبة في مجال الملاحة بفضل المدخرات التي وفرتها من أجري.

غير أنني بعد أنْ استخدمت عمّالاً لمساعدتي، أبرمت عقوداً لنقل أطواف الأخشاب الكبيرة من بحيرة «شامبلين» إلى «تروى». وقد صاحبني في الكثير من رحلاتي كل من «داير بيكويث» و«السيد بارتمي» من «وايتفول». وأصبحت في أثناء الموسم على دراية تامّة بفنون النقل بالأطواف وأسرارها، وهي معرفة مكّنتني فيما بعد من تقديم خدمات مربحة لسيد فاضل، وكذلك إدهاش الحطّابين البسطاء على ضفتي «بايو بوف».

في إحدى رحلاتي عبر بحيرة «شامبلين»، استُمِلت إلى زيارة كندا. وعند انتقالي إلى «مونتريـال»، قمت بزيارة الكاتدرائية وغيرها من الأماكن الحيوية في المدينة، ومن هناك تابعت رحلتي حتى «كينغستون» وبعض البلدان الأخرى، فاكتسبت الكثير من المعرفة عن تلك المناطق، وعاد عليَّ ذلك بالنفع فيما بعد كما سنعرف في نهاية هذه القصة.

بعد أن أنجزت العقود التي كنت أتولاها على القناة بشكل يرضيني ويرضي صاحب العمل، ولم أكن أرغب في البقاء متكاسلاً، لا سيما أن الملاحة في القناة قد عُلّقت مجدداً، أبرمت من ثم تعاقداً آخر مع «ميداد غان» لقطع كمية كبيرة من الأخشاب، وكنت قد دخلت هذا المجال خلال شتاء عامي 1831 و1832.

مع عودة الربيع، فكّرت أنا و«آن» في مشروع إقامة مزرعة في الجوار. كنت معتاداً منذ بواكير الشباب على الأعمال الزراعية، وهي مهنة تتسق وميولي. ومن ثم دخلت في ترتيبات خاصة بجزء من مزرعة «ألدن» القديمة حيث عاش والدي من قبل. انتقلنا إلى منزلنا

الجديد في «كينغزبري» ومعنا بقرة واحدة، وخنزير واحد، وثور جيد كنت قد اشتريته مؤخراً من «لويس براون» في «هارتفورد»، إلى جانب بعض ممتلكاتي ومقتنياتي الشخصية. ونجحت في ذاك العام في زراعة خمسة وعشرين فداناً من الذرة، فضلاً عن حرث حقول كبيرة من الشوفان، وبدأت الزراعة على نطاق واسع بقدر ما أتاحت لي إمكاناتي. أما «آن» فكانت تدبّر شؤون المنزل بدأب فيما أكدح وأكدّ في الحقل.

مكثنا في هذا المكان حتى عام 1834. كان كثيراً ما يُطلب مني العزف على الكمان في فصل الشتاء. وكنت حاضراً حيثما اجتمع الشباب للرقص، حتى صرت مشهوراً في القرى المجاورة. واكتسبت «آن» كذلك شهرتها أثناء فترة إقامتها الطويلة في «إيغل تافيرن» بوصفها طاهية ماهرة. وفي فترات جلسات المحكمة وفي المناسبات العامة، كانت تعمل بأجر عالٍ في مطبخ «كوفي هاوس» الخاص بـ «شيريل».

ودائماً ما كنا نعود إلى المنزل بعد أداء تلك الخدمات وجيوبنا عامرة بالنقود؛ وبفضل العزف، والطهي، والزراعة سرعان ما نعِمنا بسعة الرزق وأصبحنا نعيش حياة سعيدة مرفّهة. ترى أكان يمكن أن تدوم حياتنا على هذا النحو لو أننا بقينا في «كينغزبري»، ولكن جاء وقت اتخاذ الخطوة التالية صوب الأقدار القاسية التي كانت في انتظاري.

انتقلنا في مارس عام 1834 إلى «ساراتوغا سبرينغز»، وأقمنا في منزل يمتلكه «دانييل أوبراين» على الجانب الشمالي من شارع «واشنطن». في ذلك الوقت، كان «إسحق تايلور» يدير نُزُلاً كبيراً يدعى «واشنطن

هول» على الطرف الشمالي من «برودواي»، وقد استخدمني لقيادة مركبته؛ حيث بقيت على هذا الحال فترة عامين. وبعد ذلك صرت أعمل على العموم في أثناء موسم السياحة، وكذلك «آن»، في فندق «الولايات المتحدة» والأماكن العامة الأخرى في المنطقة. وكنت في فصول الشتاء أعتمد على كمنجتي برغم أني قمت بالكثير من الأعمال الشاقة في أثناء فترة بناء خطوط السكك الحديدية في «تروى» و«ساراتوغا».

اعتدت في «ساراتوغا» شراء ما تحتاج إليه أسرتي من متاجر السيد «سيفاس باركر» والسيد «وليام بيري»، وهما السيدان اللذان أحتفظ لهما بكثير من مشاعر المودة والاحترام. ولهذا السبب وجّهت لهما بعد اثني عشر عاماً ذلك الخطاب، الذي أدرجه فيما بعد، وكان سبباً في عتقي حين وقع في يد السيد «نورثوب».

في أثناء إقامتي بفندق الولايات المتحدة، كنت ألتقي كثيراً بعبيد يصطحبهم أسيادهم من الجنوب. وكانوا متأنقين دائماً وتوفّر لهم أسباب المعيشة الجيّدة، وبدت حياتهم لِيّ سهلة، لا يزعجهم فيها إلا القليل من مشكلاتها العادية. وكانوا كثيراً ما يتحدثون إليَّ عن العبودية، ووجدت أنهم جميعاً تقريباً يكنّون رغبة خفية في الحرية. بل إن بعضهم عبّر عن حماسة جامحة للفرار، واستشاروني بشأن أفضل الطرق للقيام بذلك. غير أن الخوف من العقاب، الذي كانوا يدركون يقيناً أنه يلحق بهم فور اعتقالهم وإعادتهم، كان كافياً لردعهم عن هذه التجربة على أي حال. ولأنني تنفّست طوال عمري هواء الحرّية في الشمال، وأعرف أنني أمتلك المشاعر والعواطف التي تجد مكاناً

في صدر الرجل الأبيض، وأدرك أيضاً أن لديَّ من الذكاء ما لا يقل عن ذكاء بعض الرجال من ذوي البشرة الفاتحة، فإنني كنت شديد الجهل، وربما شديد الاستقلالية، فلم أتصوّر كيف يقنع المرء بأن يعيش الحياة البائسة للعبد. لم أستطع فهم عدالة ذلك القانون، أو تلك الديانة، التي تتمسك بمبدأ العبودية وتعترف به. وأفخر أنني لم أخفق أبداً، ولا لمرة واحدة، في إسداء النصيحة إلى كل من استشارني بأن يغتنم الفرصة ويسعى وراء حريته.

واصلت العيش في «ساراتوغا» حتى ربيع عام 1841، بيد أن التوقّعات التي أغرتني قبل سبع سنوات بالانتقال من منزل المزرعة الهادىء على الجانب الشرقي من نهر «هدسون» لم تتحقّق. وعلى الرغم من أننا استطعنا دائماً العيش في ظروف مريحة، فإنها لم تكن ظروفاً مزدهرة أبداً. لم يحتفظ المجتمع والجمعيات في هذا المكان من العالم المعروف بطبيعته المائية، بعادات الجدّ والاقتصاد البسيطة التي اعتدتها، ولكن استبدل بها، على خلاف ذلك، عادات أخرى تميل إلى الكسل والبذخ.

كنا آنذاك والدين لثلاثة أبناء: «إليزابيث»، و«مارغريت»، و«ألونزو». وكانت إليزابيث، الابنة الكبرى، في العاشرة من عمرها، وتصغرها «مارغريت» بعامين، ثم «ألونزو»الصغير الذي تجاوز يوم مولده الخامس قبل وقت قليل. وكانوا يملؤون منزلنا بالحبور والسعادة، وتصدح أصواتهم في آذاننا كالنغم. وكم بنينا، أنا وأمهم، قصوراً في الهواء للصغار الثلاثة الأبرياء. وفي الأوقات التي لم أكن أعمل فيها، كنت أصحبهم في نزهات وهم يرتدون أفضل ملابسهم،

فنجوب شوارع «ساراتوغا» وبساتينها. وكانت صحبتهم مدعاة لسروري، فأضمهم إلى صدري بكل الحب والدفء والعطاء، كما لو أن بشرتهم الشاحبة في بياض الثلج.

لم يكن يوجد حتى الآن أي شيء غير مألوف في سجل حياتي، لا شيء إلا الآمال العادية، والحب، والعمل لرجل أسود مغمور يحرز تقدماً متواضعاً في هذا العالم. ولكني وصلت الآن إلى نقطة تحوّل في وجودي، وصلت إلى عتبة خطأ لا يوصف، وحزن ويأس لا تفسرهما الكلمات. الآن دخلت تحت ظلال الغيم إلى الظلمة الكثيفة التي سرعان ما أخفتني عن أعين أحبائي، وأبعدتني عن نور الحرية الرائع، سنوات عديدة شاقّة.

الفصل الثاني

في صباح أحد الأيام في القسم الأخير من شهر مارس عام 1841، لم يكن هناك عمل محدد يشغلني، فأخذت أتجول في قرية «ساراتوغا سبرينغز»، وأفكر كيف يمكنني الحصول على وظيفة حتى يحلّ موسم العمل. وذهبت «آن» على عادتها إلى «ساندي هِلْ» الواقعة على مسافة عشرين ميلاً، لتشرف على قسم الطهي في مقهى «شيريل» أثناء فترة جلسة المحكمة، وأعتقد أن «إليزابيث» قد صاحبتها، بينما بقي «مارغريت» و«ألونزو» مع عمتهما في «ساراتوغا».

عند ناصية شارعي «الكونغرس» و«برودواي»، بالقرب من الحانة التي لا يزال يمتلكها السيد «مون»، لأنني لا أعرف خلاف ذلك، قابلت رجلين يبدو من مظهرهما أنهما محترمان، بيد أني لم أكن أعرف أياً منهما على الإطلاق. وأعتقد أن أحد معارفي، وقد حاولت عبثاً أن أتذكره، قدّمني إليهما قائلاً إنني عازف ماهر على الكمان.

على أي حال، بدأ الرجلان حديثهما معي فوراً في هذا الشأن، ووجّها لي استفسارات عديدة تتعلق بكفاءتي في هذا المجال. ويبدو أن إجاباتي كانت مُرضية لهما فعرضا عليَّ عملاً لفترة قصيرة، وأخبراني في الوقت ذاته أنني الرجل الذي يحتاجان إليه في عملهما. وعرفت منهما فيما بعد أن اسميهما «ميريل براون» و«أبرام هاملتون»، مع أن

لديَّ أسباباً قوية كي أرتاب في كونهما اسمين مستعارين. كان الأول في الأربعين من عمره تقريباً، قصيراً وبديناً بعض الشيء، وتنمّ ملامحه عن دهاء وذكاء. وكان يرتدي معطفاً أسود وقبعة سوداء، وقال إنه يقيم في «روتشستر» أو في «سيراكيوز». أما الآخر فكان شاباً ذا بشرة بيضاء وعينين بلون فاتح، وأظن أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره. كان طويل القامة، نحيل الجسد، يرتدي معطفاً بنّياً داكناً، وقبعة لامعة، وصدرة أنيقة. كانت ملابسه بأكملها تساير الموضة. بدا مظهره أنثوياً بعض الشيء، ولكن جذّاباً، واتسم بتلقائية تظهر أنه قد اختلط بالعالم جيداً. كانا، كما أخبراني، على صلة بشركة سيرك في مدينة «واشنطن»، وأنهما في طريقهما إلى هناك بعد أن تركا السيرك لفترة وجيزة في رحلة صوب الشمال بغرض رؤية البلاد، وأنهما كانا يدفعان نفقاتهما عن طريق عروض يؤديانها من وقت إلى آخر. كما ذكرا أنهما قد واجها صعوبات جمّة في إيجاد موسيقى لعروضهما، وأنني إذا صحبتهما حتى «نيويورك» فسوف يعطيانني دولاراً واحداً مقابل كل نهار عمل معهما، وثلاثة دولارات إضافية لكل ليلة أقوم بالعزف فيها في عروضهما، بالإضافة إلى مبلغ يكفي لدفع نفقات عودتي من «نيويورك» إلى «ساراتوغا».

قبِلت هذا العرض المغري فوراً، نظراً إلى الأجر الذي وعدا به، ورغبة مني في زيارة المدينة. كان الرجلان متلهّفين للرحيل على الفور، ولأنني اعتقدت أن غيابي لن يطول، لم أجد ضرورة لأن أكتب لأخبر «آن» بذهابي؛ بل ربما حسبت أني قد أعود في وقت عودتها. لذا أخذت بعضاً من ملابسي وكمنجتي، وأصبحت مستعداً للرحيل. وصلت

العربة؛ كانت مغطّاة ويجرّها زوج من الخيل الأصيلة، ليصنع كل هذا صورة غاية في الأناقة. كانت أمتعتهما تتكوّن من ثلاثة صناديق كبيرة مثبتة على الحمّالة وترتفع إلى مقعد السائق، أما هما فجلسا في مؤخرة العربة. ابتعدتُ عن «ساراتوغا» متخذاً الطريق إلى «آلبَني»، فرحاً بعملي الجديد، وسعيداً كما لم أكن من قبل في أي من أيام حياتي.

مررنا عبر «بالستون»، ثم طريق الجبال كما يسمّونه إذا ما أسعفتني الذاكرة، ثم توجّهنا صوب «آلبني» مباشرة. وصلنا تلك المدينة قبل حلول الظلام، وتوقفنا عند فندق جهة الجنوب من المتحف.

أتاحت لي تلك الليلة الفرصة أن أشهد أحد عروضهما، وكان العرض الوحيد طوال تلك الفترة التي قضيتها معهما. وقف «هاملتون» عند الباب بينما قمت أنا بدور الفرقة الموسيقية، وقدّم «براون» العروض الترفيهية. وتألف العرض من رمي الكرات، والرقص على الحبال، وقلي الفطائر في قبعة، فضلاً عن صرخات الخنازير غير المرئية، وغير ذلك من خدع التكلّم «البمن البطن» والألاعيب التي تعتمد على مهارات خفّة اليد. كان الجمهور قليلاً ومتناثراً وليس من الشخصيات المختارة، وجاء تقرير «هاملتون» عن العائدات يفيد أنها هزيلة.

وفي صباح اليوم التالي، جدّدنا الرحلة. وكان حديثهما يدور حول شعور بالقلق حيال الوصول إلى السيرك من من دون تأخير. فأسرعا الخطى من من دون التوقف عند أي عروض، ووصلنا بالفعل إلى «نيويورك» في الوقت المناسب. أخذنا أمتعتنا إلى منزل على الجانب الغربي من المدينة، في شارع يمتد من «برودواي» حتى

النهر. واعتقدت أن رحلتي قد وصلت هنا إلى نهايتها وتوقّعت أن أعود إلى أصدقائي وأسرتي في «ساراتوغا» في غضون يوم أو يومين. ولكن «براون» و«هاملتون» شرعا يُلّحان عليَّ كي أواصل معهما حتى «واشنطن». وزعما أنه فور وصولنا، خاصة مع اقتراب موسم الصيف، سوف يتجه السيرك صوب الشمال. ووعداني بعمل جيد وأجر مرتفع إذا صحبتهما. وأسهبا بشكل كبير في المزايا التي سوف تعود عليَّ، وبالغا في إغرائي حتى قبلت عرضهما في نهاية الأمر.

في الصباح التالي، اقترحا أن نستحصل على أوراق الحرية قبل مغادرتنا «نيويورك» لأننا على وشك الدخول إلى ولاية تجيز العبودية. أعجبتني الفكرة، وجدتها حكيمة برغم أنها ما كانت لتخطر ببالي لو أنهما لم يقترحا ذلك. وتابعنا طريقنا على الفور نحو ما كنت أظنه «مصلحة الجمارك». حلف الرجلان اليمين على بعض الحقائق التي تثبت أنني رجل حرّ. وصدرت وثيقة بهذا واستلمناها مع توجيهات بأخذها إلى مكتب الموثّق. فعلنا ذلك؛ حيث أضاف إليها الموثّق شيئاً ما استحق نظيره ستة شلنات، ثم عدنا مجدداً إلى مصلحة الجمارك. ثم انتهينا من بعض الإجراءات، ودفعنا للمسؤول دولارين، واستلمت الوثائق النهائية ووضعتها في جيبي، وتوجّهت مع صديقيَّ صوب الفندق حيث نقيم. وأعترف بأنني فكّرت آنذاك أن هذه الوثائق لا تستحق تكلفة الحصول عليها، إذ لم يساورني الخوف على سلامتي الشخصية لا من قريب ولا من بعيد. وأذكر أن الموثّق الذي وُجّهنا إليه قد أصدر مذكرة في دفتر كبير افترض أنها لا تزال في المكتب. ولا ريب في أن الرجوع إلى المدخلات التي جرى قيدها في أواخر شهر

مارس أو أوائل شهر أبريل 1841، سوف يزيل الشك، على الأقل فيما يتعلق بهذا الإجراء على وجه التحديد.

ركبنا العبَّارة إلى مدينة «جيرسي» في اليوم التالي لوصولنا إلى «نيويورك»، وكان إثبات الحرّية في حيازتي، ثم اتخذنا الطريق إلى «فيلادلفيا» حيث مكثنا ليلة واحدة، ثم تابعنا رحلتنا صوب «بالتيمور» في الصباح الباكر. وصلنا في الوقت المناسب، وتوقّفنا لدى فندق بالقرب من محطة السكة الحديد، الذي يديره شخص يُدعى السيد «راثبون»، أو يدعى «راثبون هاوس». وطوال الطريق من نيويورك، كان قلقهما يتزايد إزاء الوصول إلى السيرك. تركنا العربة في «بالتيمور»، ثم ركبنا المركبات، وتابعنا حتى «واشنطن» حيث وصلنا بحلول الليل، في الليلة السابقة لجنازة «الجنرال هاريسون»، ونزلنا في «فندق غادسبي» في «جادة بنسلفانيا».

بعد العشاء استدعياني إلى شقّتهما ودفعا لي ثلاثة وأربعين دولاراً، وهو مبلغ أكبر كثيراً مما يبلغه أجري، كانت تلك لفتة كريمة فسّراها بأنهما لم يقدّما عروضاً بالقدر الذي عشّماني به في أثناء الرحلة من «ساراتوغا». كما أخبراني بعزم شركة السيرك على مغادرة «واشنطن» في صباح اليوم التالي، بيد أنهما قررا البقاء في المدينة يوماً آخر، بسبب ظروف الجنازة. كانا في ذلك الوقت في غاية اللطف، كما عهدتهما منذ لقائي الأول بهما. لم يكونا يفوّتان فرصة للحديث إليَّ باستحسان عظيم، وفي المقابل انبهرت بهما للغاية.

أعطيتهما ثقتي بلا تحفّظ، بل وكنت أثق بهما بلا حدود. فحديثهما المستمر معي ومعاملتهما لي - تبصّرهما في اقتراح فكرة الأوراق

الرسمية التي تثبت أني رجل حرّ، ومئات التصرّفات الصغيرة الأخرى التي لا ضرورة لتكرارها هنا- أشارت جميعاً إلى أنهما كانا صديقين بحق، وحريصين على مصلحتي. وكنت على يقين من هذا. لم أعرف سوى أنهما كانا بريئين من الشرّ العظيم الذي أعرف الآن أنهما ارتكباه. وبغض النظر عمّا إذا كانا شريكين في المأساة التي لحقت بي- وحشان بارعان تعوزهما الإنسانية في شكل بشر- تعمّدا استدراجي وإبعادي عن منزلي وأسرتي، وحرّيتي من أجل الذهب، فإنني أترك لقارىء هذه الصفحات كل السبل لتقرير هذا بنفسه كما فعلت أنا. وإذا كانا بريئين فإن اختفائي المفاجىء لم يكن محسوباً بالفعل. ولكن حين أفكّر في كل الظروف التي أحاطت بالواقعة آنذاك، لا يسعني إلاّ أن أفترض الخير فيهما.

بعد أن تلقّيت المال منهما، ويبدو أنه كان لديهما وفرة منه، نصحاني بعدم الخروج إلى الشارع ليلاً نظراً إلى أنني لم أكن مُلّماً بعادات المدينة. وبعد أن وعدتهما بالالتزام بنصيحتهما تركتهما معاً، وبعد فترة وجيزة قادني خادم أسود إلى غرفة نوم في الجزء الخلفي من الفندق، في الطابق الأرضي. وهناك استلقيت كي أستريح وأنا أفكر في منزلي وزوجتي وأبنائي، والمسافة الكبيرة التي تفصلني عنهم، حتى غلبني النوم. ولكن لم يأت أي ملاك طيب إلى جوار فراشي، ليحثّني على الهرب، ولم تحذرني أصوات الرحمة في أحلامي من المؤامرات التي كانت تحاك.

في اليوم التالي، شهدت «واشنطن» موكباً احتفالياً كبيراً. ملأ هدير المدافع وصوت قرع الأجراس الأجواء، وغطّت أقمشة الكريب الكثير من المنازل، واكتست الشوارع بالأسود الذي يرتديه

الناس. وفي وقت لاحق من النهار، ظهر الموكب وهو يسير في بطء عبر «الجادّة»، مركبة تِلو أخرى في سلسلة متوالية طويلة بينما الآلاف يتبعونها سيراً على أقدامهم، والجميع يخطو على وقع الموسيقى الحزينة وهم يحملون جثمان «هاريسون» إلى قبره.

كنت منذ الصباح الباكر في صحبة «هاملتون» و«براون» على الدوام، إذ لا أعرف غيرهما في «واشنطن». وقفنا ثلاثتنا عندما مرّت الجِنازة المهيبة بنا، وأكاد أذكر كيف كان زجاج النوافذ يتكسر وينهار فوق الأرض كلما هدر المدفع في أرض المقبرة. ثم ذهبنا إلى مبنى «الكابيتول» وتجوّلنا هناك مدّة طويلة. وفي فترة بعد الظهر، سارا نحو «منزل الرئيس»، وحرصا طوال الوقت على إبقائي بالقرب منهما، بيّنا لي العديد من الأماكن المثيرة للاهتمام. وحتى ذلك الوقت، لم أرَ شيئاً من السيرك، والحق أنني لم أفكر فيه إلا يسيراً، بل ربما لم أفكر فيه مطلقاً، في خضم كل ما حمله اليوم من أحداث مثيرة.

عمد صديقاي إلى دخول الحانات عدة مرات طوال فترة بعد الظهر لاحتساء الشراب. لكنهما لم يكونا معتادين، بحسب معرفتي بهما، على الإفراط في الشراب. وقد دأبا في كل مرة على إعداد كأسيهما، ثم الدفع لي بكأس كي أحتسيها. ولكنني لم أثمل، كما يمكن أن يفهم من الأحداث التي أعقبت هذا اليوم. بحلول المساء، وبعد مغادرتنا إحدى تلك الحانات مباشرة، خامرتني بعض المشاعر السيئة، فشعرت بتعب بالغ، وآلمني رأسي بشدة؛ ألماً مستمراً وثقيلاً ومزعجاً لا يمكن وصفه. وعلى منضدة العشاء فقدت شهيتي، وأصابني منظر الطعام ونكهاته بالغثيان. وحين حلّ الظلام، قادني الخادم نفسه إلى

الغرفة التي شغلتها في الليلة الماضية. ونصحني «براون» و«هاملتون» بالراحة، وتلطّفا معي كثيراً، وتمنيا لي أن تتحسّن حالتي في الصباح. خلعت معطفي وحذائي بصعوبة وارتميت فوق الفراش. استعصى عليّ النوم؛ إذ كان ألمي يزداد حتى بات غير محتمل. ثم شعرت بالعطش بعد فترة وجيزة حتى إن شفتيَّ كانتا جافّتين. استحوذ الماء على تفكيري: فرأيت فيما يرى النائم بحيرات وأنهاراً متدفقة وجداول انحنيت فوقها كي أشرب منها، ودلواً تتساقط منه المياه وهو يرتفع يرتفع من فيض الماء أسفل البئر. وبحلول منتصف الليل، وفق تقديري، نهضت بعدما لم أعد أحتمل شدّة العطش. كنت غريباً في هذا المنزل ولا أعي شيئاً من شققه، وكان الجميع نياماً كما لاحظت. رحت أتجوّل في المكان بشكل عشوائي لا أكاد أعرف مكاني حتى عثرت على المطبخ أخيراً في الطابق السفلي، حيث كان اثنان أو ثلاثة من الخدم السود يتحركون فيه، فناولتني امرأة من بينهم كوبين من الماء. أراحني ذلك مؤقّتاً، ولكن فور وصولي إلى غرفتي عاودني الشعور بالعطش الشديد، وبالحدّة المؤلمة نفسها، بل ربما أسوأ من ذي قبل، فضلاً عن ألم رأسي المستوحش، إن صحّ الوصف. كنت أعاني عذاباً مبرحاً حتى بدا لي أنني أقف على حافة الجنون! وستظلّ معاناة تلك الليلة الرهيبة تلاحقني حتى القبر.

وفي غضون ساعة أو أكثر من عودتي إلى المطبخ، أدركت أن أحداً يدخل غرفتي. بدا أن هناك عدة أشخاص - لاختلاط عدة أصوات معاً - ولكنني لم أتبيّن كم عددهم أو من هم. ولا أعرف إذا كان «براون» و«هاملتون» من بينهم، لأنه يتوقّف على التخمين. لا أتذكر

على نحو مميّز إلا أنني أبلغت بضرورة الذهاب إلى طبيب وأخذ بعض العقاقير، وأنني انتعلت حذائي واتبعتهم من من دون معطف أو قبعة عبر ممر طويل أو زقاق إلى الشارع الواسع الذي يشكّل زاوية قائمة مع «جادة بنسلفانيا». على الجانب الآخر، كان هناك ضوء مشتعل في إحدى النوافذ. وحسب ظنّي كان بصحبتي ثلاثة أشخاص حينئذٍ، لكن الأمر برمته غامض وغير واضح المعالم، كذكرى حلم مؤلم. اتجهنا صوب الضوء الذي خلته ينبعث من عيادة طبيب، والذي بدأ ينخفض تدريجياً كلما تقدمت؛ وكانت تلك آخر ذكرى واضحة تسعفني بها ذاكرتي. فقد فارقني الإحساس منذ تلك اللحظة. ولا أعرف على الإطلاق كم من الوقت بقيت في تلك الحالة - هل تلك الليلة فحسب أو عدة أيام وليالٍ. ولكن عندما عاد إليَّ وعيي كنت بمفردي، في ظلام حالك، ومقيداً بالأغلال.

هدأ الألم في رأسي قليلاً، ولكنني أشعر بالضعف ودوار شديد. كنت جالساً فوق مقعد منخفض مصنوع من ألواح خشنة، ومن من دون معطف أو قبعة. كنت مقيّد اليدين، وتحيط أغلال ثقيلة أخرى بكاحلي، وطرف السلسلة مُثبتاً بإحكام في حلقة كبيرة على الأرض، بينما الطرف الآخر يشدّ وثاق كاحلي. حاولت عبثاً الوقوف على قدمي. عندما استيقظت من هذه الغيبوبة المؤلمة، استغرقت بعض الوقت كي أستجمع أفكاري. أين كنت؟ ما معني هذه الأغلال، وأين كان «براون» و«هاملتون»؟ وماذا فعلت كي أستحق السجن في هذه الزنزانة؟ لم أفهم شيئاً. كان هناك فجوة غير محددة المدة تسبق فترة استيقاظي في هذا المكان الموحش، ولم تستطع ذاكرتي في أقصى

مداها تذكر أحداث تلك الفترة. أنصت باهتمام كي أستمع إلى صوت ما أو أي إشارة إلى حياة، لكن لم يكسر هذا الصمت القمعي إلا قعقعة أصفادي كلما تحركت. تحدثت بصوت مرتفع حتى أفزعني صوتي. تحسست جيوبي بقدر ما سمحت لي قيودي- بما يكفي للتيقن من أنني لم أسلب من حريتي فحسب، بل أموالي وأوراق حريتي أيضاً! عندئذٍ بدأت الفكرة تتضح في ذهني، مبهمة ومشوّشة في البداية، ولكن سرعان ما أدركت أنني اختُطِفت. ولكني لم أشأ أن أصدق هذه الفكرة!

لا بدّ أن هناك سوء هم - خطأ مؤسف قد وقع! لم يكن من المنطقي أن يعامل بهذا القدر من الوحشية رجل حر من مواطني «نيويورك»، لم يخطيء في حق أحد، ولم ينتهك أي قانون. ولكن كلما تأملت موقفي، تأكَدَت لي شكوكي. ولكم كانت تلك فكرة مُقبِضة. شعرت أن لا ثقة ولا رحمة في قلوب البشر عديمي الشعور، والتجأت إلى الله مُعين المظلومين، وأحنيت رأسي فوق يديَّ المقيدتين وبكيت في مرارة.



سولمون في حظيرة العبيد في واشنطن

الفصل الثالث

انقضت ثلاث ساعات مكثت في أثنائها فوق المقعد المنخفض مستغرقاً في تأملات مؤلمة. وكنت أسمع طوال الوقت صياح ديك، ثم تناهى إليَّ من بعيد هدير عربات تسرع وهي تجوب الشوارع، فعرفت أننا في ساعات النهار، برغم أن هذه الزنزانة لا يدخلها شعاع ضوء واحد. وأخيراً سمعت وقع أقدام فوق رأسي مباشرة وكأن شخصاً ما يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وخطر لي عندئذ أنه لا بدّ أن أكون في شقة ما تحت الأرض، وهو افتراض أكّدته لي الرطوبة والرائحة العفنة في المكان. استمرّت الجلبة في الطابق العلوي نحو ساعة على الأقل، وسمعت أخيراً وقع أقدام يقترب من الخارج. قعقع مفتاح في القفل، ففتح باب قوي على مصراعيه مفسحاً المجال لفيض من الضوء، ودخل رجلان إلى المكان ووقفا أمامي. كان أحدهما ضخم الجثة وقوي البنية، ربما في الأربعين من عمره، ذا شعر كستنائي داكن يخالطه بعض الشيب. كان ممتلىء الوجه وبشرته تميل إلى الحُمرة، وملامحه خشنة لا تعبر عن شيء سوى القسوة والمكر، أما قامته فترتفع نحو خمس أقدام وعشر بوصات، وجسده منتفض العروق يفصح عن جرأة، لا مِراء أنه بدا بمظهر شرير وبغيض في مجمله. كان اسمه «جميس هـ بيرتش» كما عرفت فيما بعد، وهو تاجر رقيق معروف في «واشنطن»، مرتبط

في ذلك الوقت، أو فيما، بعد بشراكة تجارية مع «ثيوفيلوس فريمان» من «نيو أورليانز». أما الرجل الذي كان برفقته فكان خادماً بسيطاً يُدعى «إبينيزر رادبيرن»، ويعمل بصفة سجّان فحسب. وكان هذان الرجلان لا يزالان يعيشان في «واشنطن»، أو كانا هناك في وقت عودتي من العبودية مروراً بتلك المدينة في شهر يناير الماضي.

مكّنني الضوء الذي دخل عبر الباب من ملاحظة الغرفة التي احتُجِزت بها. كانت مساحتها نحو اثنتي عشرة قدماً مربعة، وجدرانها من الحجارة المصمتة. أما الأرضية فكانت من الخشب الثقيل. وثمة نافذة واحدة صغيرة تسدّها قضبان حديدية ضخمة مع مصراع خارجي مُثبّت بشكل آمن.

كان هناك باب من الحديد يؤدي إلى زنزانة مجاورة، أو قبو، بلا أي نوافذ أو أي منفذ يسمح بدخول الضوء. أما أثاث الغرفة التي كنت فيها فتألّف من المقعد الخشبي الذي أجلس عليه، فضلاً عن موقد قذر مربّع الشكل، عتيق الطراز. وفي الزنزانتين لم يكن هناك فراش ولا بطانية أو أي شيء آخر على الإطلاق. كان الباب الذي دلف منه «بيرتش» و«رادبيرن» يؤدي إلى ممر صغير ثم درج قصير يفضي إلى فناء تحيط به جدران حجرية بارتفاع عشر أو اثنتي عشرة قدماً في الجزء الخلفي من مبنى بالاتساع ذاته. وكان هذا الفناء يمتد نحو ثلاثين قدماً إلى الخلف من المنزل. وفي قسم من الجدار، يوجد باب حديدي يفتح على ممر ضيق ومغطّى يؤدي على طول جانب واحد من المنزل إلى الشارع. وكان مصير الرجل الأسود الذي أُغلِق عليه الباب المؤدي إلى ذاك الممر الضيق مصيراً محتوماً. كان الطرف

العلوي من الجدار يدعم طرفاً واحداً من السقف الذي يرتفع إلى الداخل، مشكّلاً نوعاً من سقيفة مفتوحة. وتحت السقف توجد شرفة علوية تحيط بالمكان حيث يستطيع العبيد النوم ليلاً إذا أرادوا، أو ربما يلتجئون إليها متى بات الطقس عاصفاً. كان المكان يشبه فناء المزارعين في الكثير من النواحي، باستثناء أنه مبني بحيث لا يرى العالم الخارجي حظيرة البشر بالداخل.

كان المبنى الذي كان يرتبط به الفناء يتألف من طابقين يطلان على أحد الشوارع العامة في «واشنطن». وكانت واجهة المنزل تعكس فقط مسكناً خاصاً هادئاً، فلا يخطر ببال أي غريب ينظر إليه طبيعة استخداماته المقيتة. وقد يبدو غريباً أن هذا المنزل، يطل من ارتفاعه المشرف على «الكابيتول»، حيث أصوات ممثلي الشعب الذين يتباهون بالحرّية والمساواة تكاد تختلط بقعقعة أصفاد العبيد الفقراء. ثمة حظيرة للعبيد في ظلال «الكابيتول»!

كان هذا وصفاً صحيحاً لحظيرة «وليامز» للعبيد في «واشنطن» في العام 1841، في إحدى الزنازين التي وجدت نفسي محتجزاً فيها لأسباب غير معروفة.

قال «بيرتش» وهو يدخل عبر الباب المفتوح: «حسناً يا فتى، كيف تشعر الآن؟». أجبته أنني متوعك وسألت عن سبب سجني على هذا النحو. فأجابني أنني صرت عبداً له، وأنه اشتراني، ويوشك أن يرسلني إلى «نيو أورليانز». فأكدت له بصوت مرتفع وجريء أنني رجل حرّ، أقطن في «ساراتوغا»، ولي زوجة وأبناء أحرار، وأن اسمي هو «نورثوب». واشتكيت له بمرارة من المعاملة الغريبة التي ألقاها

وهدّدته بالمطالبة بالتعويض فور تحرّري من هذا الأسر. إلا أن الرجل أنكر أنني حر وأقسم مؤكداً أنني أتيت من «جورجيا». أكدت مراراً وتكراراً أنني لست عبداً لأحد، وطالبته بإصرار بخلع أصفادي. فسعى لإسكاتي كما لو أنه خشي أن يسمع أحد صوتي. لكنني لم أصمت، واستنكرت سجني وندّدت به، واتهمت جميع من دبّروه، أياً كانوا، بأنهم أوغاد. ولما أدرك أنه لن ينجح في تهدئتي دخل في حالة عصبية هادرة قذفني فيها بالشتائم ونعتني بأنني «أسود كاذب هارب من «جورجيا»، فضلاً عن الكثير من الأوصاف والألقاب التي لا يتصوّرها أي شخص مهما بلغت وقاحته.

وفي أثناء ذلك، كان «راديرن» يقف صامتاً. فعمله هو الإشراف على هذه الحظيرة الإنسانية أو اللاإنسانية بالأحرى، فيستقبل العبيد، ويطعمهم، ويجلدهم؛ نظير شلنين للرأس في كل يوم. وعندما عاودت النظر إلى «بيرتش» كان يأمر بإحضار العصا والسوط. فاختفى الرجل وعاد بعد لحظات وهو يحمل أدوات التعذيب. اتضح لي أن هذه العصا هي لغة الحوار المستخدمة مع العبيد، أو على الأقل هي أول ما سأتعرف عليه، وسأصفها الآن بأنها لوح من الخشب الصلب بطول ثماني عشرة أو عشرين بوصة، على شكل عصا حلوى من الطراز القديم، أو على شكل مجذاف عادي. كان الجزء المسطح منها بحجم راحتين مفتوحتين، مثقوباً بمثقاب صغير في أماكن عدة متفرقة. أما السوط فكان حبلاً ضخماً متعدّد الجدائل- جدائل متفرّقة بعضها عن بعض، تنتهي كل منها بعقدة.

ما إن ظهرت أدوات التعذيب تلك على المشهد حتى أمسك

بي الرجلان وانتزعا ملابسي بمنتهى القسوة. وكما ذكرت كانت قدماي مثبتتيْن إلى الأرض، فما كان منهما إلا أن جذباني من فوق المقعد ووجهي نحو الأسفل، حيث وضع «رادبيرن» قدمه الثقيلة فوق الأصفاد التي تربط رسغي حتى يثبّتهما بالأرض. بدأ «بيرتش» يضربني بالعصا، وانهالت ضربة تلو أخرى على جسدي العاري. وعندما أُنهِكت ذراعه التي لا تلين، توقّف وسألني إذا ما كنت أُصرّ على كوني رجلاً حراً. وعندما أصررت تجدّد الضرب ولكن بإيقاع أسرع وأشدّ ضراوة من ذي قبل. وكان كلما تعب كرَّر عليَّ السؤال نفسه، فيلقى الإجابة ذاتها، ويستأنف عمله الغاشم وهو يردّد أقذع الشتائم. وأخيراً انكسرت العصا تاركة مقبضها بلا نفع في يده، ومع ذلك لم أستسلم. لم تستطع كل تلك الضربات إرغام شفتيَّ على التفوّه بكذبة أنني كنت عبداً. ومن فرط غضبه، ألقى الرجل بمقبض العصا المكسورة على الأرض وأمسك بالسوط. وكان أشد إيلاماً من العصا. قاومت بكل ما أوتيت من قوة بلا فائدة. واستجديت الرحمة فأجابني بالمزيد من اللعنات والجلدات القاسية. شعرت أنني سأموت حتماً تحت وقع ضربات السوط اللعينة. وما زلت أشعر بلحمي ينكمش فوق عظامي عندما أستعيد المشهد. كان الأمر وكأن حريقاً قد نشب في أجزائي، ولا أستطيع أن أقارن معاناتي بأي شيء سوى عذابات الجحيم!

أخيراً التزمت الصمت تجاه أسئلته المتكررة، ولم أعطه أي إجابة. والحق أنني كِدت لا أقوى على الحديث. بيد أنه لم يتوقف عن كَيْل الضربات لي من من دون أي شفقة على جسدي المسكين، حتى بدا

أن لحمي الممزّق يُنتزع عن عظمي مع كل ضربة. ولم يكن أي إنسان يحمل ذرة من رحمة في قلبه ليضرب كلباً بهذه الوحشية. وأخيراً قال «رادبيرن» إن الجلد لم يعد يُجدي معي نفعاً، وإنني تقرّحت بما يكفي. فتوقف «بيرتش» وقال وهو يهز وجهي برسغه محذراً، وهو يصدر الكلمات هسيساً من خلال أسنانه المنطبقة في إحكام، إنني إذا تجرّأت وتفوّهت مجدداً بحقي في الحرية، أو إنني قد اختُطِفت، أو أي شيء من هذا القبيل، فإن العذاب الذي لقيته لتوّي لن يكون شيئاً مقارنة بما سيلي. وأقسم أنه إما أن يكسر عزيمتي وإما أن يدقّ عنقي. وبهذه الكلمات المواسية، نُزعت الأصفاد عن رسغي بينما ظلت قدماي مثبتتيْن إلى الحلقة. وأُغلِق مصراع النافذة الصغيرة ذات القضبان التي فتحت مجدداً، وعندما خرجا وأغلقا الباب الضخم خلفهما- تُركت في الظلام كما كنت من قبل.

وفي غضون ساعة واحدة، أو ربما ساعتين، قفز قلبي إلى حلقي حين سمعت المفتاح يدور في الباب مرة أخرى. وأصبحت أنا الذي كنت أشعر بالوحدة البالغة، وأتشوق لرؤية أي شخص أياً كان، أرتجف الآن من فكرة اقتراب أحدهم من الباب. كان مرأى أي وجه بشري مفزعاً بالنسبة لي، خاصة لو كان أبيض اللون. دخل «رادبيرن» حاملاً معه طبقاً صغيراً به قطعة صغيرة من لحم الخنزير المقلي وشريحة خبز وكوب من الماء. سألني عن حالي وأشار إلى أنني قد تلقيت بالفعل جلداً شديداً، وحذّرني من مغبّة التمسك بحرّيتي. ثم نصحني، بسرّية وكأنه يتفضّل عليّ، أن من مصلحتي ألا أتحدث عن هذا أبداً. اتّضح أن الرجل يبذل مجهوداً خارقاً كي يبدو ودوداً –

ولا يهمّ الآن معرفة ما إذا كان تأثّر بمرأى حالتي المزرية، أو بهدف إسكاتي وعدم التفوّه بأي شيء عن حقوقي. حلّ أصفاد كاحلي وفتح مصاريع النافذة الصغيرة، ثم ذهب لأبقى بمفردي ثانية.

في هذا الوقت أصبح جسدي متصلّباً ومؤلماً تغطّيه البثور، ولم أعد أستطيع أن أتحرّك إلا بصعوبة وألم شديد. ولم أكن أرى من النافذة سوى السطح المستند إلى الجدار المقابل. استلقيت الليلة على الأرض الصلبة الرطبة، من من دون أي وسادة أو غطاء على الإطلاق. وفي الموعد المحدد، مرتين في اليوم، كان «رادبيرن» يدخل عليَّ باللحم والخبز والماء، بيد أن شهيتي كانت ضعيفة برغم تعذيبي وشعوري المستمرين بالعطش. لم تكن جروحي لتسمح ليَّ بالبقاء في أي وضع أكثر من بضع دقائق؛ لذا قضيت الأيام والليالي جالساً أو واقفاً أو متحركاً ببطء في أرجاء الغرفة. شغلت عقلي دائماً أسرتي، زوجتي وأبنائي. وعندما يغلبني النوم كنت أراهم في أحلامي، كما لو أنني في «ساراتوغا» مجدداً، فأرى وجوههم وأسمع أصواتهم ينادونني. وكان الاستيقاظ من أوهام النوم السارّة إلى الواقع المرير من حولي يدفعني إلى البكاء والنحيب. مع ذلك لم تنكسر روحي. استرسلت في فكرة الفرار، وبسرعة. كنت أقول لذاتي إنه من المستحيل أن يكون البشر ظالمين إلى حدّ احتجازي عبداً، بينما حقيقة موقفي معروفة لهما. ولا شك أن «بيرتش» سوف يطلق سراحي ما إن يتيقن أنني لم أهرب من «جورجيا». وبرغم أن فكرة الارتياب في «براون» و«هاملتون» كانت تراودني كثيراً، فإنني لم أستطع التصالح مع فكرة أنهما قد لعبا دوراً حيوياً في أسري. لا شك أنهما سوف يسعيان إلى إخراجي من هنا؛

سوف ينقذانني من العبودية. واحسرتاه! لم أكن أعرف آنذاك قدر «وحشية الإنسان تجاه الإنسان»، أو إلى أي مدى غير محدود قد تذهب شروره حباً في المكاسب.

بعد عدة أيام، فُتح الباب الخارجي ما سمح لي بحرية الحركة في الفناء. هناك قابلت ثلاثة من العبيد؛ أحدهما فتى في العاشرة من عمره، والآخران شابان يبلغ عمرهما نحو عشرين وخمسة وعشرين عاماً. لم أستغرق وقتاً طويلاً للتعرّف إليهم ومعرفة أسمائهم وتفاصيل تاريخهم.

كان أكبرهم رجلاً أسود يُدعى «كليمنز راي». كان يعيش في «واشنطن»، وعمل سائقاً لمركبة أجرة لدى إسطبل لتأجير المركبات لفترة طويلة. كان غاية في الذكاء ومتفهماً لوضعه تماماً. وكانت فكرة الذهاب جنوباً تسيطر عليه بحزن شديد. وكان «بيرتش» قد اشتراه منذ بضعة أيام مضت، ووضعه هناك حتى يصبح جاهزاً لإرساله إلى سوق «نيو أورليانز». وعرفت منه للمرة الأولى أنني كنت في «حظيرة عبيد وليام»، ولم أكن قد سمعت به من قبل بهذا المكان، ووصف لي استخداماته واغراضه. رويت له تفاصيل قصتي الحزينة، لكن لم يسعه أن يقدم لي إلا التعاطف. ونصحني كذلك أن أصمت من الآن فصاعداً عن موضوع حريتي، وأكد لي، بناء على معرفته بشخصية «بيرتش»، أنه سيقابل ذلك بالمزيد من التعذيب. أما الشاب الأصغر فكان يُدعى «جون وليامز». وقد نشأ في «فيرجينيا»، على مقربة من «واشنطن»، وأخذه «بيرتش» وفاءً لدين، ولم يزل يحدوه أمل في أن يسترده سيده؛ وهو أمل قد تحقّق في وقت لاحق بالفعل. أما الفتى فكان طفلاً مرحاً يُدعى «راندال»، وكان يقضي غالبية الوقت في

اللهو في الفناء، ثم تأتي أحيان يبكي فيها حين يشتاق إلى أمه ويتساءل متى ستأتي لأخذه. وبدا أن غياب أمه هو الحزن الأكبر والوحيد الذي يعصف بقلبه الصغير. كان أصغر من أن يدرك حقيقة موقفه، وكلما غابت أمه عن ذهنه كان يسلّينا بمزاحه.

كان «راي» و«وليامز» والفتى ينامون في مخزن الغلال في السقيفة عندما يحين الليل، بينما تُغلق الزنزانة عليَّ وحدي. وأخيراً زوّد كل منّا بأغطية كتلك التي يضعونها على ظهور الجياد؛ وكانت تلك الفراش الوحيد الذي سُمِح لي به في فترة الاثني عشر عاماً التالية. وجَّه لي «راي» و«وليامز» الكثير من الأسئلة عن «نيويورك»، وكيف يُعامل السود هناك؛ وكيف يمكن أن يكون لديهم منازل وعائلات خاصة بهم من دون أن يزعجهم أو يقمعهم أحد، وكان «راي» على وجه التحديد يصبو إلى الحرّية بشكل مستمر. إلا أن هذه الأحاديث لم تكن على مسمع من «بيرتش» أو حارسه «رادبيرن»، حيث كانت تطلّعات كهذه كافية لجلب السياط إلى ظهورنا.

ومن الضرورة بمكان لهذه الرواية بغية تقديم سرد كامل وحقيقي بكل الأحداث الرئيسة في تاريخ حياتي، ورسم صورة صادقة لنشأة العبودية كما عرفتها، أن أتحدث عن الأماكن المعروفة جيداً، والأشخاص الكثيرين الذين لم يزالوا على قيد الحياة. فأنا غريب تماماً عن «واشنطن» والمناطق المجاورة لها، كما كنت دائماً، ولا أعرف فيها أحداً بصرف النظر عن «بيرتش» و«رادبيرن»، باستثناء من سمعت عنهم في صحبة العبيد. فما أعتزم قوله يسهل كشفه إن لم يكن حقيقياً.

ظللت في حظيرة عبيد «وليامز» نحو أسبوعين. وجرى في الليلة

السابقة لرحيلي جلب امرأة كانت تبكي بمرارة وهي تجرّ في يدها طفلة صغيرة؛ كانتا والدة «راندال» وأخته غير الشقيقة. ولكم سُرّ «راندال» لرؤيتهما، فتعلّق بثوب أمه، وراح يقبل الطفلة، وأظهر كل تعبيرات البهجة. ضمته أمه بين ذراعيها في عطف وحنان، وراحت تُحدق فيه بعينين دامعتين، وتخاطبه بكل أسماء المحبة.

كانت الطفلة، «إيميلي»، في السابعة أو الثامنة من عمرها، ولها بشرة فاتحة اللون، وملامح جميلة تدعو إلى الإعجاب. كانت خصلات شعرها تنسدل مجعدة حول عنقها بينما طراز ثوبها وثراؤه، ونظافة مظهرها ككل إشارات إلى أنها قد نشأت في بيئة ثرية. وكانت طفلة تسحر اللُّب حقاً. كما كانت المرأة ذاتها ترتدي الحرير، وتزدان أصابعها بالخواتم، ويتدلى من أذنيها قرط ذهبي. وكان أسلوبها وطريقتها، وصحة لغتها وملاءمتها، كلها تدل بشكل واضح على أنها كانت تعلو على المستوى العام للعبيد. بدت مندهشة لهذا الوضع الذي وجدت نفسها فيه في هذا المكان. كان من الواضح أن انقلاباً مفاجئاً وغير متوقّع في حياتها جلبها إلى هذا المكان. ولمّا لم تتوقف عن الشكوى والنحيب، تم دفعها وأبناؤها وأنا معهم إلى داخل الزنزانة. ما من لغة قد تصف بما يكفي رثاءها لحالها الذي لم تكفّ عنه. ارتمت السيدة فوق الأرض وأحاطت طفليها بذراعيها، وراحت تُغدق عليهما كلمات مؤثرة لا يوحي بها إلا عطف الأم وحبّها. وتعلّق بها الطفلان كما لو أنهما يجدان الأمان والحماية في وجودها، وغشيهما النوم وهما يسندان رأسيهما إلى حضنها، فيما كانت هي تزيح الشعر عن جبهتيهما الصغيرتين، ومكثت تتحدث إليهما طوال الليل وتناديهما

بأحبتي وقرة عيني. كانا بريئين لا يدركان المأساة التي كُتِب عليهما معاناتها، فعما قريب سيُحرمان من أمهما ولن يكون لديهما من يعتني بهما ويرقّ لحالهما. ماذا سيحدث لهما؟ يا إلهي! إنها لا تستطع العيش بعيداً عن «إيمي» الصغيرة وولدها الغالي. لطالما كانا طفلين طيّبين وتصرفاتهما محببة. قالت إن فؤادها سينفطر إذا ما أخذوهما منها؛ ومع ذلك كانت تعرف أنهم سيبيعانهما وأنها قد تنفصل عنهما، وقد لا يرون بعضهم بعضاً مرة ثانية أبداً. يكفي الاستماع إلى رثاء تلك الأم البائسة والمشتّتة كافياً لإذابة قلب الحجر. كان اسمها «إليزا»، وكانت هذه قصة حياتها كما قصتها فيما بعد:

كانت أَمَة من بين عبيد «إليشا بيري»، وهو رجل ثري يعيش في جوار «واشنطن». وأعتقد أنها قالت إنها وُلدت في مزرعته. وحدث قبل سنوات أنه قد اكتسب عادات فاسقة تشاجر على إثرها مع زوجته، حتى إنهما انفصلا بعد ميلاد «راندال» مباشرة. ترك الرجل زوجته وابنته في المنزل الذي كانوا يعيشون فيه، وشيد منزلاً آخر فوق أرضه، وجلب «إليزا» إلى هذا المنزل الجديد على أن تعيش مقابل عِتقها هي وطفليها. وعاشت معه «إليزا» في هذا المنزل تسع سنوات، وكان لديها خدم قائمون على خدمتها، ووفر لها كل سبل الراحة والرفاهية. وكانت «إيميلي» ابنته! أخيراً تزوجت سيدتها الصغيرة، التي مكثت مع أمها، من السيد «جاكوب بروكس». وبعد مدّة، لسبب خارج عن سيطرة السيد «بيري» (كما عرفت من قصتها)، جرى تقسيم ثروته، وكانت هي وطفلاها من نصيب السيد «بروكس». وفي أثناء السنوات التسع التي عاشتها مع السيد «بيري»

في أعقاب الوضع الذي وجدت نفسها فيه، أصبحت هي و«إيميلي» هدفاً لكراهية السيدة «بيري» وابنتها وبغضهما. أما «بيري» فكان رجلاً طيب القلب وفق روايتها، ولطالما وعدها بمنحها حريتها، وكان ليفعل ذلك من دون شك لو أنه بمقدوره. وفور أن أصبحوا في حيازة الابنة وتحت سيطرتها، بدا جلياً أنهم لن يعيشوا طويلاً معاً. بدا مرأى «إليزاً» كريهاً للسيدة «بروكس»، فلم تكن تحتمل النظر إلى الطفلة، أختها غير الشقيقة، والجميلة مثلها!

يوم جُلبت إلى الحظيرة، كان «بروكس» قد أحضرها من الضيعة إلى المدينة بزعم أن الوقت قد حان كي يستخرج لها أوراق عِتقها تلبية للوعد الذي قطعه سيدها. واحتفاءً بحريتها المرتقبة تأنقت هي وصغيرتها «إيمي» كأفضل ما استطاعت، وصاحبا السيد «بروكس» بقلب يغمره الحبور. وعند وصولهما إلى المدينة، وبدلاً من تعميد الأسرة أحراراً، تم تسليمهم إلى «بيرتش»، والورقة التي حُررت هي صك بيعهم. وانهار حلم السنين في لحظة غاشمة، وسقطت من قمة السعادة إلى أعمق أعماق البؤس في هذا اليوم. فلا عجب أنها كانت تبكي، وأنها ملأت الحظيرة عويلاً وبكاء بعبارات تدمي القلب.

ماتت «إليزا» الآن. أخيراً رقدت في قبرها، المكان الوحيد الذي استراحت فيه تلك الأَمَة التعسة، بعيداً في أعلى نهر رد ريفر الذي يصب مياهه ببطء عبر مستنقعات «لويزيانا» السيئة! وسوف نعرف فيما نمضي في حكايتنا كيف أن كل مخاوفها قد تحققت، وكيف كانت تنعى ذِهاب هنائها بلا رجعة ليل نهار، وكيف انفطر فؤادها كما توقّعت حين ناء بأحزان أمومتها.

الفصل الرابع

على فترات في أثناء الليلة الأولى من أسر «إليزا» في الحظيرة، كانت تشكو بمرارة من «جاكوب بروكس»، زوج سيدتها الصغيرة. وقالت إنها لو علِمت بالخديعة التي انتوى الإيقاع بها من خلالها، لما كان أحضرها إلى هناك وهي على قيد الحياة. تحيّنوا الفرصة لإبعادها عندما كان السيد «بيري» غائباً عن المزرعة، ولطالما كان طيباً معها. كانت «إليزا» تتمنّى لو أنها تستطيع رؤيته، لكنها تدرك أنه لم يعد قادراً على إنقاذها. ثم تعاود النحيب مجدداً وهي تلثم طفليها النائمين، وتتحدث إليهما الواحد تلو الآخر وهما في نعاسهما لا يدركان من أمرها شيئاً سوى أن رأسيهما في حضنها. وهكذا انقضت الليلة الطويلة، وعندما بزغ الصباح، ثم عاد الليل مجدداً، لم تتوقّف عن النحيب، ولم يكن ليواسيها شيء.

قرابة منتصف الليلة التالية، فُتح باب الزنزانة، ودخل كل من «بيرتش» و«رادبيرن» يحملان المصابيح في أيديهما. وأمرنا «بيرتش» بلغة فظة أن نطوي فُرُشنا على عجل ونستعد كي نصعد إلى متن القارب. وأقسم أنه سيتركنا ما لم نتحرك سريعاً، وأوقظ الطفلين من سباتهما بهزة عنيفة ناعتاً إياهما بالموتى لا بالنيام. وحينما انطلق إلى الفناء نادى على «كليم راي» وأمره بترك مخزن الغلال والدخول إلى الزنزانة

وأن يحضر معه فراشه. وعندما أتى «كليم» أوقفه بجانبنا وربطنا معاً بأصفاد الأيدي؛ يداً يسرى بيدٍ يمنى. وكان «جون وليامز» قد أخذ منذ يوم أو اثنين حين استرده سيده مُدخلاً على قلبه سعادة بالغة. وأُمرت أنا و«كليم» بأن نسير وفي إثرنا «إليزا» والطفلان. ودُفعنا إلى الفناء، ومنه إلى الممر المُغطى، ثم ارتقينا درجاً قصيراً عبر باب جانبي وصولاً إلى الغرفة العليا التي كان يأتيني منها وقع الخطوات جيئة وذهاباً. وكان أثاثها عبارة عن موقد، وبضعة مقاعد قديمة، وطاولة مستطيلة تغطيها الأوراق. وكانت بيضاء الجدران ومن من دون أي بُسُط فوق الأرض، وبدت كأنها مكتب. وأذكر سيفاً صدئاً كان معلقاً بالقرب من إحدى النوافذ، واسترعى انتباهي. وهناك كان صندوق ملابس «بيرتش»، وانصياعاً لأوامره أمسكت بأحد مقابضه بيدي غير المقيدة بينما أمسك هو بالآخر، وتابعنا عبر الباب الأمامي حتى الشارع بالترتيب نفسه الذي تركنا به الزنزانة.

كانت ليلة حالكة وهادئة. كنت أرى أضواءً أو انعكاساتها نحو «جادة بنسيلفانيا»، ولكن لم يكن هناك أي شخص، ولا شارد أو تائه. كِدت أعقد العزم على محاولة الهرب لو لم أكن مقيّد اليد، بغض النظر عن العواقب. كان «رادبيرن» في المؤخرة يحمل هراوة ضخمة ويحث الطفلين على الإسراع قدر إمكان سيقانهما الصغيرة. مررنا صامتين ومغلولي الأيدي عبر شوارع «واشنطن»، من خلال عاصمة البلد، الذي تقوم نظرية الحكم فيه، كما قيل لنا، على أساس حقّ الإنسان غير القابل للتصرّف في العيش والحرية والسعي لتحقيق السعادة! مرحباً! «كولومبيا»، أرض السعادة بحق!

عند وصولنا إلى الباخرة، دُفعنا بسرعة إلى العنبر بين البراميل وصناديق الشحن. أحضر لنا خادم أسود مصباحاً، وقرّع الجرس، وسرعان ما شرعت الباخرة في الإبحار عبر نهر «بوتوماك» ونحن على متنها لا نعلم من أمر وجهتنا شيئاً. قرع الجرس مجدداً ونحن نمر بجوار قبر «واشنطن»! لا شك أن «بيرتش» قد انحنى احتراماً برأس عارٍ أمام الرفات المقدّسة للرجل الذي أفنى حياته الزاخرة من أجل حرية بلاده.

ولم ينم أي منّا في تلك الليلة إلا «راندال» والصغيرة «إيمي». وللمرة الأولى أرى «كليم راي» وقد غُلِب على أمره تماماً. كانت فكرة الذهاب إلى الجنوب مرعبة جداً بالنسبة إليه. فهو يترك أصدقاءه ورفاق شبابه، وكل الأشياء العزيزة إلى قلبه، مع احتمال ألا يعود مجدداً أبداً. امتزجت عَبَراته بدموع «أليزا» وهما ينعيان مصيرهما الغاشم. أما أنا فحاولت الحفاظ على معنوياتي بالرغم من صعوبة هذه المهمة. ووضعت بيني وبين نفسي مئات الخطط للفرار، وقرّرت بشكل نهائي اغتنام أول فرصة بائسة تسنح لي. وكنت قد ارتضيت بحلول ذاك الوقت أن سياستي عدم التفوّه بشيء عن أنني وُلدت رجلاً حراً. فذلك يعرضني إلى التعذيب ويقلّل فرصي في الحرية.

حين أشرقت شمس الصباح استُدعينا إلى سطح السفينة لتناول طعام الإفطار. انتزع «بيرتش» أصفادنا وجلسنا إلى منضدة، وعرض على «إليزا» جرعة من شراب، إلا أنها رفضته وشكرته بطريقة مهذبة. وساد الصمت بيننا في هذه الأثناء، ولم يتفوّه أي منا بأي كلمة. أبدت امرأة خلاسيّة تقدّم الخدمة للطاولة اهتماماً بحالنا - طلبت منّا أن نهوّن

على أنفسنا وألا نحزن. وما إن انتهت وجبة الإفطار حتى أُعيدت الأصفاد، وأمرنا «بيرتش» أن نلزم سطح مؤخّر الباخرة. فجلسنا معاً فوق بعض الصناديق، ولم نقل شيئاً في أثناء وجود «بيرتش». وبين الحين والآخر، كان يقترب من مكاننا أحد المسافرين فينظر إلينا برهة، ثم يعود أدراجه بصمت.

كان الصباح لطيفاً جداً، والحقول على طول النهر تكسوها الخضرة، قبل وقت طويل مّما اعتدت رؤيته في هذا الموسم من العام. كانت الشمس تطل بدفئها، والطيور تغرّد فوق الأشجار حتى غبطتها لسعادتها. تمنّيت لو أن لي جناحين شأنها فأبحر في الهواء إلى حيث صغاري ينتظرون أباهم بلا طائل في المنطقة الأكثر برودة في الشمال.

وبحلول الضحى، وصلت الباخرة إلى «أكويا كريك». وهناك ركب المسافرون العربات، وشغل «بيرتش» وعبيده الخمسة عربة خاصة بهم. وكان يمازح الطفلين، وفي إحدى محطّات التوقّف ذهب لشراء خبز الزنجبيل لهما. وطلب مني أن أرفع رأسي وأن أبدو ذكياً، فلربما عثرت لي على سيّد طيّب إذا ما أحسنت التصرّف. لم أجِبه. كان وجهه كريهاً بالنسبة لي حتى إنني لم أُطِق النظر إليه. جلست في الزاوية، يداعب فؤادي أمل، لم ينقطع بعدُ، في لقاء هذا الطاغية في يوم من الأيام على أرض ولايتي الأصلية.

في «فريدريكسبيرغ»، تم نقلنا من العربة إلى مركبة، وقبل حلول الظلام كنا قد وصلنا إلى «ريتشموند»؛ المدينة الرئيسة في «فيرجينيا». وفي تلك المدينة، نقلنا من المركبة وخضنا الشوارع إلى حظيرة للعبيد

يمتلكها السيد «غودين»، وتقع بين مستودع السكة الحديد والنهر. وكم كانت تشبه هذه الحظيرة تلك التي يمتلكها «وليامز» في «واشنطن» باستثناء أنها أكبر قليلاً؛ كما كان هناك منزلان صغيران عند زاويتين متقابلتين داخل الفناء. وعادة ما تتواجد هذه المنازل داخل أفنية العبيد، وتستخدم كغرف لفحص العبيد من قِبل المشترين قبل عقد الصفقات. وينتقص أي عيب في أي من العبيد أو الجياد من قيمتهم المادية، وفي حالة عدم تقديم ضمان، يصبح الفحص الدقيق ذا أهمية بالغة للفارس الزنجي.

استقبلنا «غودين» بنفسه عند باب فناء حظيرته، وهو رجل قصير وبدين ذو وجه مستدير وممتلىء، وله شعر أسود ولحية خفيفة، وبشرة تكاد في سمرتها تبلغ سمرة الزنوج. كان في نحو الخمسين من عمره يتميّز بنظرة جامدة وحادّة. استقبل «بيرتش» بمودّة عظيمة، وبدا واضحاً أنهما صديقان قديمان. وبعد أن تصافحا بحرارة، ألمح له «بيرتش» أنه أتاه بصحبة، واستفسر عن توقيت رحيل الباخرة، أخبره «غودين» أنها سترحل في اليوم التالي في التوقيت ذاته تقريباً. ثم استدار «غودين» تجاهي ورفع ذراعي، وأدارني جزئياً، ونظر إلي في حدة وهو يرسم في عينيه نظرة الحاكم المُحنّك إلى الأشياء، كما لو كان يقيّم بعقله كم أستحق.

«حسناً يا فتى، من أين أتيت؟».

نسيت نفسي للحظة وأجبته قائلاً: «من نيويورك».

استجوبني في دهشة: «نيويورك! اللعنة! وماذا كنت تفعل هناك؟».

وحينما لاحظت «بيرتش» ينظر إليَّ في هذه اللحظة بتعبير غاضب يحمل معنى لم يكن من الصعب فهمه، قلت على الفور: «أوه .. كنت هناك لفترة وجيزة فحسب»، وتعمدت أن أقول هذا بشكل يتضمن أنني ربما قد ذهبت حتى «نيويورك»، إلا أنني تمنيت لو أنه قد فهم أنني لا أنتمي إلى هذه الولاية التي تحظر العبودية ولا إلى غيرها.

ثم استدار «غودين» إلى «كليم»، ومنه إلى «إليزا» والطفلين، وفحصهما عدة مرات ووجّه عدة أسئلة. وكان مسروراً بـ «إيميلي» شأن كل من يرى ملامح هذه الطفلة الجميلة. بالطبع، لم تكن متأنّقة مثل المرة الأولى التي رأيتها فيها وقد بات شعرها أشعثَ على نحو ما، ولكنها بدت مشرقة على الرغم من ذلك بوجهها الصغير المفعم بالمحبة. قال الرجل: «تبدو صفقة جيدة إجمالاً، جيدة بحق!»، وقد أبدى هذا الرأي بأكثر من صفة مؤكدة لا تحملها المفردات المسيحية، تابعنا على إثرها طريقنا إلى داخل الفناء. وكان هناك نحو ثلاثين من العبيد تقريباً يتحركون في المكان، أو يجلسون على المقاعد في الظل. وكانوا جميعاً يرتدون ملابس نظيفة؛ الرجال يعتمرون القبعات والنساء يعصبن المناديل حول رؤوسهن.

وبعد أن افترق «غودين» و«بيرتش» عنّا، ارتقيا الدرج في الجزء الخلفي من المبنى الرئيس وجلسا على عتبة الباب ثم دخلا في محادثة، إلا أنني لم أتبين موضوعها. وسرعان ما نزل «بيرتش» إلى الفناء، وحلّ أصفادي، وأدخلني في أحد المنزلين الصغيرين.

وقال: «لقد قلت لهذا الرجل إنك قد أتيت من نيويورك».

أجبته: «أخبرته أنني ذهبت حتى نيويورك يقيناً، لكنني لم أقل له

إنني أنتمي إلى هناك، ولا إنني كنت رجلاً حراً. لم أقصد أي شيء على الإطلاق سيدي «بيرتش»، ولم أكن لأقول هذا لو خطر لي».

نظر إليَّ لحظة كما لو كان سيبتلعني، ثم استدار وذهب قبل أن يعود بعد دقائق، واستطرد في شراسة: «إذا سمعتك تتفوّه بكلمة عن نيويورك أو عن حريتك فسوف تكون نهايتك؛ ثق بي».

لم يساورني شك في أنه قد فهم عندئذ أفضل مما فهمت خطورة بيع رجل حرّ في سوق العبيد وعقوبته. واستشعر ضرورة أن يغلق فمي إزاء الجريمة التي كان يعرف أنه يرتكبها. بالطبع، لم تكن حياتي تساوي عنده شيئاً في أي موقف يتطلب مثل هذه التضحية. لا شك أنه كان يعني كل كلمة قالها في تهديده ذاك.

وفي ظل سقيفة عند أحد جوانب الفناء، كانت هناك منضدة خشنة مبنية، ويوجد في الأعلى غرف للنوم - كتلك الموجودة في حظيرة «واشنطن». بعد أن تشاركنا هذه المنضدة في عشاء لحم الخنزير والخبز، تم قيدي إلى رجل ضخم، ذي لون شاحب، قوي وممتلىء، وملامح وجهه تكسوها أعظم آيات الحزن. كان رجلاً ذكياً وعارفاً. ولما كنا مُقيّدين أحدنا إلى الآخر، لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتعرف أحدنا إلى تاريخ الآخر. كان اسمه «روبرت» وكان رجلاً حراً مثلي، وله زوجة وطفلان في «سينسيناتي». قال إنه قد أتى إلى الجنوب مع رجلين استأجراه في المدينة التي يعيش فيها. ومن من دون أوراق الحرية، جرى اعتقاله في «فريدريكسبيرغ»، ووُضع في الأسر، وضُرب حتى تعلّم- كما فعلت أنا- ضرورة الصمت وسياسته. وكان قد مضى على وجوده في حظيرة «غودين» نحو ثلاثة أسابيع.

أصبحت مرتبطاً بهذا الرجل ارتباطاً كبيراً. كان يمكن أن يتعاطف أحدنا مع الآخر ويفهمه. وبالدموع، وبقلب حزين، شهدت وفاته بعد بضعة أيام، ونظرت للمرة الأخيرة إلى جسده المُسجّى!

نمت أنا و«روبرت» و«كليم» و«إليزا» وطفلاها تلك الليلة فوق الفُرُش في أحد المنزلين الصغيرين في الفناء. وشغل المكان معنا أربعة آخرون من المزرعة ذاتها، جرى بيعهم وكانوا في طريقهم إلى الجنوب. كان «ديفيد» وزوجته «كارولين»، وكلاهما من الخلاسيين- متأثرين للغاية، وخشيا من فكرة وضعهما في حقول القصب والقطن؛ غير أن مصدر خوفهما الأعظم كان من فكرة أن يفترقا. أما «ماري» فكانت فتاة رشيقة وطويلة القامة، سوداء البشرة كأكثر ما يكون، وبدت فاترة وغير مهتمة، فشأن غالبية طبقتها نادراً ما كانت تدرك لكلمة الحرية معنى. ترعرعت في ظل جهل رجل وحشي، فكان حظها من الذكاء يتجاوز قليلاً ذكاء الوحوش. كانت واحدة ممن لا يخشون إلا سياط أسيادهم، وما أكثرهم ولا يعرفون أبعد من الانصياع لأصواتهم. أما الأخرى فكانت «ليثي»، وهي شخصية مختلفة تماماً. كان شعرها طويلاً ومنسدلاً، تميل ملامحها إلى الهندية أكثر من ميلها إلى الزنجية. لها عينيان حادّتان وحاقدتان، وتنضح كلماتها بلغة مفعمة بالكراهية والانتقام. فقد بيع زوجها من قبل ولم تعرف له مكاناً، إلا أنها كانت تعرف أن استبدال سيّد بآخر لن يكون أسوأ. ولم تكن تعبأ إلى أين يأخذونها. وأما فيما يتعلق بالندوب على وجهها، فكانت هذه المخلوقة اليائسة تتمنى أن يأتي اليوم الذي يمكنها أن تمسحها بدماء رجل ما!

بينما كنا نتعرف إلى التاريخ البائس لبعضنا بعضاً، كانت «إليزا» تجلس في زاوية بمفردها تغني الترانيم وتصلّي لطفليها. ولما كانت قلة النوم قد أنهكتني، لم أستطع البقاء مستيقظاً في مواجهة إغراء هذا «المجدِّد الجميل»، واستلقيت إلى جوار «روبرت» فوق الأرض، وسرعان ما نسيت كل المتاعب ونمت حتى فجر اليوم التالي.

وفي الصباح، بعدما نظّفنا الفناء واغتسلنا تحت إشراف «غودين» تلقّينا أوامرَ بأن نطوي الفُرُش ونستعد لاستئناف رحلتنا. أبلغ «كليم راي» أنه لن يغادر حيث اعتزم «بيرتش» أن يصحبه عائداً إلى «واشنطن» لسبب ما. وقد سعِد لهذا كثيراً. فتصافحنا وافترقنا في حظيرة العبيد في «ريتشموند»، ولم أره منذ ذلك الحين. وكم دهشت عندما علمت بعد عودتي أنه قد فرّ من العبودية، ومكث ليلة واحدة في منزل زوج أختي في «ساراتوغا»، وهو في طريقه إلى كندا الحرة، وأخطر أسرتي بمكاني والحال التي تركني عليها.

وفي فترة بعد الظهيرة، اصطففنا في أزواج في مقدمتها أنا و«روبرت»، واقتادنا «بيرتش» و«غودين» من الفناء، مروراً بشوارع «ريتشموند» حتى سفينة «أورليانز». كانت سفينة كبيرة الحجم، مزودة بالكثير من الأشرعة، وتحمل شحنة من التبغ بالأساس. صعدنا جميعاً إلى متنها بحلول الساعة الخامسة. وأحضر «بيرتش» لكل منا كوباً معدنياً وملعقة. كنا أربعين في تلك السفينة؛ كل الذين كانوا في الحظيرة باستثناء «كليم».

بدأت حفر الأحرف الأولى من اسمي على الكوب المعدني، مستخدماً سكين جيب صغيراً لم يؤخذ مني. وسرعان ما تحلّق الجميع

حولي وطلبوا مني حفر أسمائهم على أكوابهم بالطريقة نفسها. لبّيت طلبهم جميعاً، وكان وقتاً لا أظنهم ينسونه.

وفي الليل، وضعنا جميعاً في العنبر، وأغلقوا من فوقنا فتحته الصغيرة. ونمنا فوق الصناديق أو حيثما كان هناك متسع لبسط فُرُشنا فوق الأرض.

ولم يصحبنا «بيرتش» إلى أبعد من «ريتشموند»؛ حيث عاد من هنا إلى العاصمة مع «كليم». ولم يحدث أن رأيت وجهه مجدداً طوال الاثنى عشر عاماً الماضية، إلى أن وقع عليه بصري ثانية في يناير التالي بمكتب شرطة «واشنطن».

كان «جيمس هـ بيرتش» تاجراً للعبيد، يشتري الرجال والنساء والأطفال بأسعار زهيدة ويبيعهم بأسعار غالية. كان مضارباً في لحم البشر- على سوء سمعة هذه المهنة- وكذلك اعتُبر في الجنوب. أما عند هذه النقطة في روايتنا، فيختفي «بيرتش» عن المشهد، غير أنه سيعاود الظهور مرة أخرى في نهايتها، ولكن ليس كطاغية يحمل السوط وإنما كمعتقل، مجرم ذليل في محكمة لم ينفذ فيه حكم العدالة.

الفصل الخامس

أبحرت بنا سفينة «أورليانز» أسفل نهر «جيمس»، بعد أن صعدنا جميعاً إلى متنها. مررنا بخليج «تشيسابيك»، ووصلنا إلى قبالة مدينة «نورفولك» في اليوم التالي. وبينما كنّا راسين، تقدّم صوبنا زورق من المدينة وأحضر إلينا أربعة عبيد آخرين: «فريدريك» وهو فتى في الثامنة عشرة من عمره وُلد عبداً، وكذلك «هنري» الذي يكبره ببضعة أعوام. وكان الفتيان خادمين منزليين في المدينة. أما «ماريا» فكانت فتاة سوداء رقيقة المُحيّا، مثالية القوام، لكنها جاهلة ومغرورة جداً. وكانت تسرّها فكرة الذهاب إلى «نيو أروليانز»، وتضمر فكرة مبالغاً فيها عن جاذبيتها وحسن مفاتنها. وإمعاناً في غرورها، أعلنت لرفاقها أنها لا تشكّ البتة في أن رجلاً ثرياً أعزب، رفيع الذوق والمستوى، سوف يشتريها فور وصولنا إلى «نيو أورليانز»!

إلا أن الشخصية الأبرز بين الأربعة، كان رجلاً يُدعى «آرثر». بينما كان الزورق يقترب تقاتل بشراسة مع حرّاسه، وقد استخدموا القوّة لجرّه إلى متن السفينة. اعترض بملء صوته على المعاملة التي كان يتلقّاها، وطالب بإطلاق سراحه. كان وجهه متورماً وتغطيه الجروح والكدمات، وأحد جانبيه مكشوطاً بالكامل بشكل مؤلم. دُفع على وجه الاستعجال للدخول عبر باب يفضي إلى القبو. وعرفت

شيئاً يسيراً من تاريخه حيث وُلد وعاش حياة صعبة، وقد أطلعني على تفاصيل حياته تلك في وقت لاحق، وكانت كالتالي:

أقام فترة طويلة في مدينة «نورفولك»، وكان رجلاً حراً يعيش مع أسرته هناك، ويعمل بنَّاءً. وجرى اعتقاله في أحد الأيام على نحو غير معتاد، وتعرض لهجوم أثناء عودته إلى منزله، في وقت متأخر من الليل في ضواحي المدينة، من قِبل عصبة من الأشخاص في شارع مقفر. قاتل ودافع حتى خارت قواه. فلما غُلِب عليه في نهاية المطاف كمّموه وقيّدوه بالحبال، وضربوه حتى سقط مغشياً عليه. ثم أخفوه بعد ذلك عدة أيام في حظيرة العبيد في «نورفولك»، وهي مؤسسة شائعة كما يبدو في مدن الجنوب. وفي الليلة السابقة أخرجوه ووضعوه على متن الزورق الذي انطلق من الشاطىء وانتظر وصولنا. واصل الرجل احتجاجه لبعض الوقت ولم يفلح شيء في إثنائه. غير أنه التزم الصمت أخيراً، وغرق في مِزاج كئيب يغلب عليه التفكير، وبدا كأنه يشاور نفسه. كان اليأس واضحاً على وجه الرجل الذي بدا عاقد العزم على شيء ما.

نُزعت عنّا الأصفاد بعد أن غادرنا «نورفولك»، وسُمِح لنا بالبقاء في أثناء النهار على سطح السفينة. اختار القبطان «روبرت» خادماً له، وتم تعييني مراقباً لقسم الطهي وتوزيع الطعام والشراب. وكان لديّ ثلاثة مساعدين؛ «جيم» و«كوفي» و«جيني». وكانت الأخيرة مختصة في إعداد القهوة، التي تتكوّن من دقيق الذرة الذي يحمّص في غلاية، ثم يغلى ويحلّى بدِبس السكر. أما «جيم» و«كوفي» فكانا يخبزان الكعك ويسلقان لحم الخنزير المقدّد.

كنت أقف بجوار منضدة مصنوعة من لوح عريض يستند إلى أعلى البراميل، أقطّع وأقدّم شريحة من اللحم وقطعة من الخبز، وأغرف من غلاية «جيني» بعض القهوة في كل قدح. استُغني عن الصحون وحلّت أصابعهم محلّ السكاكين والشوك. كان «جيم» و«كوفي» يتسمان بالرزانة والاعتناء بعملهما، ويشعران بنوع من الزهو كطاهيين ثانويين، ويشعران من من دون شك بأن ثمة مسؤولية كبيرة تقع على عاتقهما. وكنت أُدعى بـ «المشرف» كما أسماني القبطان.

وكان العبيد يُطعمون مرتين في اليوم؛ في العاشرة صباحاً والخامسة مساءً، ودائماً ما يتلقون النوع والقدر نفسيهما من الطعام، وعلى النحو ذاته الذي وصفته أعلاه. وحين يحلّ الليل كنا نُدفع إلى العنبر، ونُحبس بشكل آمن بالأسفل.

ما إن ابتعدت اليابسة عن مرآنا حين هاجمتنا عاصفة عاتية. فالتفت السفينة وغطست حتى خِلنا أنها ستغرق. وأصاب بعضنا دوار البحر، وركع آخرون على ركبهم للصلاة، بينما تمسّك آخرون بعضهم بعضاً وقد ضربهم شلل الخوف والفزع. أحال القيء مكان احتجازنا كريه الرائحة ومثيراً للاشمئزاز. وكم كان سيسعد غالبيتنا، وينقذنا من عذاب المئات من جلدات السياط وحالات الموت المأساوية، لو أن البحر الرحيم قد اختطفنا في ذاك اليوم من براثن هؤلاء الرجال قساة القلوب. وكان مجرد التفكير في «راندال» والصغيرة «إيمي» يغرقان بين وحوش الأعماق، أجمل بكثير من التفكير في حالهما الراهن؛ يكدحان في حياتهما في مقابل اليسير الزهيد.

عندما أصبحت ضفاف «البهاما» على مرمى البصر، في منطقة

تُعرف باسم «بوصلة النقطة القديمة» أو «ثغر الجدار»، سكنت الرياح ثلاثة أيام، ولكن كنا نتنفس بصعوبة، وبدت مياه الخليج بيضاء استثنائية كماء الجير.

ووفق تسلسل الأحداث، أستدعي الآن حدثاً لم أذكره قط إلا بكثير من الندم. وأشكر الله الذي أتاح لي الخلاص من أغلال العبودية على أنني برحمة منه لم أخضّب يدي بدماء خلقه. وأرجو ممن لم يقعوا أبداً فريسة ظروف مشابهة ألا يكونوا قساة في أحكامهم عليَّ. فحتى يُقيّدوا بالأغلال ويُضربوا، وحتى يجدوا أنفسهم في موقف كذاك الذي كنت فيه حين حُملت من منزلي ومن بين أفراد أسرتي إلى أرض العبودية، أرجو أن يحجموا عن قول ما لا يفعلونه من أجل الحرية. كما لن يُجدي نفعاً أن أفكر الآن في قدر تبرير موقفي أمام الله والناس، ويكفي القول إنني كنت قادراً على تهنئة نفسي على إنهاء قضيّة من من دون أضرار كانت تنذر لبعض الوقت بنتائج وخيمة.

كنت جالساً مع «آرثر» عند مقدمة السفينة فوق الرافعة، في مساء اليوم الأول من سكون الرياح، وكنا نتحدث معاً عن المصير الذي ربما كان في انتظارنا، ونندب معاً سوء الطالع الذي ألمّ بنا. قال «آرثر» ووافقته في هذا أن الموت كان أقل بشاعة من الحياة التي تنتظرنا. وتحدثنا فترة طويلة عن أبنائنا، وحياتنا الماضية، واحتمالات الفرار. فاقترح أحدنا الاستيلاء على السفينة ومن ثم نتخذ طريقنا إلى ميناء «نيويورك»، كنت أعرف القليل عن البوصلة والملاحة، ولكن فكرة المخاطرة بالتجربة كانت محل اهتمام بالغ. تفحّصنا الفرص القائمة أمامنا وضدّنا عند مواجهة الطاقم. من يمكن الاعتماد عليه، ومن

لا يمكن الاعتماد عليه، والوقت المناسب للهجوم، وتحدثنا عن كل ذلك مراراً وتكراراً. شعرت بالأمل ينتعش في صدري مذ طرحت الخطة ذاتها. وراحت الفكرة تدور في ذهني بشكل مستمر. وكلما طرأت صعوبة تلو أخرى كانت الثقة تزداد، وكنا نبحث كيف يمكننا التغلب عليها. ونعمل أنا و«آرثر» على تحسين خطتنا بينما الآخرون نيام. وفي النهاية، وبكثير من الحذر، أطلعنا «روبرت» تدريجياً على نياتنا ووافق عليها من فوره، وانضم من ثم إلى المؤامرة بروح حماسية عالية. لم يكن هناك من بين العبيد الآخرين من نجرؤ على الثقة به. فقد نشؤوا أسرى للخوف والجهل، ويصعب جداً تصوّر عدم انهيارهم أمام نظرة واحدة من رجل أبيض. لم يكن آمناً أن نودع هذا السرّ الجريء لدى أي منهم، وانتهينا إلى أن نتحمل ثلاثتنا بمفردنا مسؤولية المحاولة ومغبتها.

في الليل، كما ذكرت آنفاً، دُفعنا إلى العنبر، وأغلق بابه من خلفنا. كانت كيفية الوصول إلى السطح الصعوبة الأولى التي واجهناها. وكنت قد لاحظت القارب الصغير ممدداً رأساً على عقب عند مقدمة السفينة، فخطر لي أننا لو استطعنا الاختباء أسفله، فربما يغفل عنا الطاقم وهم يقودون العبيد بسرعة إلى العنبر. وقع الاختبار عليَّ لإجراء هذه التجربة حتى نقتنع بجدوى الفكرة. وهكذا، في المساء التالي وعقب وجبة العشاء، تحيّنت الفرصة وأسرعت كي أختبىء أسفل القارب. ومن مكاني ذاك على السطح، استطعت أن أرى ما كان يحدث من حولي بينما لم يلحظني أحد. وفي الصباح، بينما بدأ الجميع في الصعود، تسلّلت من مخبئي من دون أن يراني أحد، فكانت

النتيجة مُرضية تماماً لنا.

كان القبطان ورفيقه ينامان في مقصورة الأول. وعن طريق «روبرت»، الذي أتيحت له الفرصة كثيراً بصفته الساقي، جمعنا المعلومات عن تلك المقصورة، تأكدنا من أماكن مضجعيهما. كما أخبرنا أن هنالك دائماً مسدسين وسيفاً مقوساً موضوعين على المنضدة. وكان الطاهي ينام في مطبخ السفينة على سطح يتخذ شكل مركبة بعجلات ويمكن نقلها من مكان إلى آخر حسب الرغبة والحاجة، بينما البحارة، وكانوا ستة فحسب، ينامون إما أعلى مقدمة السفينة وإما في أراجيح معلّقة بين أجهزة السفينة.

أخيراً انتهينا من إجراءاتنا كافة؛ اتفقنا على أن ننسل أنا و«آرثر» إلى كابينة القبطان فنستولي على المسدسين والسيف، ونقتل القبطان ومساعده في أسرع وقت ممكن. أما «روبرت» فسوف يقف حاملاً هراوة عند الباب المؤدي من السطح إلى الكابينة، ويضرب أياً من البحارة إذا لزم الأمر، حتى نستطيع أن نهبّ لمساعدته. ثم سنمضي بعد ذلك بحسب ما تقتضيه الظروف. فإذا كان الهجوم مباغتاً وناجحاً بما يشل المقاومة، فسيظل العنبر مغلقاً؛ وإلا سيتم استدعاء العبيد إذا سارت الأمور خلاف ذلك، وفي وسط الزحام والسرعة والارتباك قرّرنا أن نستعيد حريتنا أو أن نفقد حياتنا. واتفقنا كذلك على أن أتولّى مهمة الربّان فأبحر صوب الشمال، وأملنا أن تحملنا رياح مواتية إلى أرض الحرية.

كان اسم مساعد القبطان «بيدي»، ولا أذكر اسم القبطان الآن، برغم أنني نادراً ما أنسى اسم أي شخص سمعته. وكان القبطان

رجلاً صغير الحجم، أنيقاً، منتصب القامة، ونشيطاً، تبدو عليه سمات الفخر والشجاعة. إذا كان لا يزال على قيد الحياة ووصلته هذه الصفحات مصادفةً، فسوف يتعرف إلى حقيقة متعلقة برحلة السفينة من «ريتشموند» إلى «نيو أورليانز» في عام 1841، لم يتم تدوينها في سجل الأحداث الخاص به.

كنا جميعاً مستعدّين وننتظر بفارغ الصبر فرصة لوضع مخطّطنا قيد التنفيذ، حتى وقع حدث حزين وغير متوقّع أحبط محاولتنا. أُصيب «روبرت» بالمرض، وسرعان ما أُشيع أنه مصاب بالجدري، وظلّت حالته تزداد سوءاً حتى توفي قبل أربعة أيام من وصولنا «نيو أورليانز». فقام أحد البحارة بتخييطه في بطانيته، وشدّ حجراً ضخماً إلى قدميه، ثم وضعوا جثمانه فوق كوّة في سطح السفينة ورفعوه فوق الحواجز الحديدية، ثم أُلقي جثّة «روبرت» المسكين الهامدة في مياه الخليج البيضاء.

أصابنا جميعاً الفزع جرّاء ظهور الجدري. وأمر القبطان بنثر الجير في أرجاء العنبر، واتخاذ بعض التدابير الوقائية الأخرى. غير أن وفاة «روبرت» وظهور هذا الداء بيننا أحزنني كثيراً، ورحت أحدّق في مياه الخليج المفتوحة بروح بائسة بالفعل.

وبعد ليلة أو اثنتين من موت «روبرت»، كنت أقف متكئاً على الكوّة ذاتها بالقرب من مقدمة السفينة، تنتابني الأفكار اليائسة، عندما سألني أحد البحارة بصوت لطيف عن سرّ حزني الشديد. واطمأننت لصوت الرجل وأسلوبه فأسررت له بأنني كنت رجلاً حراً واختُطفت. فقال إن هذا يكفي كي ينفطر قلب أي شخص،

وتابع أسئلته حتى عرف تفاصيل تاريخي بأكمله. كان اهتمامه بأمري واضحاً جلياً حتى إنه أقسم بلغته البسيطة إنه سوف يساعدني ما استطاع حتى وإن أودى ذلك بحياته. فطلبت منه قلماً وحبراً وورقة علّني أكتب لبعض أصدقائي، ووعدني بأن يأتيني بها، ولكن كانت المشكلة في أن أستخدمها من دون أن تكتشف. لو أنني فقط أستطيع الوصول إلى الجزء الأعلى من مقدمة السفينة بينما هو يراقب المكان من أجلي في أثناء نوم البحارة الآخرين؛ ربما استطعت إنجاز هذه المهمة. وخطرت لي فكرة القارب الصغير على الفور. كان البحّار يعتقد أننا غير بعيدين عن «باليز»، عند مصب نهر «الميسيسيبي»، وينبغي لي أن أكتب رسالتي على الفور وإلا خسرنا هذه الفرصة. ومن ثم نجحنا في الترتيب لإخفائي في الليلة التالية أسفل القارب. وكانت نوبة مراقبته تبدأ عند منتصف الليل. ورأيته يمضي صوب مقدمة السفينة وتبعته بعد ساعة. كان منحنياً في نصف إغفاءة فوق منضدة عليها مصباح ضعيف مرتعش، وقلم وورقة. أفاق الرجل عند قدومي وطلب مني أن أجلس إلى جواره مشيراً إلى الورقة. وبالفعل وجّهت الرسالة إلى «هنري ب. نورثوب» من «ساندي هِلْ»، ورويت له أنني اختُطفت وأنني الآن على متن السفينة «أورليانز» المتّجهة إلى «نيو أورليانز»، وكيف أنه يتعذّر عليَّ أن أخمّن وجهتي النهائية. وطلبت منه أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإنقاذي. ثم أغلقت الرسالة وكتبت العنوان، ووعد «مانينغ» بعد أن قرأها بأن يودعها مكتب بريد «نيو أورليانز». وعدت مسرعاً إلى مكاني أسفل القارب. وفي الصباح، حين كان العبيد يصعدون ويدورون في الأرجاء تسلّلت من دون أن يلحظني

أحد واختلطت بهم.

كان صديقي الطيّب، ويُدعى «جون مانينغ»، إنجليزياً بالمولد، بحار يتميّز بالنبل والكرم. أقام في «بوسطن» في الماضي، وكان طويل القامة وقوي البِنية، في نحو الرابعة والعشرين من عمره، تعلو وجهه بعض البثور لكنه مليء بالخير والطيبة.

لم يقع ما يغيّر رتابة حياتنا اليومية على ظهر تلك السفينة حتى وصلنا «نيو أورليانز». عندما وصلنا إلى السدود، وقبل الإسراع بالسفينة، رأيت «مانينغ» يقفز إلى الشاطىء ويُسرع نحو المدينة، بعد أن نظر خلفه تجاهي نظرة ذات معنى يخبرني فيها بمهمته والغرض من ذهابه. وسرعان ما عاد ومرّ بالقرب مني، ثم لكزني بمرفقه وبغمزة خاصة كأنه يقول: «لا بأس.. تمت المهمة».

عرفت بعد ذلك أن الرسالة وصلت إلى «ساندي هِلْ». وقد زار السيد «نورثوب» «ألباني» ووضعها أمام الحاكم «سيوارد»، بيد أنه لم يحصل على أي معلومات مفيدة بشأن مكاني المحتمل، ومن ثم لم يكن مستحسناً اتخاذ أي تدابير لتحريري، وخَلُص في النهاية إلى تأجيل الموضوع على أمل أن تصل معلومات عن مكان وجودي في النهاية.

فور وصولنا إلى السدود، كان في استقبالنا مشهد سعيد ومؤثّر. فما إن غادر «مانينغ» السفينة متوجهاً إلى مكتب البريد حتى أتى رجلان واستدعيا «آرثر» الذي غمرته سعادة شديدة عندما عرفهما. ولم نكد نتمكّن من منعه من القفز فوق حاجز السفينة، وعندما التقى بهما بعد قليل صافحهما وتعلّق بهما وظل على هذه الحال فترة طويلة. كان الرجلان من «نورفولك» وقد أتيا إلى «نيو أورليانز» لإنقاذه. وعلم

منهما نبأ اعتقال مختطفيه واحتجازهما في سجن «نورفولك». وتحدثا إلى القبطان مدة وجيزة ثم غادرا مع «آرثر» الذي ملأته السعادة.

لكن لم يكن هناك من يعرفني أو يهتم بأمري بين كل من احتشد على الرصيف. لا أحد على الإطلاق. لم يشنّف أذني صوت مألوف، أو يكحّل ناظريّ وجه رأيته من قبل. سرعان ما سيلحق «آرثر» بأسرته ويُسر بفرصة الانتقام ممن أخطؤوا في حقه؛ واحسرتاه، هل سيُكتب لي أن أرى أسرتي ثانية؟ ساد الإحساس بالغربة قلبي وملأه باليأس والأسف لأنني لم أذهب مع «روبرت» إلى قاع البحر.

سرعان ما صعد التجار والمبعوثون إلى متن السفينة. ومن بينهم رجل طويل القامة، نحيل الوجه، فاتح البشرة، مع انحناءة خفيفة، وقد أعلن عن ظهوره حاملاً ورقة في يده. كانت عصبة «بيرتش» تتألف من «إليزا» وطفليها، و«هنري»، و«ليثي» وآخرين ممن لحقوا بنا في «ريتشموند» وتم تسليمهم له. كان هذا الرجل السيد «ثيوفيلوس فريمان». وعندما بدأ يقرأ من الورقة نادى على «بلات»، ولم يجبه أحد. كرّر الاسم مراراً وتكراراً، ولم يكن هناك ردّ. ثم نادى على «ليثي»، و«إليزا»، و«هاري» حتى انتهت القائمة، وكان يتقدم إلى الأمام كل اسم ينادي عليه.

ثم توجّه إلى القبطان وسأله: «أين «بلات»؟»

لم تكن لدى القبطان إجابة، كما لم يجبه أي شخص على متن السفينة فيما يتعلق بهذا الاسم.

ثم أشار «ثيوفيلوس فريمان» إليَّ وسأل القبطان مجدداً: «ومن شحن هذا الزنجي؟»

أجابه القبطان: «إنه بيرتش».

ثم أمرني بصوت غاضب: «اسمك «بلات»، أنت تناسب الوصف الكائن لديَّ، لماذا لم تتقدم؟»

أخبرته أن ذاك لم يكن اسمي ولم يناديني به أحد من قبل، ولكنني لم أعترض عليه إذ عرفته.

«حسناً، سوف أعلّمك اسمك فلا تنسه مجدداً أبداً».

لم يكن «ثيوفيلوس فريمان» مماثلاً لشريكه «بيرتش» بأي حال فيما يتعلق بعدم احترام المقدّسات. وهكذا كنت أُدعى باسم «المشرف» على متن السفينة، ثم كانت تلك المرة الأولى التي أُدعى فيها «بلات»، وهو الاسم الذي أرسله «بيرتش» لعبده المشحون. ومن مكاني على ظهر السفينة، شاهدت مجموعة المساجين المصفّدين الذين يعملون على السدود، ومررنا بجوارهم في طريقنا إلى حظيرة «فريمان» للعبيد. وهي تشبه حظيرة «غودين» في «ريتشموند»، باستثناء أن الفناء مغلق بألواح خشبية منتصبة وذات حواف حادة بدلاً من جدران الطوب.

كان هناك نحو خمسين من العبيد في هذه الحظيرة، بمن فيهم نحن. بعد أن وُضعت فُرُشنا في أحد المباني الصغيرة في الفناء، استُدعينا إليه، وقُدّم لنا الطعام، ثم سُمِح لنا بالتجوّل في المكان حتى الليل، حين التففنا في فُرُشنا ونمنا أسفل السقيفة أو في مخزن الغلال أو في الساحة المفتوحة، حسبما فضّل كل منا.

ولم تغمض عيناي سوى برهة صغيرة في تلك الليلة؛ كان ذهني منشغلاً. هل يعقل أنني كنت على مسافة أميال من موطني، وأنهم قد ساقوني عبر الشوارع كوحش ضالّ، وقيّدت وضُربت بلا رحمة، ثم

حُشِرت مع عبيد آخرين مثلي؟ هل كانت أحداث الأسابيع القليلة الماضية وقائع، أم أنني أشاهد جزءاً بائساً من حلم طويل؟ كلا، لم يكن ذلك وهماً. كانت كأس أحزاني ممتلئة حتى فاضت. فرفعت يديّ إلى السماء والليل منسدل ومن حولي الصحبة النائمة باختلاف أشكالها، وصلّيت من أجل الرحمة لهذا الأسير المسكين المنبوذ. توسّلت إلى الجبّار إله الجميع- الأحرار والعبيد- ووجّهت إليه دعوات روحاً منكسرة، وناشدته منحي القوة والبأس حتى أحتمل متاعبي. ولبثت على هذه الحال حتى أيقظ ضوء الصباح النائمين مؤذناً بانطلاق يوم آخر في أغلال العبودية.

الفصل السادس

وقف السيد «ثيوفيلوس فريمان» اللطيف والطيّب، شريك «جيمس بيرتش» أو وكيله، وحارس العبيد في حظيرة العبيد في «نيو أورليانز»، بين حيواناته في الصباح الباكر. مع ركلة من آن إلى آخر للمسنّين من الرجال والنساء، وفرقعة السياط قرب آذان الصغار من العبيد، لم يمضِ وقت طويل قبل أن ينهض الجميع ويصبحوا منتبهين بالكامل. وكان السيد «ثيوفيلوس فريمان» يجوب المكان بلا كلل وهو يجهّز ممتلكاته لعرضها في غرفة المبيعات، عازماً من دون شك على أن يكون هذا يوم عمل حافل.

طُلب منا أن نغتسل جيداً في المقام الأول، وأن يحلق ذوو اللحى لحاهم. ثم أمدّوا كل واحد منا بحُلّة جديدة، رخيصة ولكنها نظيفة، فارتدى الرجال قبعة وقميصاً وبنطالاً وحذاء، فيما ارتدت النساء ثياباً قطنية ووضعن مناديل حول رؤوسهن. ثم قادونا إلى غرفة كبيرة في القسم الأمامي من البناية التي ألحق بها الفناء حتى يتم تدريبنا بشكل جيد قبل عرضنا على الزبائن. وُضع الرجال عند أحد جوانب الغرفة والنساء على جانب آخر، فكان يقف الأطول قامة في مقدمة الصفّ، ويليه الأقصر فالأقصر، حسب الطول. وقفت «إيميلي» في آخر صف النساء. طلب منا «فريمان» أن نتذكر أماكننا، وأن نبدو

بارعين ونشيطين؛ وكان حديثه هذا يتسم بالترهيب تارة وبالترغيب تارة أخرى. وقضينا ذاك اليوم في التدريب على أن «نبدو بارعين» وأن نتحرك في أماكننا بدقة بالغة.

بعد إطعامنا في فترة بعد الظهيرة تجمّعنا في استعراض آخر للرقص. عزف «بوب»، وهو صبي أسود امتلكه «فريمان» بعض الوقت، على الكمان. ولما كنت أقف بالقرب منه تجرّأت وطلبت منه أن يعزف «ذا فيرجين ريل». ولكنه أجاب بأنه لا يستطيع وسألني إن كنت أستطيع عزفها. رددت بالإيجاب فناولني الكمان وعزفت اللحن حتى نهايته. وأمرني «فريمان» أن أواصل العزف وبدا مسروراً جداً، وأبلغ «بوب» إنّي أفضل منه بكثير، ملاحظة أحزنت رفيقي الموسيقي كثيراً.

في اليوم التالي طلب العديد من الزبائن فحص «بضاعة» فريمان الجديدة. وكان هذا الرجل الأخير ثرثاراً جداً، يدقق كثيراً بشأن العديد من النقاط والخصال الجيدة. فكان يطلب منا أن نرفع رؤوسنا، وأن نسير ذهاباً وإياباً، بينما يتحسس الزبائن أيادينا وأرجلنا وأجسادنا، ويطلبون منا الاستدارة من وقت إلى آخر، ويسألوننا عن الأشياء التي يمكننا فعلها، ويطلبون منا أن نفتح أفواهنا لفحص أسناننا، تماماً كما يفعل الفارس عند فحص جواد على وشك مقايضته أو شرائه. وأحياناً ما كان يؤخذ رجل أو امرأة إلى المنزل الصغير في الساحة لتجريده أو تجريدها من ملابسها لفحص أكثر دقة. فكانت الندبات على ظهر العبد تشير إلى تمرّده أو روحه الجامحة؛ وهو الأمر الذي يؤثر سلباً على بيعه.

كان هناك رجل كبير السن قال إنه يريد سائقاً لعربته، وبدا أنه

يفكر في شرائي. ومن حديثه مع «فريمان»، فهمت أنه يعيش في المدينة. رغبت كثيراً في أن يشتريني إذ شعرت أنه لن يكون من الصعب الفرار من «نيو أورليانز» على متن أي سفينة شمالية. طلب منه «فريمان» ألفاً وخمسمائة دولار ثمناً لي، إلا أن الرجل العجوز أصرّ على أنه ثمن مبالغ فيه خاصة وأن الأوقات صعبة. غير أن «فريمان» أكّد له أنني مُعافى وبصحة جيدة، وقويّ البنية، وذكي، ولم يفته أن يعظم من شأني بكوني أجيد العزف على الآلات الموسيقية. وفاوض العجوز ببراعة مؤكداً أن ليس هناك شيء استثنائي في هذا الزنجي، وقرّر في النهاية، للأسف، أن يتنازل عن شرائي قائلاً إنه سوف يعاود المجيء ثانية. ولكن تمّت بعض عمليات البيع في ذلك اليوم؛ فتم شراء «ديفيد» و«كارولين» معاً من قِبل مزارع من «ناتشيز»، وتركانا بابتسامة عريضة وفي أسعد حال لأنهما لم يفترقا. أما «ليثي» فبيعت لمزارع من «باتون روج» وعيناها تلتمعان غضباً بينما يقودها صاحبها بعيداً.

اشترى هذا الرجل «راندال» أيضاً بعد أن طلب منه أن يقفز في الهواء، وأن يعدو فوق الأرض، ويقوم ببعض الأعمال الأخرى، حتى يظهر نشاطه وحالته. وهكذا استمر الاتجار طوال اليوم، كانت «إليزا» تبكي بصوت مرتفع وتفرك يديها. وتوسّلت إلى الرجل ألا يشتري «راندال» من دونها و«إيميلي» معه. ووعدته أن تكون أمة شديدة الإخلاص. وحين أجابها الرجل أن ليس في وسعه شراؤهم جميعاً، انفجرت «إليزا» في نوبة من الأسى البالغ وانتحبت. التفت نحوها «فريمان» وأمرها بوحشية وسوطه مرفوع في يده أن تكفّ عن تلك الضوضاء وإلا جَلَدَها. لم يكن ليقبل بمثل هذا النحيب، وما

لم تتوقّف عنه في تلك اللحظة فسيأخذها إلى الساحة ويضربها مائة جلدة. أجل سيوقف ذلك الهراء بسرعة، واللعنة عليه إن لم يفعل! انكمشت «إليزا» أمامه وحاولت عبثاً أن تكفكف دمعها وهي تردّد أنها تريد أن تكون مع طفليها بقية عمرها القصير. لم ينجح «فريمان» بتهديده ووعيده في أن يُصمِت هذه الأم الثكلى تماماً، وظلّت تتوسّل إليهم وترجوهم بكل ما أوتيت من استعطاف كي لا يفرقوا بين ثلاثتهم. وكرّرت مراراً وتكراراً كيف أنها تحب ولدها، وردّدت وعودها السابقة بأن تكون أمة مخلصة ومطيعة، وكيف أنها ستعمل ليل نهار حتى الرمق الأخير فيها، فقط إن اشتراهم أحدهم معاً. إلا أن هذا لم يُجدِ نفعاً، فلم يكن الرجل ليحتمل نفقات شرائهم معاً. وتمت الصفقة وبات لزاماً على «راندال» أن يرحل بمفرده. فأسرعت أمه نحوه واحتضنته بحرارة، وقبّلته كثيراً، وسألته أن يتذكرها دائماً؛ وعبراتها تتساقط على وجه الفتى كالمطر.

أما «فريمان» فكان يسبها، وينعتها بالباغية المنتحبة النوّاحة، وأمرها أن تعود إلى مكانها وتحسن التصّرف وتتحكم في سلوكها. وأقسم إنه لن يحتمل منها هذا العبث بعد ذلك أبداً، وأنه سيجعلها تبكي بحقّ إن لم تحذر، مؤكداً لها أنه سيفعل.

وكان المزارع من «باتون روج» على أهبة الرحيل ببضاعته عندما التفت «راندال» خلفه وهم يعبرون الباب وقال: «لا تبكي يا أمي. سوف أكون ولداً طيباً. لا تبكي».

الله وحده يعلم ما حلّ بالصبي بعد هذا المشهد الحزين. وربما كنت بكيت أنا أيضاً لو واتتني الشجاعة.

وفي تلك الليلة، أصاب المرض كل هؤلاء الذين أتوا إلى حظيرة «أورليانز». اشتكى الجميع من ألم عنيف في الرأس والظهر. حتى الصغيرة «إيميلي» كانت تبكي بشكل متواصل على غير عادتها. وفي الصباح استُدعي الطبيب إلا أنه لم يستطع تحديد طبيعة الشكوى أو مصدر الألم. وبينما كان يفحصني ويوجه إليَّ الأسئلة المتعلقة بالأعراض التي أشعر بها أبديت له رأيي من أنه قد يكون وباء الجدري، وذكرت له خبر وفاة «روبرت» كما رأيتها. ورأى الطبيب أن الأمر قد يكون كذلك بالفعل، وأرسل إلى كبير الأطباء في المستشفى، الذي أتى بعد فترة وجيزة. كان رجلاً ضئيل البِنية وذا شعر خفيف، يُدعى دكتور «كار». أكد الطبيب أنه داء الجدري بالفعل مما أفزع الجميع في كل أرجاء الساحة. وفور انصراف دكتور «كار» وُضِعت أنا و«إليزا» و«إيميلي» و«هاري» في عربة ونقلنا إلى المستشفى. وكانت بناية كبيرة من الرخام الأبيض مشيدة على أطراف المدينة. مكثت أنا و«هاري» معاً في غرفة واحدة في أحد الطوابق العليا. واشتد عليَّ المرض، حتى ظللت فاقد البصر تماماً ثلاثة أيام كاملة. وبينما كنت أرقد على هذه الحالة ذات يوم دخل «بوب» إلى الغرفة وأخبر الدكتور «كار» أن «فريمان» أرسله كي يطمئن على أحوالنا. فطلب منه الطبيب أن يخبر «فريمان» أن حالة «بلات» سيئة جداً، ولكنه قد يتعافى إذا لم يمت بحلول الساعة التاسعة.

توقّعت أن أموت. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك الكثير في انتظاري ليستحق أن أعيش من أجله، فإنني فزِعت من دنوّ الأجل. وفكّرت لو كان من الممكن عِتقي كي أموت في حضن عائلتي،

فالموت بين الغرباء وفي مثل هذه الظروف أمر يبعث على الأسى.

كان المستشفى يضمّ عدداً كبيراً من المرضى من الجنسين، ومن كل الأعمار. وكانت تُصنّع التوابيت في الجزء الخلفي منه. وعندما يموت أحدهم تُقرع الأجراس في إشارة إلى الحانوتي حتى يأتي ويحمل الجثمان إلى أرض المدفن. وكان صوت الأجراس الحزين يعلو عدة مرات في كل يوم وكل ليلة معلناً عن موت جديد. إلا أن أجلي لم يحن بعد. ومضت الأزمة وشرعت أتعافى، وعدت بعد أسبوعين ويومين مع «هاري» إلى الحظيرة ووجهي به آثار ذاك المرض، والتي لم تزل ماثلة حتى اليوم. كما أُعيدت «إليزا» و«إيميلي» في عربة في اليوم التالي، وعُدنا مجدداً إلى العرض على المشترين في غرفة البيع لفحصنا وشرائنا. وكنت لم أزل آملاً في أن يتصل الرجل العجوز الذي يبحث عن سائق لعربته ويشتريني. وكنت أجد في هذا الأمل يقيناً في استعادة حريتي. لكن توافد على الغرفة زبون تلو الآخر ولم يظهر هذا الرجل أبداً.

أخيراً، حدث ذات يوم حين كنا في الساحة أن أتى «فريمان» وأمرنا بأن نعود إلى أماكننا في الغرفة الكبرى. وكان في انتظارنا رجل عندما دخلنا، وحيث إنني سوف أذكر هذا الرجل كثيراً في سياق هذه القصة فربما يجدر بي أن أصف مظهره الشخصي، وتقديري لشخصيته منذ الوهلة الأولى.

كان رجلاً تتجاوز قامته الطول العادي، منحنياً ويميل إلى الأمام بعض الشيء. كان حسن المظهر، وبدا أنه في منتصف العمر. ولم يكن في مظهره ما يسوء، بل ثمة شيء ما يبدو مرحاً وجذاباً في ملامح وجهه ونبرة صوته. ومن الواضح لأي شخص أن كل السمات اللطيفة قد

اجتمعت في صدره. أخذ الرجل يتجوّل بيننا ويطرح أسئلة كثيرة حول ما نستطيع القيام به والعمل المعتادين عليه، وما إذا كنا نحب العيش معه، وهل سنكون أشخاصاً جيدين إذا ما اشترانا، وغير ذلك من الاستجوابات المثيلة.

بعد المزيد من الفحص والحديث عن الأسعار عرض أخيراً على «فريمان» ألف دولار ثمناً لي، وتسعمائة نظير «هاري»، وسبعمائة ثمناً لـ «إليزا». ولا أدري إذا كان داء الجدري قد حَطَّ من قيمتنا، أو ثمة سبب آخر، المهم أن «فريمان» ارتضى أن يخصم من ثمني خمسمائة دولار. وعلى أي حال، وبعد ادّعاء التفكير الخبيث، أعلن «فريمان» موافقته على قبول العرض وإتمام الصفقة على هذا النحو.

وما إن سمعت «إليزا» بالنبأ حتى اجتاحتها نوبة عذاب جديدة، ولكنها كانت منهكة تماماً وزائغة العينين هذه المرة جراء فرط المرض والأسى. ولربما من الأفضل إن أتجاوز هذا المشهد في صمت؛ فهو يستدعي ذكريات أشدّ حزناً وأعمق أثراً من قدرة أي لغة على وصفه. لقد رأيت من قبل أمهات يقبّلن وجوه الموتى من أبنائهن؛ رأيتهن ينظرن إلى القبر بينما ينهال التراب بصوت ثقيل على التوابيت ويخفيها عن أعينهن إلى الأبد، ولكنني لم أرَ قط مشهداً بمثل هذا الحزن الدفين، والعظيم، الذي لا حدود له عندما فارقت «إليزا» ابنتها. اندفعت من صف النساء الذي كانت تقف فيه إلى حيث كانت تقف «إيميلي»، وأمسكت بها بين ذراعيها، واستشعرت الطفلة خطراً وشيكاً فشبكت يديها حول عنق أمها وأخفت رأسها الصغير في صدرها. أمرها «فريمان» بصرامة أن تلزم الهدوء، لكنها لم تلتفت إليه،

فأمسك بذراعها ودفعها بقسوة إلا إنها تمسكت أكثر وأكثر بطفلتها. فما كان منه إلا أن سدد لها ضربة قاسية مع وابل من الشتائم فتراجعت مترنّحة وكادت أن تسقط. يا إلهي! لكم توسّلت وتضرّعت آنذاك كي لا تفترق عن ابنتها. لماذا لا يشتريانهما معاً؟ لماذا لا يتركونها مع واحد من أبنائها؟ وراحت تصرخ وهي جاثية على ركبتيها: «الرحمة .. الرحمة يا سيدي! أرجوك، أرجوك يا سيدي اشترِ «إيميلي». لن أستطيع العمل أبداً إذا أخذتموها مني؛ سوف أموت!».

تدخّل «فريمان» مجدداً ولكنها تجاهلته وواصلت توسّلها ورجاءها وقد زادت وطأة تضرعها وهي تقصّ عليه كيف أخذوا منها «راندال»، وأنها لن تراه مرة أخرى أبدا، وها هي الآن - يا إلهي، من الظلم أن يأخذوها بعيداً عن «إيميلي» - عروسها - حبيبتها الوحيدة، وكيف لها وهي الصغيرة جداً أن تعيش من من دون أمها؟!

أخيراً، وبعد الكثير من التوسّل، تقدّم مشتري «إليزا» إلى الأمام وقد بدا عليه التأثر بشكل واضح، وأخبر «فريمان» أنه سوف يشتري «إيميلي» وسأله عن ثمنها.

فكانت إجابة «فريمان ثيوفيلوس» أن سأل الرجل: «ما ثمنها؟ هل ستشتريها؟»، ثم أردف مسرعاً ليجيب عن السؤال بقوله: «لن أبيعها. إنها ليست للبيع».

فقال الرجل إنه لا يحتاج إلى طفلة صغيرة بهذا الحد، وإنها لن تجديه نفعاً، ولكن ما دامت الأم مولعة بابنتها إلى هذا الحدّ، فلا بأس بشرائها بسعر معقول بدلاً من أن يفرّق بينهما. ولكن «فريمان» كان أصم القلب إزاء هذا الطرح الإنساني، وقال إنه لن يبيعها الآن

مطلقاً. سوف يبيعها بالكثير والكثير من المال بعد بضع سنوات، وإن هناك ما يكفي من الرجال في «نيو أورليانز» لشرائها بخمسة آلاف دولار نظراً إلى ما ستكون عليه من حسن وجمال. لا، لن يبيعها. كانت جميلة؛ لوحة فنية؛ دمية باهرة الحسن؛ من دم الأحرار، وليست من الزنجيات ذوات الشفاه الغليظة، العنيدات اللواتي يجمعن القطن، واللعنة عليه إن باعها الآن.

وعندما سمعت «إليزا» إصرار «فريمان» على ألا يبيع «إيميلي»، أصابها الجنون بحق، وراحت تصرخ بصوت هادر وغاضب: «لن أذهب من دونها، ولن تأخذوها مني»، حتى امتزج صوتها بصوت «فريمان» المرتفع والساخط يأمرها بأن تلتزم الصمت.

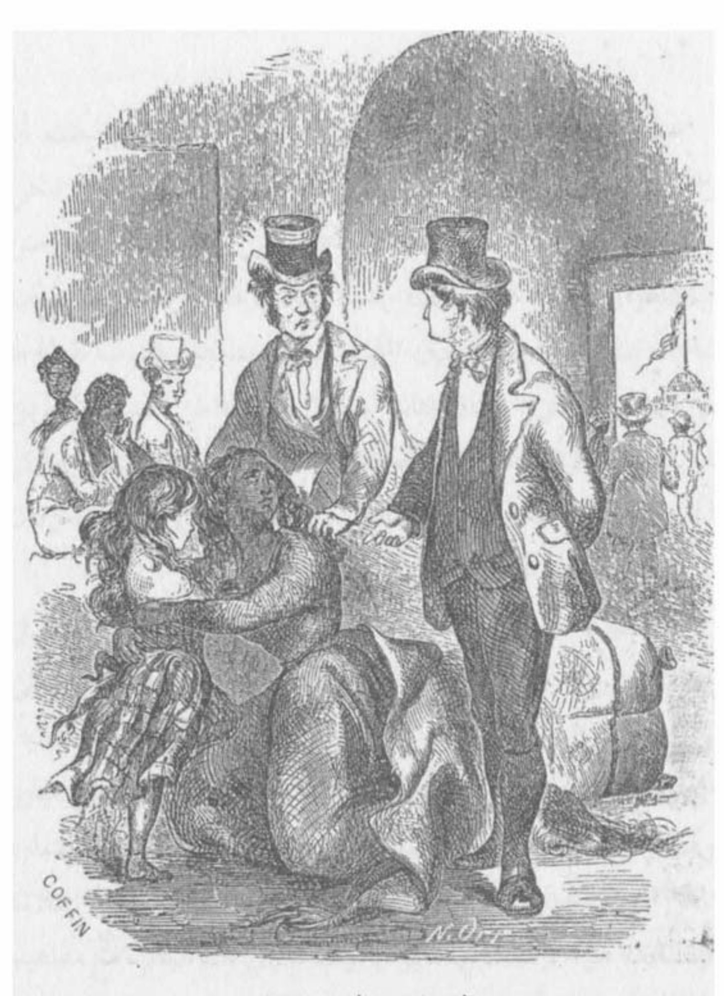
في تلك الأثناء، ذهبت مع «هاري» إلى الساحة حيث أتينا بفُرُشنا وذهبنا إلى البوابة الأمامية استعداداً للرحيل. وإلى جوارنا وقف مشترينا وهو يحدق في «إليزا» ولسان حاله ينبيء بالندم لشرائها متسبّباً في كل هذا الألم. انتظرنا بعض الوقت حتى نجح «فريمان»- بعد نفاد صبر- في أن ينتزع «إيميلي» من أمها بمنتهى القوة والقسوة بعد أن كانتا متشبثتيْن إحداهما بالأخرى بكل قوتهما.

صرخت الطفلة: «لا تتركيني يا أمي - لا تتركيني»، بينما كانت تُدفع الأم بقسوة إلى الأمام؛ «لا تتركيني يا أمي - عودي يا أمي»، وهي تلوح بذراعيها في الهواء في التماس شديد. ولكن ذهب بكاؤها هباءً. وفي الشارع خارج الباب أسرعنا بالرحيل، ولم يزل صوت الطفلة يأتينا وهي تنادي على أمها: «عودي يا أمي - لا تتركيني .. عودي إليَّ يا أمي»، وأخذ صوتها يخفت تدريجياً حتى اختفى تماماً مع

اتساع المسافة، وتلاشى تماماً في النهاية.

لم تسمع «إليزا» عن «راندال» و«إيميلي» ولم ترهما بعد ذلك أبداً، برغم أنهما لم يغِيبا عن خاطرها لحظة واحدة ليلاً أو نهاراً، بل كانت تتحدث إليهما في حقل القطن، أو في الكوخ، وفي أي مكان آخر، كما لو كانا هناك بالفعل. ولم تكن تنعم ببعض الراحة إلا عندما تستغرق في الوهم أو يغلب عليها النوم.

وكما قيل عنها، لم تكن «إليزا» أمَة عادية؛ فإلى جانب ذكائها الطبيعي الكبير كانت تتمتع بمعرفة ومعلومات عامة حول غالبية الموضوعات، فضلاً عن أنها صادفت فرصاً قلما تتاح لمن هم في طبقتها المضطهدة. لقد ارتقت إلى أماكن الحياة الراقية، حيث كانت الحرية- الحرية لها ولأبنائها- حلمها نهاراً وحافزها ليلاً. في رحلتها في متاهات العبودية، والعيون مسلطة على تلك المنارة الملهمة بالأمل، ارتقت «إليزا» إلى «قمة الجبل» ووصلت إلى «أرض الميعاد». وفي لحظة غير متوقّعة غلب عليها الإحباط واليأس، وخبا حلم الحرية في عينيها وهم يقودونها إلى أسرها، فباتت «تبكي ليلها حتى تبلل الدموع وجنتيها، وتآمر عليها أصدقاؤها وأصبحوا أعداءها».



الفصل بين إليزا وابنتها

الفصل السابع

عند رحيلنا عن حظيرة العبيد في «نيو أورليانز»، اتبعت أنا و«هاري» سيدنا الجديد عبر الشوارع، بينما كانت «إليزا» تبكي وتحاول العودة فيدفعها «فريمان» وأتباعه، حتى وجدنا أنفسنا على متن الباخرة «رودلف» التي كانت راسية عند المرفأ. وفي غضون نصف ساعة، كنا نتحرك بخفة فوق «الميسيسيبي» متجهين صوب نقطة ما على نهر «رد ريفر». وكان هناك عدد لا بأس به من العبيد الآخرين على متن الباخرة تم شراؤهم حديثاً من سوق «نيو أورليانز». وأتذكر السيد «كيلسو» الذي قيل عنه إنه كان مزارعاً معروفاً وثرياً، وكان مسؤولاً عن مجموعة النساء.

أما سيدنا فكان اسمه «وليام فورد»، وكان يعيش آنذاك في «جريت باين وودز» في أبرشية «أفويليس» الكائنة على الضفة اليمنى من «رد ريفر» في قلب «لويزيانا»، وأصبح بعدها واعظاً معمدانياً. وفي جميع أرجاء أبرشية «أفويليس»، لاسيما على طول ضفتي «بايو بوف» حيث يُعرف الرجل بشكل أكبر ويرتبط به المواطنون باعتباره كاهن الرب الجدير بالاحترام. وعلى الأرجح لا تتسق فكرة امتلاك الإنسان لأخيه الإنسان في العبودية والاتجار في لحم البشر، مع مفاهيم الحياة الأخلاقية أو الدينية، بالنسبة إلى الكثير من العقول الشمالية.

ومن أوصاف أشخاص مثل «بيرتش» و«فريمان»، وغيرهما ممن سوف أذكر لاحقاً، لا شك أنهم يصمون كل فئة المتاجرين بالعبيد ومالكيهم بالاحتقار والمقت من دون تمييز. ولكني كنت عبداً للسيد «فورد»، وأتيحت لي الفرصة كي أتعرف إلى شخصيته وفعله، وأرى أن من الإنصاف تجاهه أن أقول إنه ليس هناك في رأيي رجل مسيحي لطيف نبيل وصريح بقدر «وليام فورد»، غير أن ذوي النفوذ ومعارفه المحيطين به قد أصموا قلبه عن الخطأ الفادح الكائن في قلب نظام العبودية. فهو لم يشكّك أبداً في الحق الأخلاقي لشخص ما في أن يمتلك شخصاً آخر. وبالنظر إلى النهج الذي اتبعه آباؤه من قبله، كان يرى الأشياء من المنظور ذاته. ولو أنه نشأ في ظل ظروف وتأثيرات مختلفة لكانت أفكاره اختلفت بلا شك. ومع ذلك، كان نموذجاً للسيد الحق، يحذو المسار الذي يظنه صحيحاً حسب فهمه، وسعيد الحظ هو العبد الذي يمتلكه هذا الرجل. ولو أن كل الرجال كانوا على شاكلته لحُرمت العبودية من أكثر من نصف مرارتها.

أمضينا يومين وثلاث ليالٍ على متن الباخرة «رودلف»، ولم تقع في أثنائها أي أحداث خاصة. وصار «بلات» اسمي كما أسماني «بيرتش»، وأصبحت أُدعى به طوال فترة عبوديتي. أما «أليزا» فقد بيعت باسم «درادي»، وهكذا ذُكرت في صك امتلاك «فورد» لها، وأصبحت مُسجّلة في الملف الرسمي في «نيو أورليانز».

دأبت أفكر في أثناء رحلتنا في موقفي، وأتدبر المسار الأفضل الذي يجدر إتباعه حتى أتمكن من الفرار في نهاية المطاف. وكدت في بعض الأحيان، ليس آنذاك فحسب بل بعد ذلك، أوشك على إطلاع

«فورد» على حقيقة تاريخي. وأميل الآن إلى الاعتقاد بأنه كان يجب عليَّ أن أفعل ذلك. ولطالما راودتني هذه الفكرة، غير أن الخوف من مغبة نتائجها كان يجهضها ولم أضعها أبداً في حيز التنفيذ، حتى ظهر في أثناء نقل ملكيتي والارتباكات المالية التي صاحبت هذا الشأن، أن مثل هذا الإفصاح لم يكن آمناً على الإطلاق. وبعد ذلك، في ظلّ أسياد آخرين مختلفين عن «وليام فورد»، عرفت أن مجرد التلميح بهويتي الحقيقية قد يرمي بي إلى أعمق أعماق العبودية. كنت متاعاً مُكلّفاً أثمن من التعرّض للخسارة، وأدرك أنه سأنقل إلى مكان أبعد على حدود «تكساس» ربما لبيعي هناك، وأنه سيتم التخلّص مني كما يتخلص اللّص من جواده المسروق إذا ما همست بحقي في الحرية. فقرّرت أن أوصد صدري على سرّي، وألا أتفوّه بكلمة أو بنت شفة عمّن أكون أو ما كنت عليه، متوكلاً على الخالق ومعتمداً على دهائي حتى يتحقق الخلاص.

وأخيراً تركنا الباخرة «رودلف» في مكان يُدعى «الإسكندرية» على بعد مئات الأميال من «نيو أورليانز». كانت تلك مدينة صغيرة على الشاطىء الجنوبي لنهر «رد ريفر». بتنا ليلتنا هناك ثم اتخذنا قطار العربات الصباحي وسرعان ما وصلنا إلى «بايو لاموري»، وهي منطقة أصغر وتبعد مسافة ثمانية عشر ميلاً عن «الإسكندرية». وكانت محطة السكة الحديد النهائية آنذاك، فيما كانت مزرعة «فورد» على طريق «تكساس»، على مسافة اثني عشر ميلاً من «لاموري» في «جريت باين وودز». وعلمنا أنه يتعين علينا أن نقطع هذه المسافة سيراً على الأقدام حيث إن المواصلات العامة لا تخدم هذه المنطقة.

ومن ثم سرنا جميعاً في صحبة «فورد». كان الطقس حاراً جداً. كنا أنا و«هاري» و«إليزا» لا نزال ضعافاً، وباطن أقدامنا حسّاساً من أثر الجدري. تابعنا سيرنا ببطء و«فورد» يمهلنا كل الوقت كي نجلس ونرتاح كلما كنا بحاجة إلى ذلك، ولا شك أننا استخدمنا هذا الامتياز كثيراً جداً. وبعد أن تركنا «لاموري» وعبرنا مزرعتين؛ إحداهما يمتلكها السيد «كارنيل» والأخرى يمتلكها السيد «فلينت»، وصلنا إلى «باين وودز» وهي برّية تمتد حتى نهر «سابين».

كانت البلدة منخفضة حول «رد ريفر»، وتحف بها المستنقعات. أما «باين وودز» كما يدعونها فكانت مرتفعة نسبياً سوى من مساحات صغيرة متقطعة منتشرة عبرها. وكانت الأشجار تغطي هذه الأرض المرتفعة بكثرة وباختلاف أنواعها؛ البلوط الأبيض، وأشجار البندق، والصنوبر الأصفر بصفة أساسية. وكانت ضخمة الحجم ترتفع نحو ستين قدماً، وتشق عنان السماء بشكل مستقيم تماماً. وكانت الغابات تعجّ بالماشية الخجولة والبرية التي تندفع في قطعان ويعلو خوارها كلما اقتربنا منها. وبعضها كان يحمل علامات أو موسوماً، فيما بدا بعضها الآخر بحالته البرية غير المروّضة. وكانت أحجامها أصغر بكثير من سلالات الماشية في الشمال، أما ما يميّزها ولفت انتباهي، فكانت قرونها التي تبرز من جانبي رؤوسها بشكل مستقيم تماماً، كقضيبين من الحديد.

وصلنا بحلول الظهيرة إلى مساحة خالية من ثلاثة أو أربعة فدادين، مشيداً فوقها منزل خشبي صغير غير مطليّ، ومخزن للذرة، أو مخزن الحبوب، ومطبخ خشبي على مسافة صغيرة من المنزل. كان هذا

المسكن الصيفي للسيد «مارتن». فلقد كان المزارعون الأثرياء الذين يمتلكون عقارات ضخمة في «بايو بوف» معتادين على قضاء الموسم الحارّ في هذه الغابات؛ حيث المياه العذبة والظلال اللطيفة. وحقيقة الأمر أن هذه المنازل الصيفية تمثّل لهذه الفئة ما تمثله «نيوبورت» و«ساراتوغا» للأثرياء في المدن الشمالية.

وما إن وصلنا حتى أُرسلنا إلى المطبخ وقدموا لنا البطاطا الحلوة، وخبز الذرة، ولحم الخنزير المقدّد، بينما تناول السيد «فورد» غداءه مع «مارتن» في المنزل. وكان العبيد ينتشرون بكثرة في المكان. ثم أتى «مارتن» إلى المطبخ كي يرانا وسأل «فورد» عن ثمن كل منا، وإذا ما كنا جميعاً عبيداً جُدُداً، وما إلى ذلك، فضلاً عن بعض الأسئلة عن سوق العبيد بشكل عام.

وبعد أن حصلنا على قسط كبير من الراحة تابعنا اجتياز طريق «تكساس» الذي بدا مقفراً بقلّة سالكيه. وعبرنا خمسة أميال من الغابات المتصلة من من دون أن نلحظ ساكناً واحداً. وأخيراً، بينما كانت الشمس تميل جهة الغرب، دخلنا مساحة مفتوحة أخرى تتألف من اثني عشر أو خمسة عشر فداناً.

وفي هذه الأرض المفتوحة انتصب منزل أكبر بكثير من منزل السيد «مارتن». كان يتألف من طابقين وشرفة في مقدمته. وفي الجزء الخلفي مطبخ أيضاً، وحظيرة للدواجن، ومخزن للذرة، وعدة أكواخ للزنوج. وبالقرب من المنزل كان بستان الخوخ وحدائق البرتقال وأشجار الرمان. الأرض كلها محاطة بالغابات وتغطيها طبقة سميكة من الخضرة الغنية. كان مكاناً هادئاً ولطيفاً ومنعزلاً؛ بقعة خضراء في

البرية. كان هذا منزل سيدي «وليام فورد».

وبينما كنا نقترب، كانت تقف في الشرفة فتاة شاحبة تُدعى «روز». وما إن أصبحنا عند الباب حتى نادت الفتاة على سيدتها التي أتت مسرعة لملاقاة سيّدها، فقبّلته وسألته ضاحكة ما إذا كان قد اشترى «هؤلاء الزنوج». وأجابها «فورد» أنه قد فعل، وطلب منا الذهاب إلى كوخ «سالي» حتى نستريح. وفي ركن المنزل، وجدنا «سالي» تقوم بغسل الملابس وبجوارها طفلاها يمرحان فوق العشب. وما إن رأيانا حتى قفزا وأسرعا نحونا وراحا ينظران إلينا كأرنبين، ثم عادا إلى أمهما وكأنهما خائفان منا.

قادتنا «سالي» إلى الكوخ وطلبت منا وضع متاعنا والجلوس، قائلة إننا متعبون ولا شك. وسرعان ما دخل «جون» الطاهي، وهو فتى في السادسة عشرة من عمره، ذو بشرة أشد دُكنة من أي غراب، وقد أتى مسرعاً ليحدّق في وجوهنا ثم ينصرف من من دون أن يزيد على قوله: «أهلا بكم» ليعود إلى المطبخ وهو يضحك بصوت مرتفع كما لو أن مجيئنا كان مزحة كبيرة.

ولما كنت تعِباً جداً من سير هذه المسافة الطويلة، عمدت أنا و«هاري» فور أن حلّ الظلام إلى الالتفاف ببطانياتنا، واستلقينا على أرضية الكوخ، وأفكاري تهيم كالمعتاد صوب زوجتي وأبنائي. وكان إدراكي موقفي الراهن، وانعدام الأمل في أي جهد قد يؤدي إلى فراري عبر غابات «أفويليس» الواسعة، كلها أشياء جثمت على صدري، بيد أن قلبي كان في «ساراتوغا».

استيقظت في الصباح الباكر على صوت سيدي «فورد» وهو

ينادي على «روز»، التي أسرعت إلى المنزل كي تساعد الأطفال في ارتداء ملابسهم، فيما ذهبت «سالي» إلى الحقل لحلب الأبقار، وكان «جون» منشغلاً في المطبخ بإعداد طعام الإفطار. في تلك الأثناء، كنت أتجوّل مع «هاري» في الفناء، نستكشف مقرّنا الجديد. وبعد الإفطار مباشرة، دخل إلى الأرض المفتوحة رجل أسود يقود ثلاثة ثيران تجرّ حمولة عربة من الخشب. كان ذاك عبداً لدى «فورد» يُدعى «والتون»، زوج «روز». وبالمناسبة، كانت «واشنطن» موطن «روز»، وتم جلبها من هناك منذ خمس سنوات. ولم يحدث أن رأت «إليزا» من قبل، ولكنها سمعت عن «بيري»، وكانتا تعرفان الشوارع نفسها والأشخاص أنفسهم، سواء بشكل شخصي مباشر أو سماعاً فقط. وسرعان ما أصبحتا صديقتين على الفور، وتحدثتا معاً كثيراً عن الأيام الخوالي وأصدقائهما الذين خلفوهما وراءهما.

كان «فورد» ثرياً آنذاك. فإلى جانب ضيعته في «باين وودز»، كان يمتلك عقاراً ضخماً في «إنديان كريك» على مسافة أربعة أميال، كما تمتلك زوجته مزرعة شاسعة والعديد من العبيد في «بايو بوف».

وكان «والتون» قد أتى بحمولة الأخشاب من المناشر في «إنديان كريك»، وطلب منا «فورد» أن نعود معه قائلاً إنه سوف يلحق بنا في أقرب وقت ممكن. وقبل رحيلنا استدعتني السيدة «فورد» في غرفة المخزن وناولتني إناء من القصدير يحتوي على دبس السكر كما يسمونه هنا لي ولـ «هاري».

كانت «إليزا» لا تزال في غاية القلق والحزن لفقدان طفليها، وقد حاول «فورد» مواساتها قدر المستطاع، وأخبرها أن لا حاجة بها إلى

القيام بعمل شاقّ، وأن في وسعها البقاء مع «روز» ومساعدتها في شؤون المنزل.

في أثناء ركوبنا العربة مع «والتون»، أصبحت أنا و«هاري» على معرفة جيدة به قبل أن نصل «إنديان كريك» بكثير. كان عبداً لدى «فورد» منذ مولده، تحدّث إلينا بلطف ودماثة كطفل يتحدّث إلى والده. وحين سألني عن الجهة التي أتيت منها أخبرته أنني أتيت من «واشنطن»؛ من تلك المدينة التي لطالما سمع عنها من زوجته «روز». وأمطرني طوال طريقنا بوابل من الأسئلة السخيفة والمبالغ فيها.

عندما وصلنا إلى المناشر في «إنديان كريك» وجدنا اثنين آخرين من عبيد «فورد»؛ «سام» و«أنتوني». كان «سام» من «واشنطن» أيضاً وتم جلبه ضمن مجموعة «روز». وكان يعمل من قبل في مزرعة بالقرب من «جورجتاون». أما «أنتوني» فكان حدَّاداً من ولاية «كنتاكي» ويعمل لدى سيده الحالي منذ نحو عشر سنوات. كان «سام» يعرف «بيرتش»، وعندما علم أنه التاجر الذي أرسلني من «واشنطن» اتفقنا بشكل لافت على النذالة الفائقة التي يتسم بها هذا الرجل؛ فقد كان هو من أرسل «سام» كذلك.

وعند وصول «فورد» إلى المنشرة كنا نعمل على تكديس الخشب، وتقطيع جذوع الأشجار، وهو العمل الذي واصلناه بقية الصيف.

كنا نقضي أيام الأحد في الأرض المفتوحة حيث يجمع السيد «فورد» كل عبيده ليلتفوا حوله ويقرأ لهم من الكتاب المقدس ويفسّره. كان حريصاً على أن يغرس في نفوسنا مشاعر العطف نحو بعضنا بعضاً، وكذا الاعتماد على الخالق، والاعتقاد في الثواب الذي سوف يجنيه

الورعون الذين تستقيم حياتهم. كان يجلس على عتبة منزله ويحيط به عبيده وخدمه من الرجال والنساء وهم ينظرون بجدّية إلى وجه هذا الرجل الطيّب وهو يتحدّث عن رحمة الخالق ومحبّته، وعن الحياة الآخرة. وكثيراً ما كانت أصوات الصلوات تصعد من بين شفتيه إلى السماء؛ الصوت الوحيد الذي كان يكسر عزلة المكان.

خلال فصل الصيف أصبح «سام» شديد التديّن، وبات تفكيره مرتكزاً بشكل كبير على موضوع الدين، خاصة بعد أن أعطته سيدته نسخة من الكتاب المقدس وصار يحمله معه إلى العمل ويقرأ فيه متى سمح له الوقت بذلك. وراح يبذل الكثير من الجهد كي يتدبّره برغم أنه كان يفهم أياً من أجزائه بصعوبة بالغة. واعتدت أن أقرأ له أجزاء من الكتاب المقدس فيما عَدَّه جميلاً حرص على ردّه لي بالكثير من عبارات الامتنان. كثيراً ما كان بعض الرجال البِيض الذين يأتون إلى المنشرة يراقبون تقوى «سام»، فيثير ذلك ملاحظة عامة بأن رجلاً مثل «فورد» يسمح لعبيده بقراءة الكتاب المقدس «لا يصلح لأن يمتلك زنوجاً».

إلا أن الرجل لم يخسر شيئاً جرّاء عطفه ذاك. وتلك حقيقة لاحظتها أكثر من مرة، أن من يعاملون عبيدهم بلطف أكثر يحصلون منهم على قدر أكبر من العمل والجهد. ولقد عرفت هذا من تجربتي الشخصية. فكان مصدر سرور لنا جميعاً أن نفاجئ السيد «فورد» بإنجازنا عملاً في اليوم أكبر مما يتوقّع، بينما بالنسبة إلى الأسياد الذين تعاقبوا عليَّ من بعده لم يكن هناك دافع لبذل المزيد من الجهد سوى سياط المشرفين.

كانت الرغبة في سماع صوت «فورد» وهو يستحسن العمل هي ما

ألهمني بفكرة درّت عليه الربح. كانت الأخشاب التي نقوم بتصنيعها تسلّم إلى «لاموري» بموجب عقود. وكانت تُنقل براً بتكلفة عالية جداً. وكان «إنديان كريك»، حيث تقع المناشر، نهراً ضيقاً وعميقاً يصب في «بايو بوف»، ولا يزيد اتساعه في بعض المناطق عن اثنتي عشرة قدماً وغالباً ما تعيقه جذوع الأشجار. وكانت «بايو بوف» تتصل بـ «بايو لاموري». تحقّقت من أن المسافة من المناشر حتى النقطة الأخيرة على النهر حيث يتم تسليم أخشابنا، تقلّ بضعة أميال عن طريق النهر عما هي عليه عن طريق البرّ. فخطر لي أن تكلفة النقل يمكن تقلّ كثيراً إذا ما أمكنت الملاحة في الجدول بواسطة الأطواف.

كان «آدم تايدم» رجلاً أبيض ضئيل الحجم، عمل جندياً في «فلوريدا» قبل أن ينزح إلى هذه المنطقة ويعمل مشرفاً ورئيساً للعمال في المناشر، وقد استهجن الفكرة ولم يعرها اهتماماً. ولكن ما إن ذكرت الفكرة أمام «فورد» حتى استحسنها وسمح لي بتجربتها.

بعد إزالة العوائق، صنعت طوفاً ضيقاً يتألف من اثنتي عشرة قطعة خشبية. وأظن أنني كنت ماهراً جداً في هذا العمل، وأنني لم أنسَ سنوات خبرتي السابقة في قناة «شامبلين». بذلت جهداً بالغاً لحرصي الشديد على النجاح، رغبة مني في إسعاد سيدي وحتى أثبت لـ «آدم تايدم» أن مخططي لم يكن وهمياً ولا يمكن الاستمرار فيه كما وصفه فور أن سمع به. وكانت تكفي يد واحدة لإدارة ثلاثة من هذه الأطواف، وقد تحمّلت مسؤولية الثلاثة في المقدمة، وبدأت الدفع أسفل النهر. ودخلنا النهر الأول في الوقت المحدّد، وأخيراً وصلنا إلى وجهتنا بعد فترة زمنية أقل من المتوقّع.

خلّف وصول الطوف إلى «لاموري» شعوراً مثيراً بينما أجزل السيد «فورد» الثناء عليَّ، وصرت أسمع في كل مكان أن «بلات» الذي يمتلكه السيد «فورد» هو «الزنجي الأكثر ذكاء ومهارة في باين وودز»؛ والحق أنني أصبحت «فولتون إنديان كريك». وكنت مدركاً المدح الذي أتلقّاه، واستمتعت بصفة خاصة بانتصاري على «تايدم» الذي اكتوت كبريائي بسخريته الخبيثة. ومنذ ذلك الوقت، أصبحت أشرف تماماً على توصيل الأخشاب إلى «لاموري» حتى الانتهاء من تلبية العقد بالكامل.

جدير بالذكر أن «إنديان كريك» يتدفق بطوله عبر غابات رائعة، وعلى ضفتيه تعيش قبيلة من الهنود من بقايا «تشيكاساوا» أو «تشيكوبيس»، حسبما أذكر. وهم يعيشون في أكواخ بسيطة تبلغ مساحتها عشر أو اثنتي عشرة قدماً مربعة، مبنية من أعمدة الصنوبر ويغطيها اللِّحَاء. وهم يتغذون بالأساس على لحم الغزال، والراكون، والأبوسوم، وهي متوفّرة بكثرة في هذه الغابات. وأحياناً ما يتقايضون مع المزارعين حول الأنهار فيتبادلون لحم الغزال ببعض الذرة والويسكي. أما ثيابهم المعتادة فهي سراويل من جلد الغزلان وقمصان قطنية للصيد رائعة الألوان، وتمتد أزرارها من الحزام حتى الذقن. كما أنهم يلبسون الأساور النحاسية حول معاصمهم، ويضعونها في آذانهم وأنوفهم، فضلاً عن أنهم مولعون بالكلاب والجياد - يمتلكون الكثير من الجياد صغيرة الحجم ذات السلالات القوية- ويمتطونها بمهارة. وكانت ألجمتها وسروجها مصنوعة من جلود الحيوانات، ويصنعون رِكابها من نوع معين من الخشب. كنت

أرى رجالهم ونساءهم يمتطونها ويندفعون إلى داخل الغابات بسرعة كبيرة في مسارات ضيقة ومتعرّجة وهم يتفادون الأشجار بمهارة تتجاوز مآثر الفروسية المتحضّرة. وبعد الانتشار بعيداً في الاتجاهات المختلفة، وتردّد أصداء هتافاتهم مراراً وتكراراً في جنبات الغابة، كانوا يعودون بالسرعة الجريئة نفسها التي بدؤوا بها. وكانت قريتهم تطل على «إنديان كريك» وتسمّى «القلعة الهندية»، غير أن مداهم يصل إلى نهر «سابين». وبين الحين والآخر تأتي قبيلة من «تكساس» لزيارتهم فيما يُعرف بكرنفال «جريت باين وودز». كان «كاسالا» رئيس القبيلة، ويليه في الرتبة زوج ابنته «جون بالتيزي»، وقد تعرفت إليهما- وعلى الكثير من أبناء القبيلة- في أثناء رحلاتي المتكرّرة على الأطواف أسفل النهر. وقد اعتدت زيارتهم مع «سام» بعد الانتهاء من مهمة اليوم. وكانوا جميعهم مطيعين لرئيس القبيلة، فكانت كلمة «كاسالا» هي القانون هناك. وربما كانوا يتسمون بالوقاحة ولكن من دون أذى، ويستمتعون كثيراً بأسلوب حياتهم البريّ. ولم يكن لديهم اهتمام بالمدينة المفتوحة، أو الأراضي الممهدة على ضفتي الأنهار، ويفضّلون الاختباء في ظلال الغابة، ويعبدون «الروح الكبرى»، ويحبون الويسكي، وكانوا بحق سعداء.

كنت حاضراً ذات مرة في إحدى رقصاتهم عندما انضمت إليهم في قريتهم جماعة متنقلة من «تكساس»، وكان غزال يُشوى بأكمله أمام نيران ضخمة تلقي بضوئها على مسافة كبيرة بين الأشجار التي نجتمع تحتها. وعندما تشكّلوا في حلقة من الرجال والنساء على التناوب، صدح عزف على كمان هندي بأنغام لا مثيل لروعتها.

كان لحناً متواصلاً وحزيناً يتموّج مع أقل تغيير في العزف. ومع النوتة الأولى، إذا كان هناك بالفعل أكثر من نوتة واحدة في المقطوعة بأكملها، التف الجميع في حلقة وتقدّموا بعضهم إثر بعض، تنبعث منهم الأصوات المتناغمة وكأنها أغنية يصعب تفسيرها مصاحبة للعزف على الكمان الهندي. وفي نهاية الدائرة الثالثة، كانوا يتوقفون فجأة كما لو أن رئاتهم قد سُدّت، ثم ينفصلون عن الحلقة ويشكّلون أزواجاً من رجال ونساء، ويقفز كل زوج بعيداً عن الزوج الآخر ما أمكن، ثم يتقدّمون إلى الأمام. بعد إجراء هذا الاستعراض الرشيق مرتين أو ثلاث مرات، يعاودون التشكيل في حلقة ويتلاحقون مجدداً. ويبدو أن اختيار الراقصة الأفضل من بينهن إنما يعتمد على من يمكنها إطلاق الصيحات الأعلى والقفز الأبعد وإصدار الضوضاء الأكثر إزعاجاً. وعلى فترات متقطّعة كان واحد أو أكثر منهم يتركون حلقة الرقص ويذهبون إلى النيران لاقتطاع شريحة مشوية من لحم الغزال.

في ثقب يشبه الهاون محفور في جذع شجرة ساقطة، كانوا يضعون الذرة ويدقونها بمِدّق خشبي، ومنه يُصنع الكعك، ويتناوب الجميع الرقص والأكل. وهكذا كان الزائرون من «تكساس» يلقون الترحيب من أبناء وبنات الـ «شيكوبيس» بتلك الحفلة الهندية في «باين وودز» في «أفويليس» كما وصفتها.

في الخريف تركتُ المناشر للعمل في الأرض المفتوحة. وفي أحد الأيام، كانت السيدة «فورد» تحثّ زوجها على شراء نول حتى تبدأ «سالي» في حياكة الملابس الشتوية للعبيد. ولم يكن السيد «فورد»

يعرف من أين يمكنه الحصول على هذا النول، فاقترحت عليه أن الطريقة السهلة هي أن نقوم بتصنيعه، وأخبرته في الوقت نفسه أنني «صاحب السبع صنائع»، وسوف أحاول صنعه إذا ما سمح لي. وافق على الفور، وسمح لي بالذهاب إلى المزرعة المجاورة لأرى نموذج النول هناك قبل البدء في تنفيذه. وحين انتهيت منه أخيراً، أعلنت «سالي» أنه كان مثالياً؛ فكان في وسعها أن تغزل أربع عشرة ياردة بسهولة، وأن تحلب الأبقار، وأن يكون لديها بعض الوقت لراحتها كل يوم. وبالفعل كان النول يعمل بكفاءة، وواصلت عملي في صناعة الأنوال التي أُخذت إلى المزارع على طول النهر.

في ذلك الوقت، أتى نجّار يُدعى «جون م. تيبيتس» إلى الأرض المفتوحة للقيام ببعض الأعمال في منزل السيد «فورد»، وأُمِرت بترك الأنوال لمساعدته. ولازمته بالفعل طيلة أسبوعين ونحن نضع التصميمات، وننسّق بين الألواح للسقف، إذ كانت الغرفة المجصّصة نادرة في أبرشية «أفويليس».

كان «جون م. تيبيتس» على النقيض من «فورد» في كل الجوانب. كان ضئيلاً، ونكِد المِزاج، وسريع الغضب، وحاقد القلب. ولم أسمع بسكن ثابت له، بل كان ينتقل من مزرعة إلى أخرى متى وجد عملاً له. ولم يكن له أي قيمة في المجتمع ولا تقدير من قِبل الرجال البِيض ولا حتى من قِبل العبيد. كان جاهلاً، وعدوانياً، ويتصرف بشكل انتقامي، وترك الأبرشية قبل أن أتركها بفترة طويلة ولا أعرف ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة أم وافته المنية. ولكن الثابت في الأمر أن اليوم الذي التقيت فيه بهذا الرجل كان أسوأ أيامي حظاً. في أثناء فترة

إقامتي مع السيد «فورد»، رأيت الجانب الوحيد المضيء من العبودية، فلم يكن السيد صاحب اليد الثقيلة التي تسحقنا أرضاً، بل كان يرفع من شأننا، ويخاطبنا بمرح ولطف لأننا إخوته في الإنسانية، ونخضع لحكم خالق الجميع، شأنه تماماً. ودائماً ما أذكر هذا الرجل بكثير من المودة، ولو أن أسرتي كانت معي آنذاك لكنت احتملت العبودية الرقيقة في منزله طوال عمري، ومن من دون تذمر. ولكن السحب كانت تجتمع في الأفق، تنذر بعاصفة عاتية على وشك العصف بي. وكان مقدراً لي أن أتحمل تلك التجارب المريرة التي لا يعرفها إلا العبد المسكين، وأن أفقد تلك الحياة السعيدة نسبياً التي قضيتها في «جريت باين وودز».

الفصل الثامن

لسوء الطالع، ارتبكت شؤون «وليام فورد» المالية وباتت في وضع حرج، بل صدر بحقّه حكم ثقيل في أعقاب ضمانته لأخيه «فرانكلين فورد» الذي يعيش على ضفاف «رد ربفر» شمال «الإسكندرية»، والذي أخفق في سداد مديونياته. كما كان مديناً لـ «جون م. تيبيتس» بمبلغ كبير نظير خدماته في بناء المناشر في «إنديان كريك»، وكذلك مشغل الحياكة، وطاحونة الذرة، وغيرها من المنشآت في المزرعة في «بايو بوف» التي لم يتم الانتهاء منها بعد. ومن ثم كان يتحتّم لتلبية هذه المطالبات أن يتخلص من ثمانية عشر من العبيد لديه، وكنت أنا من بينهم. ومن بين السبعة عشر الآخرين، بيع «سام» و«هاري» لـ «بيتر كومبتون»، وهو مزارع يعيش على ضفة «رد ريفر».

أما أنا فاشتراني «تيبيتس» قطعاً لمعرفتي الطفيفة بشؤون النجارة، وكان هذا في شتاء عام 1842. وكان عقد بيعي من «فريمان» إلى «فورد» بتاريخ 23 يونيو 1841 كما علمت من السجلات الحكومية في «نيو أورليانز» عند عودتي. في وقت بيعي إلى «تيبيتس»، كان الثمن المتفق عليه أكثر من الدين؛ ومن ثم حصل «فورد» على رهن ممتلكات شخصية بقيمة أربعمائة دولار. والحق أنني مدين بحياتي لهذا الرهن، كما سنرى فيما بعد.

ودّعت أصدقائي في الأرض المفتوحة ورحلت مع سيدي الجديد. مضينا إلى المزرعة في «بايو بوف» على مسافة سبعة وعشرين ميلاً من «باين وودز» لإكمال عقد لم ينتهِ بعد. وجدير بالذكر أن «بايو بوف» هو مجرى صغير راكد وملتوٍ؛ أحد تلك المسطّحات المائية الراكدة في تلك المنطقة المرتبطة بنهر «رد ريفر»، ويمتد من نقطة ليست بعيدة عن «الإسكندرية» صوب الجنوب الشرقي، ويزيد طوله مع منعرجاته على 50 ميلاً. وتمتد على جانبيه مزارع القطن والسكر الشاسعة حتى حدود المستنقعات اللامتناهية. يمتلىء هذا النهر بالتماسيح مما يجعل من غير الآمن اقتراب الخنازير منه، أو لعب أبناء العبيد على ضفتيه. وفي منعطف ما في مسار هذا المجرى، على مقربة من «شينفيل»، كانت تقع مزرعة السيدة «فورد»؛ وكان أخوها «بيتر تانر» يمتلك ضيعة كبيرة ويعيش على الجانب المقابل.

عند وصولي إلى «بايو بوف»، سعِدت بلقاء «إليزا» التي لم أكن قد رأيتها منذ عدة أشهر. كانت السيدة «فورد» قد استاءت منها لفرط انغماسها في أحزانها بدلاً من الاهتمام بعملها؛ فأرسلتها للعمل في الحقل بالمزرعة. كانت ضعيفة أصابها الهزال، ولا تزال حزينة على طفليها. وسألتني إذا كنت قد نسيتهما، وكثيراً ما سألتني إن كنت لا أزال أذكر كم كانت «إيميلي» جميلة، وكم أحبها «راندال»، وتساءلت عما إذا كانا لم يزالا على قيد الحياة، وأين عساهما يكونان الآن. كانت «إليزا» تنوء تحت وطأة حزنها الثقيل، وما نحول جسدها وخواء وجنتيها إلا إشارتين دامغتين على أنها قد بلغت نهاية طريقها التَعِب.

كان السيد «شابين» يشرف على هذه المزرعة من طرف «فورد»،

ويتولّى مسؤوليتها بالكامل. وهو رجل لطيف موطنه «بنسلفانيا»، وشأن الآخرين، لم يكن يقدّر «تيبيتس» تقديراً كبيراً، وهو أمر كان في صالحي، فيما يتعلق برهن الأربعمائة دولار.

أصبحت الآن مضطراً للعمل الكادح من ساعات الفجر الأولى وحتى فترة متأخرة من الليل، ولم يكن مسموحاً لي بلحظة واحدة للراحة. ومهما فعلت لم يكن «تيبيتس» ليرضى أبداً. كان يسبّ ويصيح باستمرار، ولم يتحدث لي بلطف أبداً. كنت عبده المخلص، وأدرّ عليه أرباحاً كبيرة كل يوم، ومع ذلك كنت أذهب إلى الكوخ كل ليلة مُحمّلاً بالإساءة والنعوت اللاذعة.

كنّا قد أكملنا طاحونة الذرة والمطبخ، وغيرهما، وبدأنا العمل على مشغل الحياكة، عندما ارتكبت ذنباً كان يعتبر في تلك الولاية موجِباً لعقوبة الإعدام. كانت المرة الأولى التي أتشاجر فيها مع «تيبيتس». كان المشغل يقع في البستان على بعد بضع ياردات من منزل «شابين» أو «المنزل الكبير» كما كانوا يدعونه. وعملت، ذات ليلة، حتى أصبح الظلام حالكاً بحيث تصعب الرؤية، وأمرني «تيبيتس» بأن أصحو مبكراً جداً في الصباح التالي كي أُحضر برميلاً من المسامير من منزل «شابين»، وأن أبدأ في تثبيت الألواح. عدت إلى الكوخ وأنا أشعر بالتعب البالغ، فأعددت عشاءً من لحم الخنزير المقدّد وكعكة الذرة، وتحدثت إلى «إليزا» قليلاً، وكانت تشغل الكوخ نفسه، وكذلك «لاوسون» وزوجته «ماري»، وعبد آخر يُدعى «بريستول»- ثم استلقيت على الأرض أفكر قليلاً في المعاناة التي لا تزال بانتظاري في الغد. وقبل أن يبزغ الصباح كنت في ساحة «البيت الكبير»: في

انتظار ظهور المشرف «شابين». فإيقاظه من سباته لأخبره بالغرض من قدومي يعتبر ذنباً لا يُغتفر. أخيراً ظهر الرجل. رفعت قبعتي عن رأسي وأخبرته بأوامر السيد «تيبيتس» لي بأن أحضر البرميل. فذهب إلى المخزن وخرج يدفعه وهو يقول في الوقت ذاته إنه إذا كان «تيبيتس» يفضل حجماً مختلفاً فسوف يحاول أن يحصل له عليه، ولكن يمكنني استخدام هذا حتى تصدر تعليمات أخرى. ثم اعتلى جواده الذي كان يقف مُسرّجاً ومُلجّماً لاستخدامه عند الباب، وانطلق به بعيداً إلى الحقل حيث سبقه عبيده، بينما حملت البرميل على كتفي، وتابعت المسير حتى مشغل النسيج حيث بدأت أثبّت ألواح الخشب بالمسامير.

في مطلع النهار، أتى «تيبيتس» من المنزل إلى حيث كنت أعمل بجدّ، وبدا في ذاك الصباح أكثر تجهّماً وإزعاجاً من المعتاد. كان سيدي، ويحق له لحمي ودمي بحكم القانون، وأن يمارس عليَّ سيطرة مستبدّة بقدر ما تحثّه طبيعته الدنيئة على ذلك، ولكن لم يكن هناك قانون يمنعني من النظر إليه بازدراء شديد. كنت أحتقره قلباً وقالباً. وكنت قد اقتربت لتوّي من البرميل للحصول على المزيد من المسامير، بينما وصل هو إلى المشغل.

فقال: «أظن أنني أمرتك بأن تبدأ في وضع الألواح المضادة للأمطار هذا الصباح؟».

أجبته: «نعم يا سيدي، وأنا أعمل على هذا بالفعل».

فسأل: «أين؟»

- «على الجانب الآخر».

ذهب إلى الجانب الآخر وراح يفحص العمل الذي قمت به، وهو يتمتم لنفسه بنبرة تنمّ عن عدم الرضا.

ثم أردف: «ألم أخبرك في الليلة الماضية أن تحضر برميلاً من المسامير من «شابين؟»».

«نعم يا سيدي، فعلت؛ وقد قال المشرف إنه سيجلب لك واحداً بحجم مختلف إذا أردت عندما يعود من الحقل».

سار «تيبيتس» إلى البرميل ونظر لحظة في محتوياته ثم ركله بعنف، ومضى تجاهي وهو شديد الانفعال، وقال متعجباً:

«اللعنة عليك! كنت أظنك تفقه شيئاً».

أجبته: «لقد حاولت أن أقوم بما طلبته مني. ولم أقصد أن آتي شيئاً خطأً. وقال المشرف ...»، ولكنه قاطعني بفيض من الشتائم حتى إنني لم أستطع إنهاء الجملة. وأخيراً ركض صوب المنزل ثم إلى الساحة وأحضر أحد سياط المشرف. كان ذاك سوطاً بيد خشبية قصيرة، وجلد مُضفّر، مكتنز عند الأطراف. وكان يبلغ طوله ثلاث أقدام أو نحوها ومصنوعاً من خيوط الجلد الخام.

شعرت بالخوف بعض الشيء في البداية، وتسارع نبض قلبي. لم يكن في المكان سوى «راشيل» الطاهية، وزوجة «شابين»، وكانتا بعيدتين عن المشهد. أما البقية فكانوا في الحقل. أدركت أنه يعتزم جلدي، وكانت تلك المرة الأولى التي أتعرض فيها لمثل هذا الموقف منذ وصولي إلى «أفويليس». وشعرت علاوة على ذلك أنني كنت مخلصاً، ولم أكن مذنباً بارتكاب أي خطأ، بل كنت أستحق الثناء لا العقاب. وتحوّل خوفي إلى غضب، وقبل أن يصل إلي كنت قد قرّرت

ألا أُجلد، حتى وإن كلفني ذلك حياتي.

لفّ السوط حول يده وأحكم قبضته على المقبض الصغير ثم سار نحوي، وبنظرة خبيثة من عينيه أمرني بأن أخلع ثيابي.

نظرت إليه بجرأة في عينيه وقلت: «سيد تيبيتس، لن أفعل». وكنت على وشك أن أقول المزيد لتبرير موقفي، ولكنه اندفع نحوي مملوءاً بمشاعر انتقام شديد وأمسك بي من عنقي بيد، بينما رفع السوط بيده الأخرى مستعداً ليهوي به عليَّ. ولكن قبل أن تصيبني الضربة أمسكت به من ياقة معطفه وقرّبته مني، ثم قبضت على كاحله ودفعته إلى الخلف بيدي الأخرى فسقط على الأرض. أمسكت بساقه بيدٍ وضممتها إلى صدري حتى لامس رأسه وكتفاه الأرض، ووضعت قدمي فوق عنقه. شعرت بدمي يغلي كأن نيراناً تسري في عروقي. وفي نوبة جنوني، اختطفت السوط من يده. كان الرجل يكافح بكل ما أوتي من قوة وهو يقسم إنني لن أعيش يوماً آخر، وأنه سينتزع قلبي من صدري. إلا أن كل تهديده ووعيده كانا هراء بالنسبة إليَّ. ولست أذكر كم ضربة سدّدت إليه في ضربات سريعة ومتلاحقة وثقيلة فوق جسده الذي كان يتلوّى. وأخيراً صرخ هذا المجرم الكافر وتوسّل إلى الله سائلاً الرحمة. ولكن هذا الذي لم يعرف الرحمة قط لم يكن يستحقها، وراحت الجلدات تنهال على جسده المشوَّه حتى تعبت يُمناي.

كنت مشغولاً جداً فلم أنظر حولي. وعندما كففت للحظة، رأيت السيدة «شابين» تنظر من النافذة و«راشيل» تقف عند باب المطبخ، وقد بدا عليهما قمّة الإثارة والحذر. وكان «شابين» قادماً نحونا بأسرع

ما سمح له به جواده. فكِلت إلى «تيبيتس» ضربة أو اثنتين إضافيتين ودفعته عني دفعة مُسدّدة حتى إنه سقط متدحرجاً على الأرض.

وقف الرجل على قدميه ونفض عن شعره القاذورات، ومكث ينظر إليَّ بوجه شاحب وغاضب في آن. وظللنا نحدّق أحدنا في الآخر بصمت. لم ينطق أحدنا بكلمة حتى اندفع نحونا «شابين»، وصاح متسائلاً: «ما الأمر؟».

أجبته: «أراد السيد «تيبيتس» جلدي بالسوط لاستخدامي المسامير التي أخذتها منك».

فسأل وهو ينظر صوب «تيبيتس»: «وما شأن المسامير؟»

أجابه «تيبيتس» بأنها أكبر من اللازم من دون أن يلتفت كثيراً لتساؤلات «شابين»، ومستبقياً عينيه الغاضبتين عليَّ.

شرع «شابين» يقول: «أنا المشرف هنا، وقلت لـ «بلات» أن يأخذها ويستخدمها، وأنني سوف أحضر غيرها عند عودتي من الحقل إن لم تكن بالحجم المناسب. لم يكن هذا خطأه. كما أنني أوفّر هذه المسامير حسبما يروق لي. وأرجو أن تفهم هذا سيد «تيبيتس»».

لم يجبه، وظل يضغط على أسنانه ويهزّ قبضته، ويقسم إنه سوف ينتقم وأن الأمر لم ينتهِ بيننا بعد. وعلى هذا ابتعد عن المكان وفي إثره المشرف، ودخلا إلى المنزل والأخير يحدثه طوال الوقت بلهجة قمعية وبأشد الإيماءات ضراوة.

أما أنا فمكثت في مكاني أفكر فيما إذا كان من الأفضل أن ألوذ بالفرار، أو أن أظل وأتحمل تبعة ما فعلت، أياً كان. وسرعان ما خرج «تيبيتس» من المنزل وسرّج جواده؛ الملكية الوحيدة في حيازته

بالإضافة إليَّ، ورحل إلى طريق «شينفيل».

وما إن رحل حتى خرج «شابين» وقد بدت عليه الإثارة، وطلب مني ألا أتحرّك، وألا أحاول ترك المزرعة لأي سبب كان. ثم اتجه صوب المطبخ ونادى على «راشيل» وتحدّث إليها بعض الوقت. وعندما عاد حذّرني مجدداً تحذيراً شديد اللهجة من أن أحاول الفرار قائلاً إن سيدي كان وغداً وإنه قد غادر لغرض لا يبدو طيباً وقد تقع مشكلة ما بحلول الليل. ولكنه أصرّ في كل الأحوال على ألا أتحرّك من مكاني.

بينما كنت أقف مكاني غمرني شعور لا يوصف بالألم، وأدركت أنني عرّضت نفسي لعقاب لا يوصف. وقد خلّف رد الفعل الذي أعقب نوبة الغضب الشديدة تلك شعوراً جارفاً ومؤلماً بالندم. ماذا عساي أفعل أو أقول، أنا العبد العاجز الذي لا أصدقاء له، لتبرير تلك الفعلة الشنعاء التي ارتكبتها، ومقاومة وازدراء رجل أبيض والإساءة إليه؟ حاولت أن أصلّي- حاولت أن ألتمس أبانا الذي في السموات كي يثبتني عندما ينفرط عقد ثباتي، ولكن غلبتني العاطفة فلم أستطع، ولم أملك إلا أن وضعت رأسي في يديَّ وبكيت. لبثت على هذه الحالة نحو الساعة، واجداً السلوى في بكائي. وعندما رفعت رأسي رأيت «تيبيتس»، مع رجلين يمتطيان جواديهما قادمين نحو النهر، ثم مضيا حتى دخلوا الساحة، مترجلَيْن عن جيادهم، واقتربوا مني وهم يحملون سياطاً ضخمة، وكان أحدهم يحمل حبلاً ملفوفاً.

أمرني «تيبيتس» قائلاً: «اعقد يديك»، وعلى وجهه تعبير قذر لا

يليق وصفه.

فقلت له: «لا حاجة بك إلى تقييدي سيدي «تيبيتس»، فأنا على استعداد لأن أذهب معك إلى أي مكان».

عندئذ تقدم أحد رفيقيه وأقسم أنه سوف يدق عنقي عند أول بادرة للمقاومة من جانبي، وأنه سينزع أطرافي، ويكسر رأسي، والكثير من التعابير على هذه الشاكلة. عندما أدركت أنه لا جدوى من التأكيد عقدت يديّ وخضعت في خنوع لأي تصرّف قد يرغبون فيه. بعد ذلك، قيّد «تيبيتس» معصميَّ ولفّ الحبل حولهما بكل ما أوتي من قوة. وفي الوقت ذاته كان الشخصان الآخران يمرّران الحبل بين مِرفقيَّ ومن وراء ظهري، ويربطانه بقوة، حتى بات من المستحيل أن أحرّك يداً أو قدماً. وبالقطعة المتبقية من الحبل، صنع «تيبيتس» أنشوطة ووضعها حول عنقي.

ثم سأل أحد الرجلين مستفسراً: «الآن، أين سنعلّق هذا الزنجي؟».

اقترح أحدهما الفرع الممتد من شجرة الخوخ القريبة من المكان الذي كنا نقف فيه. ولكن اعترض الرجل الآخر قائلاً إن الفرع ضعيف وسوف ينكسر، واقترح موضعاً آخر وافقوا عليه في نهاية الأمر.

في أثناء تلك المحادثة، وطوال الوقت الذي كانوا يشدّون فيه وثاقي، لم أنطق بكلمة. أما المشرف «شابين» فكان يتابع تطوّر المشهد ويروح جيئة وذهاباً في الساحة بخطوة سريعة. وكانت «راشيل» تبكي على أرضية المطبخ، والسيدة «شابين» لا تزال تتابع من النافذة.

أما أنا فكنت أتمنى الموت من صميم فؤادي، وعلى ثقة من أن ساعتي قد حلّت، وأنني لن أرى ضوء اليوم الجديد، ولن أشاهد وجوه أبنائي أبداً – وهو الأمل الوحيد الذي كنت أتعلّق به. وكان عليّ في تلك الساعة أن أناضل درءاً لمخاوف الموت! فلن يحزن من أجلي أحد، ولن ينتقم لأجلي أحد. وسرعان ما سيُوارى جثماني في تلك التربة البعيدة، أو ربما يلقونني للزواحف التي تعجّ بها المياه الراكدة للنهر! تدفّقت عبراتي فوق وجنتيَّ، لكن لم يكن هذا إلا مدعاة للتعليقات المهينة من هؤلاء الجلاَّدين.

أخيراً، بينما كانوا يجرونني نحو الشجرة، خرج المشرف «شابين» الذي اختفى برهة من الساحة، خرج من المنزل وسار باتجاهنا، وكان يحمل مسدساً في كل يد، وحسبما أتذكر الآن أذكر أنه تحدّث بلهجة حاسمة وآمرة على النحو التالي:

«أيها السادة، لديَّ ما أقوله، ومن الأفضل أن تستمعوا. من سيحاول تحريك هذا العبد قيد أنملة أخرى فسيموت في مكانه. ففي المقام الأول، هذا الرجل لا يستحق أن يلقى هذه المعاملة. ومن العار قتله على هذا النحو، فلم أعرف قط فتى أكثر إخلاصاً من «بلات». أنت تخطىء في حق نفسك يا «تيبيتس». أعرف أنك وغد كبير، وتستحق الجلد الذي تلقّيته. كما أنني المشرف على هذه المزرعة منذ سبع سنوات، وأنا السيد هنا في غياب «وليام فورد»، ومن واجبي حماية مصالحه، وسوف أقوم بهذا الواجب مهما كلّفني الأمر. أنت عديم المسؤولية، ولا تساوي شيئاً. يحمل «فورد» رهناً على «بلات» بمبلغ أربعمائة دولار، فإذا ما شنقتموه خسر دينه. وما لم يسدّد الدين،

لا يحق لك أن تستبيح حياته، ولا يحقّ لك قتله على أي حال. هناك قوانين للعبيد، كما أن هناك قوانين للبيض، وأنت لست سوى قاتل.

ثم أردف موجّهاً حديثه إلى «كوك» و«رامزاي»، وهما مشرفان من مزارع مجاورة: «أما أنتما، فاذهبا من هنا حالاً! إذا كنتما تخشيان على سلامتكما، اذهبا من هنا في التو واللحظة!».

وبالفعل، من دون أن يتفوّها بكلمة أخرى، ارتقيا جواديهما وابتعدا. أما «تيبيتس» فارتعد خوفاً في بضع دقائق، وتغلب عليه الفزع من لهجة «شابين» الحاسمة، فانسحب كالجبان، وهو كذلك بالفعل،- وركب جواده وذهب في إثر صاحبيه.

ظللت واقفاً في مكاني، مقيّداً والحبل حول عنقي. وما إن انصرفوا حتى نادى «شابين» على «راشيل» وأمرها أن تسرع إلى الحقل وتبلغ «لاوسون» أن يسرع إلى المنزل، ويحضر البغل البني الذي يحظى بتقدير كبير لسرعته غير المألوفة. وسرعان ما ظهر الفتى.

قال له «شابين»: «لاوسون، عليك أن تذهب إلى «باين وودز» وتخبر سيدك «فورد» بأن يحضر إلى هنا بسرعة من من دون تأخير. قل له إنهم يحاولون قتل «بلات». أسرع الآن يا فتى، وعليك أن تصل إلى «باين وودز» بحلول الظهيرة حتى لو اضطررت إلى قتل البغل».

ثم دخل «شابين» إلى المنزل وكتب له تصريحاً. وعندما عاد كان «لاوسون» عند الباب على ظهر البغل. تناول التصريح في يده وضرب البغل بالسوط بمهارة فانطلق خارجاً من الساحة متخذاً الطريق إلى أعلى النهر بسرعة، وتوارى عن الأنظار في وقت يقلّ عما احتجت إليه لوصف المشهد.



تشابين ينقذ سولمون من الشنق

الفصل التاسع

لم تعد الحرارة تُطاق عندما اقتربت الشمس من خط الزوال في هذا اليوم. فقد سفعت أشعّتها الحارّة الأرض حتى كادت تقرح أقدام من يقفون عليها. وكنت بلا معطف ولا قبعة، أقف مكشوف الرأس ومُعرّضاً للهيب الشمس الحارقة. تساقطت قطرات العرق الكبيرة على وجهي لتبلل الملابس الهزيلة التي كنت أرتديها آنذاك. وفوق السور على مسافة ليست ببعيدة، كانت أشجار الخوخ تلقي بظلال باردة ولطيفة فوق العشب، حتى إنّي كنت لأرتضي العمل عاماً طويلاً من الخدمة في مقابل الحصول على مقعد تحت تلك الأغصان بدلاً من الفرن الحارق الذي أقف فيه. لكنني كنت لا أزال مقيّداً والحبل يتدلى من عنقي، وأقف في المكان ذاته حيث تركني «تيبيتس» ورفيقاه. لم أكن أستطيع أن أتحرك قيد أنملة تحت هذا القيد الثقيل؛ لدرجة أن الاتكاء على جدار مشغل الحياكة يعتبر رفاهية كبيرة إذا ما أتيح لي. لكنه كان بعيداً عن متناولي، مع أن المسافة تقل من عشرين قدماً. أردت الاستلقاء ولكني أعرف أنني لن أستطيع الوقوف مجدداً إن فعلت. كانت الأرض جافّة وتكاد تغلي من فرط حرارتها، وكنت أعرف أنها سوف تزيد من آلامي وسوء حالتي. لو كان بإمكاني الانتقال من مكاني، ولو قليلاً، لوجدت في ذلك راحة كبيرة. لكن

أشعة الشمس الجنوبية الحارّة التي تضرب رأسي العاري طوال ذاك اليوم الصيفي الطويل لم تسبّب لي نصف المعاناة التي كنت أشعر بها من أطرافي المتألّمة. وبدأ رسغاي وكاحلاي وأوتار ساقيَّ وذراعيَّ تنتفخ وتتورّم، وتدفن الحبل الذي يقيّدها في اللحم المتورّم.

ظلّ «شابين» يجوب الشرفة جيئة وذهاباً طوال اليوم ولم يقترب مني أبداً. بدا في حالة بالغة من القلق. كان ينظر نحوي أولاً ثم إلى الطريق كما لو أنه يتوقّع وصول أحدهم في أي لحظة. ولم يذهب إلى الحقل على غير المعتاد. كان واضحاً من سلوكه أنه يتوقّع عودة «تيبيتس» مع مساعدة أقوى وأفضل تسليحاً ربما لتجديد الشجار، وبدا واضحاً كذلك أنه قد عقد العزم على الدفاع عن حياتي أياً كانت المخاطر. ولكن لماذا لم يحلّ قيدي؟ لم أعرف البتة لماذا تركني أعاني من الألم طوال ذاك اليوم القاسي. ولكني على يقين من أن ذلك لم يكن بسبب قسوة منه أو لعدم تعاطفه معي. ربما أراد أن يرى «فورد» ذاك الحبل حول عنقي والطريقة الوحشية التي قيّدوني بها؛ ولعلّ تدخّله في ممتلكات شخص آخر من من دون حق قانوني يعتبر تجاوزاً ويجعله عُرضة لعقوبة قانونية. كما أن غياب «تيبيتس» طوال اليوم كان لغزاً لم أخمّن له حلاًّ أبداً. كان يعلم جيداً أن «شابين» لن يؤذيه إلا إذا أصرّ على مخططه الذي اعتزمه لي. وقد أفضى لي «لاوسون» فيما بعد أنه مرّ بمزرعة «جون ديفيد تشيني»، ورأى الرجال الثلاثة وأنهم استداروا وتتبعوا أثره بأعينهم مرّ قربهم. وأعتقد أنه افترض أن «شابين» قد أرسل «لاوسون» لتنبيه المزارعين المجاورين ودعوتهم إلى مساعدته. ولا شك أنه تصرّف وفق المبدأ القائل بأن «حُسن التقدير هو الجزء

الأفضل في الشجاعة»، ومن ثم بقي بعيداً.

ولكن أياً ما كان الدافع الذي سيطر على هذا الطاغية الجبان والوغد، فإنه ليس مهماً. فقد بقيت واقفاً على هذا النحو طوال فترة بعد الظهيرة وأنا أئن من الألم. لم أكن قد تناولت لقمة قبل شروق شمس ذاك اليوم بفترة طويلة. فكنت أشعر بالوهن جرّاء الوجع، والعطش، والجوع. حملت إليّ «راشيل» مرة واحدة في الجزء الأكثر حرارة كوباً من الماء وقرّبته إلى شفتَّي وهي نصف مرتعبة من أن تكون بذلك قد خالفت رغبات المشرف. لم تعرف تلك المسكينة أبداً الصلوات التي صلّيتها لأجلها نظير هذا الصنيع، ولم تكن حتى لتفهمها لو أنها سمعتها. كل ما قالته لي قبل أن تعود مسرعة إلى عملها في المطبخ: «آه يا «بلات»، كم أشفق عليك!»

لم يحدث أبداً أن تحرّكت الشمس بهذا البطء في السماء، ولم يحدث أبداً أن أطلقت أشعتها نارية حادّة كما فعلت ذاك اليوم، أو خيّل إليّ ذلك على الأقل. وأياً ما كانت أفكاري آنذاك- تلك الأفكار اللانهائية التي احتشدت في ذهني المشوّش- فلن أحاول التعبير عنها. يكفي القول إنه طوال هذا اليوم لم أصل مطلقاً إلى أي نتيجة، ولو مرة واحدة، مفادها أن العبد الجنوبي، الذي يحصل على طعامه وكسائه، ويُجلد، ويتلقّى الحماية من سيّده، إنما هو أسعد حالاً من المواطن الأسود الحرّ في الشمال. لم أتوصّل أبداً إلى هذه النتيجة. ومع ذلك، هناك الكثير من الرجال الخيّرين الذين يتصفون بالحكمة، حتى في الولايات الشمالية، يرون أن رأيي هذا يجانبه الصواب، بل يمضون في إثبات حجّتهم وتأكيدها. يا حسرتي! إنهم لم يشربوا أبداً من كأس

العبودية المُرَّة كما فعلت أنا. عند الغروب تماماً، قفز قلبي في صدري من فرط السعادة مع وصول «فورد» على جواده إلى الساحة، وقد غطّى الغبار الجواد. واستقبله «شابين» عند الباب، وتحاور معه برهة قبل أن يبدأ السير تجاهي.

وكانت العبارة الوحيدة التي انفلتت من بين شفتيه هي: «مسكين «بلات».. أنت في حالة مزرية!»

فأجبته: «شكراً لله! .. شكراً لله، سيدي «فورد»، أنك قد أتيت أخيراً».

أخرج الرجل سكيناً من جيبه وشرع يقطع به الحبل الملفوف حول معصميَّ وذراعيَّ وكاحليَّ وهو يشعر بسخط بالغ، وأزاح المشنقة عن عنقي. وحين حاولت السير تعثّرت كأنني ثمل أخرق، وكِدت أسقط على الأرض.

استدار «فورد» تجاه المنزل مباشرة وتركني بمفردي. وحين وصل إلى الساحة، كان «تيبيتس» وصاحباه قد ظهروا على جيادهم، ودار بينهم حوار طويل. كنت أسمع أصواتهم، ونبرة «فورد» الرقيقة تختلط بنبرات «تيبيتس» الغاضبة، لكنني لم أتبيّن الحديث بوضوح. وأخيراً رحل ثلاثتهم وبدا عليهم الضيق والانزعاج.

ثم جاهدت لرفع المطرقة رغبة في أن أُري «فورد» رغبتي في العمل بمواصلة ما كنت أقوم به في المشغل، إلا أن المطرقة سقطت من يدي لوهن أعصابها. وعندما حلّ الظلام، زحفت إلى الكوخ واستلقيت هناك. كنت في حالة يرثى لها بجسد متورّم وملتهب، وكانت أدنى حركة تشيع فيَّ ألماً ومعاناة لا يفيهما وصف. وكانت «راشيل» عندما

تبعت «لاوسون» قد أخبرتهم بما حدث. شوت لي «إليزا» و«ماري» قطعة من لحم الخنزير المقدّد، بيد أنني كنت بلا شهية، فأحضرتا لي بعض كعك الذرة والقهوة. وكان ذلك كل ما استطعت تناوله. وحاولت «إليزا» أن تسرّي عنّي، وكم كانت رقيقة. ولم يمضِ وقت طويل حتى امتلأ الكوخ بالعبيد الذين تحلّقوا جميعاً من حولي، وانهالت عليَّ الأسئلة عمّا حدث مع «تيبيتس» هذا الصباح وتفاصيل وقائع اليوم. ثم أتت «راشيل» وسردت ما حدث مجدداً بلغتها البسيطة، مع بعض التركيز على الركلة التي أطاحت بالرجل ودحرجته فوق الأرض، ما أثار ضحكاً خافتاً وسط الحشد. ثم وصفت لهم كيف خرج «شابين» بسلاحيه وأنقذني، وكيف قطع السيد «فورد» الحبال عنّي بسكّينه كالمجنون.

كان «لاوسون» قد عاد قبل ذلك، وأضحى عليه أن يقص تفاصيل رحلته إلى «باين وودز»، وكيف أن البغل البنيّ قد طار به «كالبرق» وأثار دهشة كل من مرّ به، وكيف أن السيد «فورد» تحرّك على الفور، وقال إن «بلات» زنجي جيد ولا ينبغي لهم قتله، وانتهى بملاحظة قوية جداً أشار فيها إلى أنه لا يوجد أحد آخر في هذا العالم الواسع يستطيع إثارة الحماسة العامة على الطريق أو تكرار مأثرة «جون غيلبين» الرائع كما فعل هو على ظهر البغل البنيّ في ذلك اليوم.

أمطرني هذا الجمع الرقيق بعبارات التعاطف قائلين إن «تيبيتس» طاغية وظالم وبلا قلب، وأملوا أن يعيدني «السيد فورد» إليه ثانية. وهكذا أمضوا الوقت وهم يتناقشون، ويثرثرون، ويعيدون سرد التفاصيل والوقائع المثيرة مراراً وتكراراً، حتى ظهر «شابين» فجأة

عند باب الكوخ واستدعاني.

«بلات، سوف تنام على الأرض في البيت الكبير الليلة؛ أحضر بطانيتك معك».

نهضت بأسرع ما أوتيت من قوة، والتقطت بطانيتي، وتبعته. أخبرني في الطريق أنه لن يكون من المدهش إذا عاد «تيبيتس» مجدداً قبل الصباح عازماً على قتلي، وذلك لا يعني أنه ينبغي أن يقوم بفعلته دونما شهود. فلو أنه سدّد لي طعنة في القلب على مرأى ومسمع من مائة من العبيد فلن يستطيع أي منهم تقديم دليل ضدّه بمقتضى قوانين لويزيانا. وهكذا استلقيت فوق أرضية «البيت الكبير» وحاولت النوم، وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي مُنحت فيها هبة البقاء في مكان مريح كهذا طيلة اثني عشر عاماً من العبودية. وقبيل منتصف الليل بدأ الكلب ينبح، فنهض «شابين» ونظر من النافذة، لكنه لم يرَ شيئاً. وأخيراً هدأ الكلب. وفي طريق عودته قال لي: «أنا على يقين يا «بلات» من أن هذا الوغد يحوم حول المكان. إذا نبح الكلب مجدداً وأنا نائم أيقظني».

وعدته أن أفعل. وبعد ساعة أو أكثر شرع الكلب ينبح ثانية، وراح يعدو صوب البوّابة وهو ينبح مجدداً بشراسة.

نهض «شابين» من فراشه ولم ينتظر أن أناديه، وخرج هذه المرة إلى الساحة وظلّ واقفاً هناك فترة طويلة، بيد أنه لم يرَ شيئاً كذلك، وعاد الكلب إلى بيته. ولم يُزعج سُبات تلك الليلة شيء آخر بعد ذلك. إلا أن الأوجاع البالغة التي كنت أعاني منها وترقّب الخطر المحتمل قد منعاني من الراحة على أي حال. وبغض النظر عمّا إذا كان «تيبيتس»

قد عاد إلى المزرعة في تلك الليلة أو قد سعى إلى الانتقام مني أو لا، فربما ظلّ هذا سراً لم يعرفه سواه. لكنني ظننت في ذلك الوقت، ولا يزال لديّ انطباع قوي، بأنه كان هناك. لقد كان الرجل مجرماً وقاتلاً بطبعه؛ قد يجبن أمام كلمات رجل شجاع ولكنه لا يأبه بأن يضرب ضحيته الضعيفة والعاجزة من الخلف حين لا تكون منتبهة، كما عرفت بعد ذلك.

نهضت في الصباح وأنا أشعر بالألم والتعب بعد أن ارتحت قليلاً. مع ذلك، توجّهت، بعد أن تناولت الإفطار الذي أعدّته لي «ماري» و«إليزا» في الكوخ، إلى مشغل الحياكة وبدأت أعمال يوم آخر. كانت عادة «شابين»، شأن المشرفين عامة، أن يمتطي جواده فور أن يستيقظ، حيث يجده مُسرّجاً ومُلجّماً لأجله- وهو عمل العبيد بصفة خاصة- وينطلق إلى الحقل. إلا أنه لم يفعل هذا الصباح، بل أتى إلى المشغل وسألني إن كنت لمحت «تيبيتس» في المكان. ولما أجبته سلباً ألمح إلى أن ثمة أمراً غير سوي في الرجل، وأنه شرير، وينبغي أن أراقبه بحرص وإلا آذاني في أي يوم قد أطمئن فيه إليه.

لم يكن قد فرغ من حديثه بعد حين ظهر «تيبيتس» ممتطياً جواده قبل أن يترجّل عنه ويربطه، ثم دخل إلى المنزل. لم أكن لأخشاه كثيراً في وجود «شابين» و«فورد»، ولكني كنت أعرف أنهما لن يمكثا بجواري طوال الوقت.

كم هي ثقيلة وطأة العبودية على صدري. وكان يجب عليَّ الكدح يوماً بعد يوم، واحتمال الإساءة والتحكم والسخرية، والنوم فوق الأرض القاسية، والعيش على أجرة زهيدة، وليس هذا فحسب،

بل العيش عبداً لبائس يسعى إلى سفك دمي ومن ثم عليّ أن أكابد الرعب والخوف المستمرّين. لماذا لم أمُت في سني شبابي - قبل أن يهبني الله أبناء أحبهم وأعيش من أجلهم؟ أي تعاسة ومعاناة وحزن كنت سأتجنّبها! هَفَت نفسي إلى الحرية؛ بيد أن سلسلة الرق كانت تكَبّلني ولا أستطيع منها فكاكاً. لم يكن في وسعي سوى التحديق بحزن نحو الشمال، والتفكير في آلاف الأميال التي تباعد بيني وبين أرض الحرية، وهي المسافة التي لا يجوز لأي عبد أسود أن يتجاوزها.

في غضون نصف ساعة كان «تيبيتس» يسير صوب المشغل، سدّد إليَّ نظرة حادة قبل أن يغادر من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. ومكث غالبية فترة الضحى على الساحة يقرأ جريدة ويتحدث إلى «فورد». وبعد الغداء غادر السيد «فورد» المكان قاصداً «باين وودز»، ولا شك أنني قد أسِفت كثيراً لمغادرته المزرعة.

جاء «تيبيتس» مرة أخرى في أثناء النهار حيث ألقى إليَّ ببعض الأوامر، وعاد من حيث أتى.

اكتمل مشغل الحياكة في أثناء الأسبوع- ولم يُشِر «تيبيتس» أي إشارة إلى ما حدث بيننا- عندما علِمت أنه أجّرني لـ «بيتر تانر» للعمل تحت إمرة نجار آخر يُدعى «مايرز». وقد استقبلت هذا الخبر باستحسان؛ إذ إنني أرحّب بأي مكان يريحني من حضوره المقزّز.

وكما عرف القارىء من قبل، فإن «بيتر تانر» كان يعيش في الجهة المقابلة من النهر، وكان أخاً للسيدة «فورد»، وواحداً من أكبر المزارعين في «بايو بوف»، ويمتلك عدداً كبيراً من العبيد.

ذهبت مسروراً إلى «تانر»، وكان قد سمع بالواقعة التي حدثت

مؤخراً، وتأكدت من أن نبأ جَلْد «تيبيتس» قد انتشر في أرجاء المنطقة وسمع بها القاصي والداني. فكانت تلك الحادثة، إلى جانب تجربة الأطواف، سبباً في شهرتي. وفي أكثر من مرة، سمعت أن «بلات فورد»، أصبح الآن «بلات تيبيتس»- إذ يتغيّر اسم العبد بتغيّر سيده - «زنجي عفريت». لكن كان مقدّراً لي أن أثير مزيداً من الجلبة، كما سنرى، في أرجاء عالم «بايو بوف».

حاول «بيتر تانر» أن يوصل إليَّ انطباعاً مفاده أنه رجل حادّ المزاج، برغم أنه لم يغب عنّي أن هذا العجوز يحمل في طيّاته الكثير من المرح في النهاية.

استهل حديثه معي لدى وصولي بقوله: «أنت إذن الزنجي الذي جلد سيّده؟ أنت الزنجي الذي ركل النجّار «تيبيتس» بقدمه وصفعه؟ ربما أحب أن أراك تفعل معي هذا. أنت شخصية مهمة؛ زنجي عظيم، ومتميّز جداً، أليس كذلك؟ سوف أجلدك، سوف أخلّصك من كل نوبات غضبك. هلا أمسكت بقدمي؟ لن تمارس أياً من مهاراتك يا فتى، تذكّر ذلك! اذهب الآن إلى عملك أيها الوغد الهمجي»، وهكذا أنهى حديثه وهو بالكاد يكبح جماح ابتسامة نصف مرحة إعجاباً بفكاهته وسخريته.

بعد الاستماع إلى هذه التحية استلمني «مايرز»، وعملت تحت إشرافه طوال شهر كامل، وكان هذا مرضياً له ولي.

على غرار «وليام فورد»، كان شقيق زوجته «تانر» معتاداً على قراءة الكتاب المقدس لعبيده في أيام الأحد، ولكن بروح مختلفة. كان مفسّراً مثيراً للإعجاب «للعهد الجديد». وحدث أن دعاهم في يوم

الأحد الأول بعد التحاقي بمزرعته، وشرع يقرأ الإصحاح الثاني عشر من إنجيل «لوقا». وحين وصل إلى الآية 47، نظر متعمّداً حوله وواصل قائلاً: «وَأَمَّا ذلِكَ الْعَبْدُ الَّذِي يَعْلَمُ إِرَادَةَ سَيِّدِهِ»، هنا توقف برهة، ونظر حوله متعمداً أكثر من ذي قبل، وتابع ثانية: «الَّذِي يَعْلَمُ إِرَادَةَ سَيِّدِهِ وَلاَ يَسْتَعِدُّ»، ثم صمت برهة أخرى، «وَلاَ يَسْتَعِدُّ وَلاَ يَفْعَلُ بحَسَبِ إِرَادَتِهِ، فَيُضْرَبُ كَثِيرًا».

ثم سألني «بيتر» مؤكّدا: «هل سمعتَ هذا؟»، وكرّر عبارة «فَيُضْرَبُ كَثِيرًا» ببطء ووضوح وهو يخلع نظّارته استعداداً لإضافة بعض الملاحظات.

«هذا هو الزنجي الذي لا يعبأ بأمر سيّده ولا يطيعه- أترون؟ - هذا الزنجي سوف يُضرب كثيراً. وكثيراً هنا تعني الكثير بالفعل؛ أربعين وربما مائة أو حتى مائة وخمسين جلدة. هذا ما يقوله الكتاب المقدس!» واستفاض «بيتر» في شرح الموضوع مدّة طويلة حتى يعي جمهوره من العبيد ما كان يبغي قوله.

في ختام هذه الجلسة، نادى على ثلاثة من عبيده- «وارنر» و«ويل» و«ماجور»- ثم صاح بي قائلا:

«والآن يا «بلات»، لقد أمسكت بساقي «تيبيتس»، أرني الآن ما إذا كان بوسعك الإمساك بهؤلاء الأوغاد الثلاثة بالطريقة ذاتها حتى أعود من اجتماعي».

وبعدها أمرهم بإحضار آلة الجلد الخشبية، وهي شائعة في مزارع منطقة «رد ريفر»، وتتألف من لوحين خشبيين يثبّت اللوح السفلي من طرفيه بعمودين مثبتين في الأرض جيداً. وعلى مسافات مناسبة،

يتم قطع نصفي دائرتين في الحافة العليا، ثم ربط اللوح الآخر بإحدى الساريتين عن طريق مفصّلة بحيث يمكن فتحها أو غلقها على غرار شفرة سكّين الجيب. وفي الحافة السفلية من اللوح العلوي، يُصنع نصفا دائرة آخران يتوافقان مع نصفي الدائرة في اللوح السفلي بحيث تشكّل معاً دائرتين كاملتين متى انطبق اللوحان أحدهما فوق الآخر؛ بما يسمح بتثبيت ساقي الزنجي من فوق الكاحل من من دون أن يفلتهما. أما الطرف الآخر من اللوح العلوي، والمقابل للمفصّلة، فيتم تثبيته بقفل ومفتاح. يؤمر العبد بالجلوس على الأرض، ثم يُرفع اللوح العلوي حتى يضع العبد كاحليه فوق نصفي الدائرتين في اللوح السفلي، ويغلق عليهما اللوح العلوي ويصبح من ثم مقيّداً تماماً. وكثيراً ما كان يوضع العنق محل أحد الكاحلين ويُغلق عليه. هكذا يوضع العبيد عند جلدهم.

وبحسب رواية «تانر»، كان «وارنر» و«ويل» و«ماجور» زنوجاً يسرقون ثمار البطيخ ولا يعبؤون بأيام الأحد. ولأنه كان يرفض هذه الشرور، رأى أنه من واجبه أن يضعهم في آلات الجلد، بل أعطاني المفتاح. وبالفعل، دخل «مايرز» و«السيدة تانر» والأطفال إلى العربة وانطلقوا بها بعيداً قاصدين كنيسة «شينفيل». وعندما ذهبوا توسَّل إليَّ ثلاثتهم كي أتركهم يذهبون. وشعرت بالأسى لرؤيتهم يجلسون فوق الأرض الملتهبة، وتذكرت معاناتي في حرارة الشمس الحارقة. وبناء على وعد منهم بأن يعودوا إلى الآلة الخشبية في أي لحظة يُطلب منهم ذلك، وافقت على إطلاق سراحهم. وامتناناً من جانبهم لهذا الصنيع الذي أسديته لهم، ولكي يكافئوني عليه، أرشدوني إلى مكان

زراعة البطيخ. وبعد فترة وجيزة من عودة «تانر»، كانوا قيد الآلة مجدداً. وأخيراً أتى ونظر إليهم قائلاً بضحكة مكتومة:

«آها، يبدو أنكم لم تنالوا فرصة للتحرك كثيراً اليوم على أي حال. سوف ألقنكم درساً، وأعاقبكم لتناولكم البطيخ في يوم الرب وكسر الأحد أيها الزنوج».

وكان «بيتر تانر» يتفاخر في محيطه بمراعاته الصارمة لمبادىء الدين؛ فقد كان شمّاساً في الكنيسة.

ولكنني وصلت الآن إلى نقطة في روايتي، أصبح من الضروري فيها أن أبتعد عن تلك الشؤون البسيطة لشأن أكثر خطورة وأهمية يتعلق بالمعركة الثانية مع السيد «تيبيتس»، والفرار عبر مستنقع «جريت باكودري سوامب».

الفصل العاشر

مع نهاية الشهر، حين لم تعد خدماتي مطلوبة في مزرعة «تانر» أعادوني مرة أخرى إلى النهر إلى سيدي، الذي كان مشغولاً في بناء مكبس القطن. كان يقع على مسافة من البيت الكبير، في مكان شبه منعزل. وبدأت العمل مجدداً بصحبة «تيبيتس» وكنت أقضي معه غالبية الوقت بمفردي. تذكرت ما قاله لي «شابين» وتحذيره، ونصيحته بأن أظل متيقظاً كي لا يؤذيني «تيبيتس» في غفلة مني. لم يكن هذا الحديث يغادر رأسي، لذا عِشت في حالة مزعجة من التوجّس والخوف. وقررت ألا أعطيه ذريعة للخلاف، وأن أعمل بجهد أكبر من ذي قبل إذا أمكن، وأن أحتمل سوء معاملته أو أي إساءة قد يوجّهها لي، باستثناء الإساءة الجسدية، باستكانة وصبر أملاً في أن يخفّف من حدّة طباعه تجاهي حتى تحين لحظة إنقاذي من براثنه.

وفي صباح اليوم الثالث من عودتي ترك «شابين» المزرعة إلى «شينفيل» على أن يعود في المساء. أما «تيبيتس» فتعرّض ذاك الصباح لإحدى نوبات الاكتئاب وسوء المِزاج التي كان يتعرّض لها من آن إلى آخر، وتجعله كريهاً وحقوداً أكثر من المعتاد.

كانت الساعة حوالي التاسعة صباحاً وكنت مشغولاً بالعمل بالمسحاج على الشادوف، وكان «تيبيتس» يقف بالقرب من منضدة

العمل ويقوم بتثبيت مقبض الإزميل الذي استخدمه من قبل لقطع أسنان البرغي، حين قال:

«أنت لم تقم بتنعيمه كما يجب».

فأجبته: «بل يتسّق مع الخط تماماً».

فقال بنفاد صبر: «أنت كاذب لعين».

فقلت في تلطف: «حسناً يا سيدي. إذا أردت، فسوف أعمل على تنعيمه مجدداً»، وتابعت العمل كما افترضت أنه أراد. وقبل إعمال المسحاج مرة إضافية صاح مجدداً قائلاً إنني قد قمت بتنعيمه أكثر مما ينبغي حتى بات صغيراً جداً، وإنني قد أفسدت الشادوف تماماً. وأعقب هذا بالشتائم واللعنات، حاولت أن أفعل تماماً ما أمرني به، ولكن لم يكن شيئاً ليرضي هذا الرجل المجنون. أما أنا فوقفت في صمت وخوف بجوار الشادوف ممسكاً بالمسحاج في يدي من دون أن أدري ماذا أفعل، ولا أجرؤ على أن أبدو متكاسلاً. كان «تيبيتس» يزداد عنفاً وغضباً لحظة بعد لحظة حتى أمسك أخيراً بفأس صغيرة كانت فوق المنضدة واندفع نحوي وهو يُقسم ذاك القسم المرير والمخيف الذي لا يأتي به إلا «تيبيتس» بأن يكسر رأسي.

كانت تلك لحظة حياة أو موت. ورأيت نصل الفأس الحاد يبرق في ضوء الشمس، وعرفت أنه سوف ينغرس في رأسي بعد لحظة أخرى، ولكنني فكّرت في تلك اللحظة بالسرعة التي ترد بها الأفكار إلى رأس شخص مرتعب. إذا مكثت مكاني فإن قدري محتوم، وإذا فررت فهناك فرصة من عشر إلى واحد بأن تلك الفأس إن أطاح بها تجاهي في ضربة قاتلة ولم تخطىء طريقها فسوف تنغرس في ظهري. لذا لم

يكن هناك سوى خيار واحد. اندفعت نحو «تيبيتس» بكل ما أوتيت من قوة ولقيته في نصف الطريق قبل أن يهوي بضربته، فأمسكت بذراعه المرفوعة بيد، وبعنقه باليد الأخرى. ووقفنا يحدّق أحدنا في عين الآخر. ولم أرَ في عينيه سوى أنه مجرم وقاتل. شعرت وكأن ثعباناً يلتف حول عنقي وينتظر أقل حركة ارتخاء من قبضتي حتى يحيط بجسدي بأكمله ويسحقه حتى الموت. فكّرت في أن أصرخ بصوت عالٍ؛ أملاً في أن يسمعني أحدهم. لكن «شابين» كان بعيداً، والعمّال في الحقول، وليس هناك أحد على مرأى أو مسمع مني.

في تلك اللحظة، ألهمتني العبقرية التي أنقذتني حتى الآن من أيادي العنف بفكرة حالفها الحظ. ركلته ركلة مفاجئة وعنيفة أنزلته على إحدى ركبتيه مطلقاً حشرجة ألم، وأرخيت قبضتي على عنقه، وانتزعت الفأس من يده ورميتها بعيداً عنه فلا يصل إليها.

أصيب «تيبيتس» بغضب محموم، وجُنّ جنونه حتى فقد السيطرة على ذاته، وأمسك بعصاً من البلوط الأبيض كانت ملقاة على الأرض، ربما يبلغ طولها خمس أقدام ومحيطها ما يكفي لكي يُحكم قبضته عليه. اندفع نحوي مجدداً ولاقيته مرة أخرى وأمسكت به من خصره، ولأني الأقوى فقد نجحت في طرحه أرضاً، وتمكّنت من انتزاع العصا ثم نهضت عنه وألقيتها من يدي.

ونهض «تيبيتس» كذلك وأسرع نحو البلطة الموضوعة فوق المنضدة، ولحسن الحظ أنه كان هناك لوح ثقيل مُلقى فوق نصلها فلم يستطع سحبه قبل أن أمسك به من الخلف. رحت أضغط عليه إلى أسفل بقوة فوق اللوح حتى أصبحت البلطة أكثر ثباتاً في مكانها،

وحاولت عبثاً أن أفلت قبضة البلطة من يده ولم أفلح. ومكثنا على هذه الحالة بضع دقائق أخرى.

بدا لي، في ساعات كثيرة من حياتي البائسة، التفكير في الموت بوصفه نهاية لأحزاني الدنيوية، حيث يكون القبر مكاناً يستريح فيه هذا الجسد المتعب والهالك، تأمّلات لطيفة في حد ذاتها. ولكن تلك الأفكار تتلاشى في لحظات الخطر؛ فلا يوجد رجل يمكنه أن يقف بكامل قوته من دون مهابة حضرة «ملاك الموت». فالحياة غالية لدى كل الأحياء، حتى الدودة التي تزحف فوق الأرض سوف تناضل للحفاظ على حياتها. وفي تلك اللحظة كانت حياتي غالية عندي، حتى مع استعبادي وسوء معاملتي.

ولما لم أتمكن من إفلات يده قبضت على عنقه مجدداً قبضة موجعة، سرعان ما أرخت يده عن المقبض. أصبح «تيبيتس» طيّعاً وقد توتّرت أعصابه، واسودّ وجهه جرّاء اختناقه بعدما كان أبيض من فرط انفعاله. وملأ الرعب العينين الثعبانيتين اللتين تطلقان سُمّاً، واستحالتا كرتين بيضاوين تُطلاّن من محجريهما!

في قلبي كان هناك «شيطان كامن» يحثّني على قتل هذا الذئب البشري على الفور؛ أن أشدّد قبضتي على عنقه المتألم حتى تفارقه الحياة! ولكنّي لم أتجرأ على قتله، ولا على تركه يعيش. فإذا قتلته فستكون حياتي ثمناً لحياته، وإذا تركته يعيش فلن يرضيه انتقاماً إلا قتلي. وهمس صوت بداخلي أن ألوذ بالفرار. أن أهيم بين المستنقعات وأصبح هارباً ضالاً على وجه الأرض، أحبّ إليَّ من الحياة التي أحياها.

وهكذا اتخذت قراري فأطحت بالرجل من فوق المنضدة إلى الأرض، وقفزت فوق سياج قريب واختفيت في المزارع مروراً بالعبيد العاملين في حقل القطن. وفي نهاية ربع الميل الأول، وصلت إلى المرعى داخل الغابة، ولم يمضِ سوى وقت قصير منذ أن بدأت العدو. وعندما ارتقيت السياج العالي كان في وسعي أن أرى مكبس القطن، والمنزل الكبير، والمسافة بينهما. كان موقعي رائعاً يكشف لي المزرعة بأسرها. ورأيت «تيبيتس» يسير عبر الحقل إلى المنزل ويدخله ثم يخرج منه حاملاً سرج جواده، وفي لحظة كان يمتطيه وينطلق به بعيداً.

كنت بائساً، ولكني كنت ممتناً كذلك؛ ممتناً لأنني لم أزل على قيد الحياة، برغم المشهد البائس والمحبط أمامي. تُرى، ماذا سيحدث لي؟ من سيصادقني؟ وهل ينبغي لي الفرار فعلاً؟ يا إلهي! أنت من وهبتني الحياة، وغرست في قلبي حبّ الحياة، وجعلته مفعماً بالمشاعر شأن مخلوقاتك الأخرى، لا تتخلَّ عني. أسألك الرحمة والرفق بعبدك الفقير، لا تُقدّر عليَّ هلاكي. فحمايتك دونها الهلاك.. الهلاك! كانت تلك الأدعية تنطلق من أعماقي في صمت إلى عنان السماء. إلا أن صوتاً لم يجبني؛ لم أسمع صوتاً حلو النبرة، خفيضاً، يأتيني من الأعالي، ويهمس لروحي: «إني أنا ربّك فلا تخفْ». بدا لي أن الله قد تركني؛ أنا المحتقر والمكروه من البشر!

وفي نحو ثلاثة أرباع الساعة، كان هناك العديد من العبيد يصرخون ويرسلون لي بإشارات للفرار. كنت من مكاني أنظر إلى أعلى النهر فرأيت «تيبيتس» ورجلين آخرين على جيادهم يأتون

مسرعين ويتبعون مجموعة من ثمانية أو عشرة كلاب. وبرغم المسافة استطعت التعرّف إليهم. كانا يعملان في المزرعة المجاورة، وكانت تلك الكلاب تُستخدم في «بايو بوف» لصيد العبيد، وهي من كلاب المطاردة لكنها أكثر وحشية من تلك الموجودة في الولايات الشمالية. وهي مدرّبة على مهاجمة أي زنجي متى أمرها سيدها بذلك، فتمسك به كما تفعل كلاب «البولدوغ» بأي حيوان ذي أربع. وكثير ما يُسمع نباحها العالي في المستنقعات، وتنطلق التكهنات عن النقطة التي سيتم الإمساك بالزنجي الهارب فيها، تماماً كما يفعل الصيّاد في «نيويورك» حين يتوقّف ليستمع إلى مسار الكلاب جانب التلال، ويقترح على أصحابه أن الكلاب سوف تنقض على الذئب في هذا المكان أو ذاك. ولم أسمع قط عن عبد استطاع الهرب من «بايو بوف». ومن بين الأسباب أنه لا يُسمح للعبيد أبداً بتعلّم السباحة؛ ومن ثم لا يستطيعون عبور تيار النهر الشديد. وبعد فترة وجيزة من فرارهم؛ لا يوجد اتجاه يمكنهم الذهاب إليه إلا وسرعان ما يُفضي إلى النهر ويصبح البديل الوحيد أمامهم الموت غرقاً أو أن تعثر عليهم الكلاب. كنت في شبابي قد تدرّبت على السباحة في التيارات الهادئة في وطني حتى أصبحت سبّاحاً ماهراً، وأشعر في الماء كأنني في موطني الطبيعي.

لبثت على السياج حتى وصلت الكلاب إلى مكبس القطن. وبعد لحظة واحدة كان نباحها الوحشي يعلن أنها على مسارها الصحيح تجاهي، فقفزت من مكاني وجريت نحو المستنقع وقد أكسبني الخوف قوة استغلّلتها عن آخرها. كان يصلني نباحها كل بضع ثوان فأعرف أنها تقترب مني أكثر وأكثر. وتوقعت أن تقفز على ظهري بين لحظة

وأخرى، وأن أشعر بأنيابها تنغرس في لحمي. كان هناك الكثير منها، وكنت أدرك أنها سوف تفتك بي لا محالة، وتوردني موارد الهلاك على الفور. كنت ألهث لألتقط أنفاسي -وربما لأتمتم ما استطعت بصلاة متقطعة للخالق كي ينقذني- استزادة من قوة تمكّنني من الوصول إلى نهر متسع وعميق أستطيع تضليلها من خلاله، أو الغطس في مياهه. وصلت الآن إلى نهاية حقل من شجيرات النخيل الكثيفة. عندما ركضت عبرها أحدثت أصوات حفيف مرتفعة، لكنها ليست شديدة الارتفاع لتحجب أصوات الكلاب.

تابعت طريقي جنوباً وفق تقديري حتى وصلت أخيراً إلى مياه ضحلة. لم تكن الكلاب خلفي تبعد أكثر من مسافة خمسة وعشرين متراً. كنت أسمعها تتقدّم وتتدافع عبر شجيرات النخيل، ونباحها العالي يتردّد في المستنقع ككل محدثة فيه جلبة. تجدّد في داخلي الأمل قليلاً عندما وصلت إلى المياه. لو أنها كانت أكثر عمقاً لفقدت الكلاب أثر رائحتي ولانفصلنا وأتيحت لي فرصة الفرار منها. ولحسن الحظ أن المياه ازدادت عمقاً كلما تقدّمت فيها حتى غطّت كاحلي ونصف المسافة إلى ركبتيَّ وكادت تصل إلى خصري، ومجدداً إلى المناطق الضحلة. لم يكن في وسع الكلاب الوصول إليَّ ما دمت في الماء. بدا واضحاً أن ذلك قد أربكها، وأصبح نباحها الوحشي أبعد وأبعد حتى اطمأننت إلى أنني أبتعد عنها بالفعل. وأخيراً توقفت برهة كي أستمع فأتاني صوت النباح يُرعد مجدداً كي يغادرني الإحساس بالأمان. ومهما تنقّلت من مستنقع إلى آخر كانت في إثري، برغم المسافات المائية. ولسعادتي البالغة، وصلت في النهاية إلى جدول واسع، وما

إن قفزت فيه حتى نقلني تياره إلى الجانب الآخر. ولا شك أن هذا سيربك الكلاب كثيراً؛ فالتيار سيحمل إلى أسفل النهر كل أثر لتلك الرائحة الطفيفة الغامضة التي تُمكّن الكلاب بحاسة الشم القوية لديها من اتباع الشخص الهارب.

بعد عبور هذا الجدول، أصبحت المياه عميقة حتى إنني لم أستطع الجري فيها. وأصبحت الآن في مكان عرفت فيما بعد أنه يُدعى مستنقع «جريت باكودري سوامب»، وكان يعجّ بالأشجار الضخمة، الجميز، والخشب، والقطن، والسرو، التي تمتد- كما عرفت- حتى شاطىء نهر «كالكاسيو». وعلى مسافة ثلاثين أو أربعين ميلاً، كانت المنطقة تخلو من السكان عدا الوحوش البرية- الدببة والأسود والنمور- والكثير من الزواحف الزلقة الكبيرة التي تزحف في أرجائه كافة. وقبل فترة طويلة من وصولي إلى الجدول، أو بالأحرى من وقت نزولي إلى المياه حتى خرجت من المستنقع عند عودتي، كانت تلك الزواحف من حولي؛ رأيت المئات من الثعابين السامّة، كانت حيّة في كل مستنقع وفوق كل جذع شجرة تعثرت به أو تسلّقته. بعضها كان يزحف بعيداً باقترابي، وأحياناً كنت في استعجالي أضع يداً أو قدماً عليها. وهي ثعابين سامّة وعضّتها أشدّ فتكاً من الحيّة ذات الجرس. وعلاوة على ذلك، فقدت فردة حذاء بعد أن انخلع نعلها تماماً تاركاً الجزء العلوي متعلقاً بكاحلي.

رأيت كذلك الكثير من التماسيح؛ الكبير منها والصغير، ترقد في المياه أو فوق قطع الأخشاب الطافية. وكانت عادة ما تجفل كلما اقتربت منها. وأحياناً ما كنت أصطدم مباشرة بأحد هذه الوحوش

قبل أن ألحظه، فأتراجع على الفور وأجري مسافة قصيرة من حوله حتى يتشتّت ويفقد أثري؛ فعندما تعدو أمامها مباشرة يمكنها أن تعدو خلفك بسرعة ولو لمسافة قصيرة، ولكنها تفتقر إلى القدرة على الالتفاف. فمن السهل الفرار منها في السباقات الملتوية.

وفي حوالي الثانية عصر ذاك اليوم، كان آخر ما سمعت من نباح تلك الكلاب، وأفترض أنها لم تعبر الجدول. كنت مبتلاً ومنهكاً، ولكن معافى من الشعور بالهلاك المحدق، ومضيت في طريقي ولكن بشعور متزايد بالخوف من الثعابين والتماسيح أكثر مما كنت في الجزء الأول من مسيرة هروبي. فأصبحت قبل الخوض في أي بركة موحلة أضرب المياه بعصا، فإذا تحركت المياه كنت ألتف حولها ولا أحاول خوضها.

أخيراً غربت الشمس، وبدأت عباءة الليل تلف هذا المستنقع الكبير المُسجّى في الظلام تدريجياً. تابعت طريقي وأنا أستشعر في كل لحظة لدغة مروّعة من ثعبان سام، أو احتمال أن انسحق بين فكّي تمساح روّعه اقترابي المفاجىء. وبات خوفي من تلك الأشياء مساوياً لخوفي السابق من الكلاب النابحة. وبعد فترة احتلّ القمر مكانه في السماء مرسلاً ضوءه المعتدل فوق الأغصان المنتشرة بكثافة، والتي تغطيها الطحالب الطويلة والمتدلية. ولم أتوقف أبداً عن المضي قدماً حتى انتصف الليل، أملاً في الوصول في أي لحظة إلى منطقة أقل انعزالاً وخطورة. لكن الماء كان يزداد عمقاً وأصبح السير فيه أصعب من أي وقت مضى. وأدركت أنه سيكون من المستحيل المضي أبعد من ذلك، كما لم أكن متيقناً في يد من سوف أقع عند وصولي

أي منطقة بها سكان. وحيث إنني لم أكن أحمل تصريحاً، ففي وسع أي رجل أبيض أن يعتقلني ويحتجزني في السجن حتى يأتي سيّدي «ويثبت ملكيتي، ويدفع الرسوم، ويأخذني». كنت ضالاً وإذا كنت تعس الحظ وصادفت شخصاً يلتزم بقانون «لويزيانا»، فقد يرى أن من واجبه تجاه جاره أن يحتجزني على الفور. كان من الصعب حقاً تحديد ما يُفترض أن أخشاه أكثر؛ الكلاب، أم التماسيح، أم البشر!

غير أنني توقّفت بعد منتصف الليل. لا يسع الخيال أن يصف كآبة ذاك المشهد. كان المستنقع يردّد أصوات عدد لا حصر له من البط! ولا شك أن قدماً بشرياً لم تطأ أعماق هذا المستنقع منذ خُلِقت الأرض. لم يكن صامتاً الآن- ذاك الصمت الثقيل- كما كان والشمس في كبد السماء. كان دخولي المشهد في منتصف تلك الليلة سبباً لإيقاظ القبائل ذات الريش والتي بدت محتشدة في هذا المستنقع بمئات الآلاف، وأطلقت حناجرها الثرثارة تلك الأصوات الوافرة مع خفق أجنحتها في كل تلك المياه الراكدة من حولي، فانتابني الفزع وروّعت حقاً. بدا لي أن كل طيور السماء وكل زواحف الأرض مجتمعة في هذا المكان خصيصاً لتشويشه وإرباكه وجعله بهذا الصخب. فليس فقط في المناطق التي يسكنها البشر، والمدن التي يزدحمون فيها، تنطلق مشاهد وأصوات الحياة؛ فالمناطق الأكثر بريّة تنبض فيها الحياة. حتى في قلب هذا المستنقع الكئيب، خلق الله ملجأً وملاذاً لملايين الكائنات الحية.

ارتفع القمر فوق الأشجار عندما راودتني خطة جديدة. كنت قد سعيت حتى تلك اللحظة إلى السفر صوب الجنوب ما أمكن. فالتففت وتابعت صوب الشمال الغربي مستهدفاً اختراق «باين

وودز» في محيط ضيعة السيد «فورد». وفور أن أكون في ظلال حمايته، سوف أصبح في أمان نسبي.

كانت ملابسي في حالة يُرثى لها، والجروح والخدوش تغطيان يديَّ، ووجهي، وجسدي، جرّاء النتوءات الحادة بالأشجار الساقطة، وتسلّق أكوام الفروع والأخشاب الطافية. أما قدمي العارية فكانت مليئة بالأشواك. كنت ملطّخاً ومتسخاً بالطين والوحل والقاذورات الخضراء التي تجتمع على سطح المياه الراكدة التي خُضت فيها حتى عنقي أحياناً في أثناء النهار والليل. وساعة بعد ساعة، ومتعباً كما كنت، واصلت مسيرتي نحو الشمال الغربي وقد أخذت المياه تصبح أقل عمقاً والأرض أكثر صلابة تحت قدمي. وصلت أخيراً إلى «باكودري»؛ وهو الجدول الواسع نفسه الذي سبحت عندما غادرت، فسبحت فيه مجدداً وخِلت بعد برهة أنني سمعت نعيق أحد الغربان ولكنه كان صوتاً ضعيفاً، وربما توهَّمته أذني بالأساس. وانحسرت المياه عن مساري، والآن وقد تركت المستنقعات خلفي، أصبحت أسير فوق أرض جافة تصعد تدريجياً إلى السهل، وعرفت أنني في مكان ما في «جريت باين وودز».

وصلت إلى أرض مفتوحة مع انبلاج الفجر، مزرعة صغيرة لم أرها من قبل. صادفت شخصين عند حافة الغابة: عبد وسيّده الشاب منخرطان في صيد الخنازير البرية. كنت أعرف أن الرجل الأبيض سيطلب الاطلاع على تصريحي، وعندما لا يجده سوف يضمّني إلى حيازته. وكنت في حالة شديدة من الإعياء لا أستطيع معها الجري مجدداً، وتملّكني الخوف من احتمال أسري مجدداً؛ ومن ثم اعتمدت

حيلة أتت أُكُلها تماماً. رسمت تعبيراً شرساً على ملامحي، وسِرت في اتجاهه مباشرة وأنا أنظر في وجهه بثبات. وما إن اقتربت حتى تراجع إلى الخلف وبدا واضحاً لي أن الخوف قد أصابه، وراح يحدّق بي وكأنني عفريت جهنمي خرج لتوّه من أحشاء المستنقع!

سألت بنبرة لطيفة ومهذبة: «أين يعيش «وليام فورد؟»».

«إنه يعيش على مسافة سبعة أميال من هنا».

سألت مجدداً وأنا أحاول أن أبدو أكثر غضباً من ذي قبل: «وما الطريق إليه؟»

«هل ترى أشجار الصنوبر تلك هناك؟». سألني وهو يشير إلى مسافة ميل بها بضع أشجار تعلو على الأخريات مثل حارسين طويلي القامة يطلاَّن على مساحة واسعة من الغابات.

«أراهما»، كانت إجابتي.

«أسفلها تجد طريق «تكساس»، استدرْ يساراً وسوف يأخذك الطريق إلى مزرعة «وليام فورد»».

ومن من دون أن أتبادل معهما كلمة أخرى، أسرعت إلى الأمام سعيداً، كما كان هو من من دون شك، بأن أبتعد عنه ما أمكن. ووفقاً للاتجاهات التي وصفها لي سلكت طريق «تكساس»، ثم اتخذت جهة اليسار وسرعان ما مررت بحريق ضخم كانت تُحرق فيه كومة من الأخشاب. ذهبت صوب النيران طمعاً في أن أجفّف ملابسي، ولكن أضواء الصباح الرمادية كانت تشق طريقها مسرعة نحو الأرض وخشيت أن يراني أي رجل أبيض، فضلاً عن أن الحرارة بعثت فيَّ رغبة في النوم. ومن ثم لم أتوقف كثيراً، وواصلت طريقي حتى

وصلت إلى منزل «السيد فورد» أخيراً في الثامنة صباحاً.

كان المكان خالياً من العبيد حيث كلٌّ في عمله. وقفت عند الساحة، وطرقت الباب، وسرعان ما فتحته السيدة «فورد». كان مظهري مختلفاً تماماً عما اعتادته، وكنت في حالة يائسة ومزرية حتى إنها لم تعرفني. وما إن سألتها عما إذا كان السيد «فورد» بالمنزل حتى ظهر هذا الرجل الطيب قبل أن تجيبني هي. أخبرته برحلة هروبي وكل التفاصيل المرتبطة بها، وكان يستمع إليّ بإنصات شديد. وعندما انتهيت تحدّث إليّ برفق وتعاطف، وأخذني إلى المطبخ، وأمر «جون» بأن يُعد ليّ الطعام ولم أكن قد ذقت شيئاً منذ صباح أمس.

وعندما وضع «جون» الطعام أمامي خرجت السيدة بوعاء من الحليب والكثير من الفطائر الصغيرة اللذيذة التي نادراً ما تُقدّم في أطباق العبيد. كنت جائعاً ومتعباً، بيد أن الطعام والراحة لم يعطياني نصف الإحساس بالغبطة التي استشعرتها من جرّاء العطف والمواساة. إذ كانا الزيت والنبيذ اللذين صبّهما السامري الصالح في «جريت باين وودز» على الروح الجريحة لهذا العبد الذي أتاه مجرداً من ملابسه وبين الحياة والموت.

تركني الجميع في الكوخ كي أرتاح. بورك النوم! فهو يزور الجميع سواسية، ويهبط كقطرات الندى من السماء فوق الحرّ والعبد. وسرعان ما بدأ يَقَرُّ في صدري مُذهِباً كل المتاعب التي أثقلت عليه، ويحملني إلى تلك المنطقة الظليلة التي أرى فيها وجوه أبنائي مجدداً وأسمع أصواتهم، أبنائي الذين لا أستطيع أن أراهم للأسف في ساعات يقظتي كأنهم قد وقعوا بين ذراعي نوم آخر، لن يصحوا منه أبداً.

الفصل الحادي عشر

وبعد النوم فترة طويلة استيقظت بعد الظهيرة، مُعافى ومسترداً نشاطي، ولكن أشعر بألم قاسٍ في جسدي كله. دخلت «سالي» وتحدثت إليَّ بينما أعدّ لي «جون» بعض الطعام للغداء. كانت «سالي» تعاني مثلي من مشكلة كبيرة؛ نظراً إلى مرض أحد أبنائها وكانت تخشى أن يودي المرض بحياته. انتهى الغداء، وبعد التجوّل في أنحاء المكان مدة قصيرة، وزيارة «سالي» وطفلها المريض في كوخها، عرّجت على حديقة السيدة «فورد». وعلى الرغم من أن ذاك كان الفصل السنوي الذي تسكن فيه الطيور وتفقد الأشجار بهاءها الصيفي في الأجواء المناخية الأكثر برودة، فإن الكثير من الأزهار لا تزال مزهرة هناك، ونباتات الكروم المُعرّشة تزحف على الأطر، والثمار القرمزية والذهبية نصف مخبّأة بين أزهار الخوخ والبرتقال والبرقوق والرمان؛ ففي هذه المنطقة الدائمة الدفء طوال العام تقريباً، تسقط الأوراق وتزهر البراعم على مدار العام.

غمرني شعور عميق بالامتنان تجاه السيد «فورد» وزوجته، وتمنّيت لو استطعت ردّ عطفهما على نحو ما، وشرعت في تقليم الكروم وإزالة الأعشاب الضارة من بين أشجار البرتقال والرمان، حيث تنمو تلك الأخيرة بارتفاع ثماني أو عشر أقدام، وثمارها تشبه زهر الهلام ولكن

أكبر حجماً، ولها نكهة الفراولة الفاتنة. وتنبت ثمار البرتقال، والخوخ، والدّراق، وغالبية الفواكه الأخرى في تلك التربة الثرية والدافئة في «أفويليس»، ولكن تندر رؤية التفاح برغم أنه الأكثر شيوعاً من بينها في المناطق الأشد برودة.

خرجت السيدة «فورد» وأثنت على العمل الذي كنت أقوم به، وأردفت بأنني في حالة لا تؤهلني بعد للعمل وأنه يمكنني الخلود إلى الراحة حتى يذهب السيد إلى «بايو بوف»، وليس من المنتظر أن يفعل ذلك اليوم أو اليوم التالي. صدّقت على انطباعها بتأكيد كم أنّي أشعر بالتعب، والآلام القاسية التي يعاني منها جسدي، لا سيما قدميَّ اللتين مزّقتهما النتوء والأشواك، إلا أن هذا العمل البسيط لم يكن ليؤذيني، بل إن العمل لسيدة طيّبة مثلها يشعرني بالسعادة. ومن ثم عادت إلى البيت الكبير، وظللت أعمل باجتهاد في الحديقة ثلاثة أيام، أنظّف الممرات، وأعشّب أحواض الزهور، وأنزع الأعشاب الضارّة أسفل عرائش الياسمين، التي علّمتها يد سيدتي اللطيفة والسخية أن تنبت بجوار الجدران وتتسلقها.

في صباح اليوم الرابع، بعد أن تعافيت وصرت أهلاً للعمل مجدداً، أمرني السيد «فورد» بأن أستعد لأصحبه إلى الجدول. ولم يكن هناك سوى جواد واحد مُسرّج في الأرض المفتوحة وبقية الجياد قد أُرسلت إلى المزرعة. فقلت له إن بوسعي السير على قدميَّ، ومن ثم ودّعت «سالي» و«جون» وتركت الأرض المفتوحة وشرعت أسير بجوار الفرس.

كان الفردوس الصغير في قلب «جريت باين وودز» بمثابة واحة

في قلب الصحراء يرنو إليها قلبي بمنتهى الحبّ والودّ طوال سنوات عبوديتي. رحلت عنها بأسف وحزن لكن غير جارفين، كما لو أنني عرف أنني لن أعود إليها مجدداً.

وبرغم أن السيد «فورد» حثّني أكثر من مرة كي نستبدل الأماكن وأن أحلّ محلّه فوق الجواد كي أستريح قليلاً، فإنني رفضت عرضه السخيّ وقلت له إنني لا أشعر بالتعب وإن سيري على قدميَّ أحبّ إليَّ من أن يسير على قدميه. وطوال الطريق، كان السيد «فورد» يذكر ليَ أشياءَ لطيفة ومرحة، ويحرص على أن يخطو الجواد ببطء حتى أستطيع مجاراته. ومن بين ما قاله آنذاك إن رحمة الخالق تجلّت في معجزة فراري من المستنقع؛ مثلما خرج «دانيال» مُعافى من جبّ الأسود، وكما نجا «يونس» في بطن الحوت، هأنا قد نجوت من الشرور برحمة من الله. وسألني عن المخاوف والمشاعر العديدة التي اختبرتها في أثناء ذاك اليوم وتلك الليلة، وإذا ما شعرت في أي لحظة برغبة في الصلاة. أجبته بأنني شعرت بأن العالم بأسره قد تخلّى عني، وكنت أصلّي في نفسي طوال الوقت. فقال إن قلب الإنسان في مثل تلك اللحظات يتجّه صوب الخالق بفطرته، بينما في أوقات الرخاء، حين لا شيء موجع ولا مخيف، لا يتذكر الإنسان الله، بل قد يتحدّاه؛ ولكن ضعه في وسط المخاطر وامنع عنه مساعدة البشر، وافتح القبر أمامه، وما إن يصبح المتهكّم والكافر في محنة حتى يلجأ إلى الله ويلتمس مساعدته وهو يشعر ألا أمل إلا فيه، ولا منجى إلا الله، وأن السلامة والحماية من لدنه.

كما حدّثني هذا الرجل الورِع في رحلتنا في تلك الطرق المنعزلة

صوب «بايو بوف» عن هذه الحياة والحياة الآخرة؛ وعن الخير وقوة الخالق، وغرور المخلوقات وكِبرها.

وعندما صرنا على مسافة خمسة أميال من المزرعة التقينا برجل يمتطي جواده ويهرع صوبنا، وعرفت حين اقترب أنه كان «تيبيتس»! نظر إليَّ الرجل لحظة لكنه لم يخاطبني، ثم استدار بجواده وسار إلى جوار «فورد»، بينما مشيت بجوارهما صامتاً أستمع إلى حوارهما. أخبره «فورد» عن وصولي إلى «جريت باين وودز» قبل ثلاثة أيام، والحالة المزرية التي كنت عليها، والصعاب والمخاطر التي تعرّضت لها.

فقال «تيبيتس» متعجّباً وقد تهذّب كعادته في حضرة «فورد»: «لم أسمع بهروب كهذا من قبل. سوف أراهن عليه بمئات الدولارات أنه سيهزم أي زنجي آخر في «لويزيانا». وقد عرضت على «جون ديفيد» خمسة وعشرين دولاراً للإمساك به حياً أو ميتاً، ولكنه سبق الكلاب ولم تلحق به. ولكن كلاب «تيم تشيني» ليست سريعة بما يكفي على أي حال. لا شك أن كلاب «دانوودي» ما كانت لتمسك به قبل أن يصل إلى المستنقع. لقد ضلّت الكلاب مسارها بشكل ما، وتخلّينا من ثم عن عملية الصيد تلك. ركبنا جيادنا إلى أبعد ما استطعنا، ثم سِرنا على أقدامنا حتى باتت المياه بعمق ثلاث أقدام. وكان الفتيان على يقين من أنه قد غرق. لا أنكر أنني وددت كثيراً لو سدّدت له طلقة مميتة، ولكن منذ حينها وأنا أذرع الجدول جيئة وذهاباً من دون أمل كبير في الإمساك به، وتيقّنت أنه قد لقي حتفه. يا إلهي، هذا الزنجي عفريت في الجري!».

وهكذا ظلّ «تيبيتس» يتحدث ويصف رحلة بحثه عني في المستنقع، والسرعة المذهلة التي فررت بها من الكلاب، وما إن انتهى حتى أجابه السيد «فورد» بأن قال إنني لطالما كنت فتى مخلصاً له وراغباً في رضائه، وإنه انزعج لتلك المشاكل التي واجهناها؛ وإنه، وفقاً لرواية «بلات»، فإنني تعرّضت لمعاملة غير إنسانية وإنه- «تيبيتس»- كان مخطئاً فيما فعل، فمن العار استخدام الفأس والبلطة لضرب العبيد، وينبغي ألا يُسمح بذلك أبداً. واستطرد فورد: «لا يجوز التعامل معهم على هذا النحو بعد جلبهم إلى المدينة. سيكون لذلك نتائج وخيمة، ويدفعهم جميعاً إلى الهروب. سوف يمتلئ بهم المستنقع. أما اليسير من المعاملة الإنسانية فله تأثيره الفعّال في إبقائهم وطاعتهم أكثر من تلك الأسلحة المميتة. وعلى كل مزارع على هذا الجدول أن يمتنع عن تلك الممارسات غير الإنسانية؛ لمصلحة الجميع. من الواضح أنه لا يمكنكما- أنت و«بلات»- العيش معاً. أنت تكرهه ولن تتردّد في قتله، وأنت تعرف ذلك. وهو سيظل يهرب منك كي ينجو بحياته. عليك ببيعه يا «تيبيتس» أو تأجيره على الأقل. وحتى تفعل سأقوم أنا ببعض التدابير حتى أخرجه من حيازتك».

هكذا خاطبه «فورد» بقية المسافة، ولم أنطق أنا بكلمة. وعند وصولنا إلى المزرعة دخل الرجلان البيت الكبير بينما توجّهتُ إلى كوخ «إليزا». دُهش العبيد لرؤيتي هناك عند عودتهم من الحقل، فقد افترضوا أنني قد مِتُّ غرقاً. واجتمعوا مجدداً تلك الليلة في الغرفة للاستماع إلى قصة مغامرتي، وانتهوا يقيناً إلى أنني سوف أُجلد بقسوة، حيث كانت عقوبة الفرار 500 جلدة.

قالت «إليزا» وهي تمسك بيدي بين يديها: «يا للمسكين .. لكان من الأفضل لك لو أنك غرقت. سيدك طاغية وأخشى أن يقتلك».

وافترض «لاوسون» أنه قد يوكل إلى المشرف «شابين» مهمة تنفيذ العقوبة التي ستكون قاسية جداً في هذه الحالة، بينما أمِل كل من «ماري» و«راشيل» و«بريستول» وآخرين بأن السيد «فورد» هو من سيقوم بهذا، وفي هذه الحالة لن يكون هناك أي جلد على الإطلاق. كانوا كلهم مشفقين عليَّ وحاولوا مواساتي، وكانوا يشعرون بالحزن استشرافاً للعقاب الذي ينتظرني، باستثناء «كنتاكي جون» الذي لم يكن هناك حدّ لمرحه، فكان يملأ الكوخ بالضحكات والتعليقات المرحة، وبالكاد يتماسك كي لا ينفجر ضحكاً، وكان مبعث رغبته في الضحك هو أنني استطعت التفوق على كلاب الصيد. كان ينظر إلى الموضوع من وجهة نظر كوميدية للغاية؛ «كنت أعرف أنها لن تلحق به عندما جرى عبر المزرعة. قلت لنفسي: يا إلهي! إن قدمي «بلات» لا تمسّان الأرض! وكلما لحقت به الكلاب في مكان يكون قد غادره .. وأخذت أنبح تشفياً فيها! أيها الخالق القدير»، وهنا اندفع «كنتاكي جون» في واحدة من نوباته العاصفة.

غادر «تيبيتس» المزرعة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. وفي فترة بعد الظهيرة، وبينما كنت أتجول في مخزن الخمر، أتى إليَّ رجل وسيم وطويل القامة، وسألني إن كنت فتى «تيبيتس»؛ حيث كان هذا الوصف الشبابي يُطلق بشكل عشوائي على العبيد، حتى هؤلاء الذين جاوزت أعمارهم الأربعين عاماً. خلعتُ قبعتي وأجبته إيجاباً.

فسألني: «هل تحب أن تعمل لديَّ؟»

فأجبته وقد خامرني أمل مفاجىء في أن أنفلت من قبضة «تيبيتس»: «نعم بالتأكيد، أحب ذلك كثيراً».

«لقد عملت تحت إشراف «مايرز» في مزرعة «بيتر تانر»، أليس كذلك؟».

أجبته بأنني قد فعلت، وأضفت بعض ملاحظات الإطراء التي قالها «مايرز» عني.

«حسناً يا فتى، لقد استأجرتك من سيدك كي تعمل لأجلي في «بيغ كين بريك» على مسافة ثلاثين ميلاً من هنا، أسفل «رد ريفر».

كان هذا السيد «إلدرت» الذي يعيش في مزرعته أسفل مزرعة السيد «فورد» على الجانب ذاته من النهر. رافقت الرجل إلى مزرعته بالفعل، وبدأت العمل في الصباح مع عبده «سام»، وحِمل عربة من المؤن تجرها أربعة بغال إلى «بيغ كين»، وكان «إلدرت» و«مايرز» قد سبقانا على جواديهما. كان «سام» من «شارلستون» حيث تعيش أمه، وأخوه، وأخواته. وقد «أقّر»- وهي كلمة شائعة بين السود والبيض- بأن «تيبيتس» وغد، وتمنّى بقدر ما كنت أتمنى أن يشتريني منه سيّده.

وتابعنا بجوار الشاطيء الجنوبي للنهر، مروراً بمزرعة «كاري» ومنها إلى «هاف باور» ثم إلى طريق «بايو روج»، الذي يفضي إلى «رد ريفر». وبعد عبور مستنقع «بايو روج»، وتحديداً عند الغروب، تركنا الطريق السريع وأصبحنا، من ثم، في «بيغ كين بريك»، حيث اتبعنا طريقاً غير ممهدة بالكاد تتسع لمرور العربة. وكان القصب، كذلك المستخدم في صيد الأسماك- كثيفاً جداً. وكان من الصعب رؤية أي شخص بينها على مسافة خمسة أمتار. وكانت مسارات الوحوش

البرية تتخلّلها في عدة اتجاهات؛ حيث يعيش الدب والنمر الأمريكي في هذه الأماكن، ومتى كان هناك حوض من المياه الراكدة تجده مملوءاً بالتماسيح.

مضينا على طريقنا الموحش عبر «بيغ كين» عدة أميال حتى دخلنا إلى أرض مقطوعة الأشجار تسمّى «حقل ساتون»؛ حيث اخترق رجل يُدعى «ساتون» حقول القصب قبل عدة سنوات حتى وصل إلى هذه المساحة المنعزلة. ويُقال إنه قد فرّ إلى هناك هرباً ليس من الخدمة، وإنما من العدالة. وعاش هنا وحيداً- منعزلاً على المستنقع- يزرع الحبوب ويحصد بيديه. ثم حدث ذات يوم أن اجتاحت عُزلته عصابة من الهنود وسرقوه وقتلوه بعد معركة دامية. وتقول القصة، كما تُروى على بعد أميال في المنطقة، وفي مهاجع العبيد، وفي ساحات «المنازل الكبيرة» حيث يستمع الأطفال إلى القصص الخرافية، إن تلك البقعة في قلب «بيغ كين» منطقة تسكنها الأشباح. ومضى أكثر من ربع قرن، نادراً ما خرقت فيه أصوات بشرية، إن وجدت، صمت هذا المكان البراح. وعمّت الأعشاب الضارة والفاسدة أرجاء ذلك الحقل الذي كان مزروعاً ذات يوم، واحتلّت الثعابين مدخل الكوخ المهجور؛ كانت تلك صورة كئيبة للخراب بحق.

وبعد أن مررنا بـ «حقل ستّون» اتخذنا طريقاً جديداً مسافة ميلين حتى وصلنا إلى طرفها، وأصبحنا، من ثم، على مشارف الأراضي البرية التي يمتلكها السيد «إلدرت»، وكان يفكر في قطع الأشجار في مساحة منها وإنشاء مزرعة كبيرة. ذهبنا إلى العمل في الصباح نحمل سكاكين قطع القصب، وقمنا بالفعل بتنظيف مساحة تكفي لإقامة

كوخين؛ واحدٍ لـ «مايرز» و«إلدرت» والآخر لي ولـ «سام» والعبيد المزمع انضمامهم إلينا. أصبحنا وسط مجموعة كبيرة من الأشجار الهائلة التي تكاد فروعها الممتدة تحجب ضوء الشمس، بينما كان الحيّز بين جذوع تلك الأشجار مليئاً بكتلة القصب غير المنفذة، وبعض شجيرات النخيل هنا وهناك.

لاحظت أن نباتات الغار والجميز والسنديان والسرو تنمو بشكل لا مثيل له في تلك السهول الخصبة المتاخمة لنهر «رد ريفر». وتتدلى من كل شجرة كُتَل ضخمة من الطحالب تبدو للعين غير المعتادة عليها مشهداً مدهشاً ومتفرّداً. وعلمت أن هذه الطحالب تُرسل بكميات كبيرة إلى الشمال وتُستخدم في أغراض التصنيع.

دأبنا على قطع السنديان وتحويله إلى قضبان بنينا منها تلك الأكواخ المؤقتة، ثم غطينا الأسطح بأوراق النخيل العريضة، وكانت بديلاً ممتازاً عن الألواح الخشبية ما بقيت.

أما أكثر ما كان يزعجني هناك فهو الذباب الصغير والبرغش والبعوض. كانت تنتشر في الهواء، وتخترق الأذن والأنف والعينين والفم. بل كانت تنزلق تحت الجلد، وكان من المستحيل سحقها أو ضربها، حتى بدا لي أنها ستلتهمننا أحياء وتحملنا بعيداً في أجزاء بأفواهها الصغيرة القاسية.

كان من الصعب تخيّل مكان أشد عزلة أو أكثر بشاعة من قلب «بيغ كين بريك»؛ بيد أنها كانت فردوساً بالنسبة إليَّ مقارنة بأي مكان آخر يجمعني والسيد «تيبيتس». اجتهدت جداً في عملي، وكثيراً ما كان يصيبني الضجر والتعب، ولكن كان في وسعي الاستلقاء ليلاً في

سلام والصحو في الصباح بلا خوف.

في غضون أسبوعين، أتت أربع فتيات سود من مزرعة «إلدرت»، «شارلوت» و«فاني» و«كريشيا» و«نيلي». كنّ جميعاً ضخمات وممتلئات. تسلّمن الفؤوس وحملنهن بأيديهن وأُرسلن معي أنا و«سام» لقطع الأشجار. كنّ بارعات في قطع الأخشاب، فكانت أكبر أشجار البلوط أو الجميز تصمد أمامهن فترة وجيزة أمام ضرباتهن الثقيلة التي لا تخطىء مكانها. أما في تكديس الأخشاب فكُنّ في براعة الرجال تماماً. هناك حطّابات وحطّابون في غابات الجنوب تماماً كما كان الرجال. بل إن النساء في «بايو بوف» يؤدين نصيبهن من العمل المطلوب منهن في المزرعة؛ سواء كان حرثاً، أو جرفاً، أو قيادة، أو تسوية للأراضي البرّية، أو العمل على الطرقات، وغير ذلك. بل إن بعض المزارعين من أصحاب مزارع القطن والسكر الضخمة يعتمدون فقط على العبيد من النساء؛ شأن «جيم بيرنز» الذي يعيش على الشاطىء الشمالي للجدول في الجهة المقابلة لمزرعة «جون فوغامان».

عند وصولنا إلى هذا المكان، وعدني «إلدرت» أنه في حال عملت بجد قد يسمح لي بالذهاب لزيارة أصدقائي في مزرعة «فورد» في غضون أربعة أسابيع. وذكّرته بهذا الوعد في مساء يوم السبت من الأسبوع الخامس، فقال إنني قد قمت بعمل جيد ويمكنني الذهاب. وعزمت أن أفعل وقد سعدت جداً بموافقة «إلدرت». وكان عليَّ العودة لبدء العمل مجدداً في صباح يوم الثلاثاء.

بينما كنت منتشياً في انتظار لقائي القريب بأصدقائي القدامى

مجدداً، برز من بيننا «تيبيتس». وكان قد سأل كيف تسير الأمور بين «مايرز» و«بلات»، وعلم أن الأمر بيننا كان على ما يرام، وأن «بلات» سوف يذهب في زيارة إلى مزرعة «فورد» في الصباح.

فقال «تيبيتس» ساخراً: «حقاً! الأمر لا يستحق الحديث عنه، فهذا الزنجي متقلّب المزاج، ولن يذهب».

لكن «إلدرت» أصرّ على أنني قد عملت بجد، وأنه وقد وعدني ولا يليق في ظل هذه الظروف أن يحنث بوعده فيصيبني هذا بالإحباط، ثم افترقنا وقد حلّ الظلام فدخلا إلى أحدالأكواخ ودخلت أنا الآخر. لم أستطع التخلّي عن فكرة الذهاب؛ فأي خيبة أمل كنت سأشعر بها لو فعلت! وقرّرت قبل بزوغ الصبح أن أذهب برغم كل المخاطر إذا لم يعترض «إلدرت». وما إن طلع النهار حتى كنت أمام بابه ومعي بطانيتي ملفوفة في حزمة ومعلقة في عصا فوق كتفي، في انتظار الحصول على التصريح منه. وسرعان ما ظهر «تيبيتس» في إحدى نوباته المزاجية السيئة فغسل وجهه وتوجّه إلى جذع شجرة مقطوع بالقرب منّي وجلس وكأنه شارد يفكر. بعد أن وقفت هناك لفترة طويلة حتى نفد صبري قررت أن أمضي.

صاح فيّ «تيبيتس»: «هل ستذهب من من دون تصريح؟».

أجبته: «نعم يا سيدي، أظنني سأفعل».

فسألني: «وكيف تظن أنك ستصل إلى هناك؟».

وكانت كل إجابتي عن سؤاله أن قلت: «لا أعرف».

فقال وهو يدخل إلى الكوخ: «سوف يُقبض عليك قبل أن تبلغ نصف المسافة، وتُرسل إلى السجن؛ حيث ينبغي أن تكون»، ثم

سرعان ما خرج من الكوخ وفي يده التصريح، وقال وهو يلقي به على الأرض: «زنجي ملعون؛ تستحق مئات الجلدات». التقطت التصريح وهرولت مسرعاً.

كان العبد الذي يُقبض عليه خارج مزرعة سيدة من من دون تصريح عرضة بالفعل للإمساك به وجلده من قِبل أي رجل أبيض يصادفه. وكان التصريح الذي أخذته مؤرخاً ونصّه كما يلي:

«مُصرح لـ «بلات» الذهاب إلى مزرعة «فورد» على «بايو بوف»،
والعودة في صباح يوم الثلاثاء.
جون إم تيبيتس»

هذا هو النموذج المعتاد. وبالفعل طلبه مني واطلع عليه كثيرون في أثناء رحلتي حتى أتمكّن من المرور. أما هؤلاء الذين يدلّ مظهرهم وسلوكهم على أنهم من السادة المحترمين، والذين تشي ثيابهم عن ثرواتهم، فلم يلتفتوا لي على الإطلاق؛ إلا رجل رثّ الثياب لا يُعتدُ به ويمكن اعتباره متسكعاً، لم يتوقف أبداً عن تحيتي، بل فحصي والتدقيق فيّ بانتباه شديد. فأحياناً ما يكون الإمساك بالهاربين عملاً يجني الكثير من المال. فإذا لم يظهر أصحابهم بعد الإعلان عنهم يمكن بيعهم بأعلى سعر، ويحصل من يجدهم على أجر معين نظير خدماته في كل الأحوال، سواء أُعيد الهارب إلى صاحبه، أو اشتراه صاحب جديد. فكان «الوغد الأبيض»- وهو وصف كان يليق بهذا المتسكع- يجد فرصة ذهبية في ملاقاة زنجي غير معروف ولا يحمل تصريحاً.

لم تكن هناك فنادق صغيرة على طول الطرق السريعة في هذا الجزء من الولاية الذي كنت أسافر فيه. كنت مفلساً تماماً، كما لم أكن أحمل أي زاد للرحلة من «بيغ كين» إلى «بايو بوف»؛ ولكن بتصريح مثل هذا الذي أحمله، لم يكن من المفترض للعبد أن يعاني من الجوع أو العطش، فكان يكفي تقديمه لمالك أو مشرف أي مزرعة ويطلب ما يريد فيُرسل إلى المطبخ ويحصل على الطعام والمأوى، حسبما تقتضي حالته. فللمسافر أن يقف أمام أي منزل ويطلب الطعام بحرية كما لو كان في حانة عامة. كانت تلك هي الأعراف العامة في هذه البلدة. وأياً كانت أخطاؤهم فلا شك أن الحياة على طول «رد ريفر» وحول الجداول في الأجزاء الداخلية من «لويزيانا» لم يكن ينقصها كرم الضيافة.

وصلت إلى مزرعة «فورد» مع انقضاء فترة بعد الظهيرة، ومررت بكوخ «إليزا» مع «لاوسون» و«راشيل» وغيرهم من معارفي. عندما تركنا «واشنطن»، كانت «إليزا» ملفوفة وممتلئة القوام، وكانت تقف في ثيابها الحريرية وجواهرها وكأنها صورة للقوة والرشاقة والأناقة. ولكنها غدت الآن مجرد ظل باهت لما كانت عليه. بدا وجهها شبحياً منهكاً، وانحنى القوام الذي كان ذات يوم منتصباً ونشيطاً، كما لو أنها كانت تحمل مائة عام فوق ظهرها. كانت «إليزا» رابضة فوق الأرضية، وترتدي أسمال العبيد الخشنة، ولم يكن «إليشا بيري» العجوز ليتعرف على أم ابنته. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأيتها فيها. ولما أصبحت غير ذات نفع في حقل القطن جرت المقايضة بها في مقابل زهيد لرجل يعيش في منطقة «بيتر كومبتون». كان الحزن

يفتك بقلبها بلا هوادة حتى خارت قواها؛ مما دفع سيدها الأخير إلى جلدها والإساءة إليها بلا رحمة. إلا أنه لم يستطع جلد شبابها النابض الذي غادرها، ولا أن يعيد إلى جسدها استقامته حين كان طفلاها من حولها ونور الحرية يضيء طريقها.

علمت تفاصيل رحيلها عن هذا العالم من أحد عبيد «كومبتون» الذي أتى عبر «رد ريفر» إلى الجدول لمساعدة السيدة «تانر» الصغيرة في أثناء «موسم الانشغال». وقالوا إنها أصبحت في النهاية عاجزة تماماً، ورقدت عدة أسابيع فوق الأرضية في كوخ في فيلادلفيا تعتمد على رحمة زميلاتها في العبودية كي يسقينها شربة ماء ويهبنها لقمة طعام. ولم يعمد سيدها إلى «ضربها على رأسها» كما يفعلون أحياناً لإنهاء معاناة الحيوانات، ولكنه تركها من من دون رعاية ولا حماية على الإطلاق؛ كي تمضي في حياة من الألم والبؤس حتى تنتهي حياتها من تلقاء نفسها. وعندما عادوا من الحقل ذات ليلة وجدوها وقد فارقت الحياة! ففي ذاك اليوم دخل ملاك الرب، الذي يتحرك غير مرئي فوق الأرض ليجمع حصاده من الأرواح المغادرة، دخل الكوخ في صمت لتلك المرأة المحتضرة وأخذها من هناك. أخيراً أصبحت حرة!

في اليوم التالي، حزمت بطانيتي وشرعت عائداً إلى «بيغ كين». وبعد سفر خمسة أميال في مكان يُدعى «هاف باور»، قابلني على الطريق «تيبيتس» الحاضر أبداً، وسألني عن سرّ عودتي بهذه السرعة، قلت له إنني أخشى أن أتأخر عن الموعد المحدّد لي، فقال إنه يكفي أن أصل إلى المزرعة التالية حيث باعني ذاك اليوم لـ «إدوين إبس». ومشينا عبر الفناء حيث قابلنا هذا المالك الجديد، وراح يتفحصني

ويسألني الأسئلة المعتادة التي عادة ما يوجهها المشترون. وعندما انتهى أُمرت بالدخول إلى المنزل، وأن أصنع لنفسي مجرفة ومقبض فأس.

لم أعد الآن ملكاً لـ «تيبيتس»؛ لم أعد كلبه، ولا بهيمته، ولم أعد أخشى غضبه ولا ثورته ولا بطشه ليل نهار. وأياً كان سيدي الجديد أو أياً كان طبعه، فلم أكن لأشعر بالأسف على الانتقال إليه بأي حال. ولذا كانت تلك أخباراً سعيدة بالنسبة إليَّ حين تمت عملية البيع، فتنفّست الصعداء وجلست مرتاحاً في مكان إقامتي الجديد لأول مرة.

سرعان ما اختفى «تيبيتس» من هذا الجزء من الريف، ولم أرَه إلا مرة واحدة خاطفة بعد ذلك، وكان هذا على بُعد أميال من «بايو بوف». كان يجلس عند مدخل حانة رديئة، فيما كنت أمر ضمن مجموعة من العبيد عبر أبرشية القديسة ماري.

الفصل الثاني عشر

كان «إدوين إبس»، الذي سنتحدث عنه كثيراً في ما تبقى من هذا السرد، رجلاً ضخم الجثة، سميناً وممتلئاً، خفيف الشعر، بوجنتين عاليتين، وأنف روماني ذي أبعاد استثنائية. كان ذا عينين زرقاوين، وبشرة فاتحة اللون، وأظن أن طول قامته كان ست أقدام كاملة. أما تعبير وجهه فكان حاداً وفضولياً كفارس، وسلوكياته فظّة ومنفّرة، وفي لغته دليل واضح وإشارة دامغة على أنه لم ينل أبداً أي قسط من التعليم. كان لديه القدرة على التفوّه بأشدّ الأشياء استفزازاً، بل إنه يتفوّق في ذلك على «بيتر تانر». في ذاك الوقت حين أصبحتُ ملك «إدوين إبس»، كان مغرماً بقنّينة الشراب حتى إنه كان يثمل أحياناً لفترة تتجاوز أسبوعين كاملين. بيد أنه أصلح من عاداته مؤخراً، وعندما غادرته كان رجلاً صارماً في اعتدال شأن الرجال في «بايو بوف». وعندما كان السيد «إبس» ينغمس في كأسه كان يغدو صاخباً، وغاضباً، ومثيراً للضجيج، ويجد قمّة استمتاعه بالرقص مع عبيده من «الزنوج» أو ضربهم بسوطه الطويل في الساحة فقط للاستمتاع بصياحهم وصراخهم بينما الضربات تترك أثرها على ظهورهم. ومتى أفاق من ثمالته، كان يظل صامتاً ومتحفظاً وخبيثاً، ولا يضربنا من من دون سبب كما يفعل في لحظات ذهاب عقله، ولكنه يرسل طرف

سوطه لمنطقة حساسة لدى أي عبد متكاسل ببراعة خبيثة تميّز بها.

عمِل سائقاً ومشرفاً في سنوات شبابه الأولى قبل أن يصبح مالكاً لمزرعة في «بايو بوف باور» على مسافة نصف كيلومتر من «هولمزفيل»، وثمانية عشر كيلومتراً من «ماركسفيل»، وعشرين كيلومتراً من «تشينيفيل». كان يمتلكها «جوزيف بي روبرتس»، وهو عم زوجته، واستأجرها منه «إبس». أما عمله الرئيس فكان زراعة القطن، وبقدر ما أن بعض قرّاء هذا الكتاب لم يروا مطلقاً حقل قطن، فإن وصف ثقافته قد لا تكون غير ذات صلة هنا.

كانت الأرض معدّة بإقامة أحواض الزراعة أو الأثلام بالمحراث، أي التثليم الخلفي. كانوا يستخدمون الثيران والبغال في الحرث، خاصة البغال. وكثيراً ما كانت النساء تؤدّين هذا العمل شأن الرجال، فكنّ يبذرن مجموعات الأخاديد الخاصة بهم، ويمشّطونها، ويعتنين بها، ويقمن بأعمال الحقل والإسطبل كافة، تماماً كما يفعل فِتيان الحرث في الشمال.

كانت أحواض الزراعة أو الأثلام بعرض ست أقدام، أي بين أخدود الماء والآخر. وكان المحراث يجره البغل يسير من أعلى الثلم أو مركزه فيصنع فيه أخاديد صغيرة تُسقِط فيها الفتاة البذور التي تحملها في حقيبة معلّقة حول عنقها. ومن خلفها يسير بغل وآلة لتسوية الأرض لتغطية البذور. ومن ثم يكون هناك بغلان وثلاثة من العبيد ومحراث وآلة لتسوية الأرض للعمل في زرع صفّ من القطن في شهري مارس وأبريل. أما القمح فيُزرع في شهر فبراير. ومتى انقطعت الأمطار الباردة يُزهر القطن في أسبوع واحد. وفي غضون

ثمانية أو عشرة أيام بعد ذلك يبدأ عزق الأرض، وهو ما يتم كذلك، جزئياً، بمساعدة المحراث والبغل، فيمر المحراث كأقرب ما يكون من القطن على الجانبين فيفرغ منه الأخاديد. ويتبع العبيد الجرّافات فيقطعون العشب والقطن تاركين مسافة قدمين ونصف بين التلال. ويُطلق على هذه العملية كشط القطن. وفي أسبوعين آخرين، يبدأ العزق الثاني حيث يُدفع بالأخاديد نحو القطن. وتُترك فقط أكبر السيقان منتصبة؛ حيث يتم عزقها للمرة الثالثة بعد أسبوعين آخرين مع دفع الأخاديد صوب القطن شأن المرة الثانية، مع نزع العشب بين الصفوف. وبحلول منتصف شهر يوليو، وعندما يصل ارتفاعها إلى قدم أو نحوها، يتم عزق الأرض للمرة الرابعة والأخيرة، ثم تُحرث المساحة الكاملة بين الصفوف فتُصنع أخاديد المياه في الوسط. وفي أثناء عمليات العزق تلك، يتبع المشرف أو السائق العبيد على ظهر الخيل ممسكاً سوطه كما وصفتُ مسبقاً، وتكون قيادة الصف لأسرع من يقوم بالعزق، وعادة ما يسبق زملاءه بمسافة ذراع واحدة، ويُجلد بالسوط إذا ما سبقه أي منهم. كما يُجلد كل من يتأخّر أو يتوقّف عن العمل للحظة. والحق أن السوط لا يسكن أبداً طوال اليوم؛ من الصباح وحتى الليل. ويستمر موسم العزق هذا من شهر أبريل وحتى شهر يوليو، فما إن يفرغ الحقل من عملية عزق حتى تبدأ الأخرى.

وفي الجزء الأخير من شهر أغسطس، يحلّ موسم حصاد القطن. وفي تلك الفترة، يحمل كل من العبيد كيساً مُثبتاً به حزام لربطه به وحمله حول العنق، فيحمل العبد فوهة الكيس على مستوى صدره

بينما يصل القاع إلى الأرض تقريباً. كما يُقدّم لكل منهم سلّة كبيرة تحمل قرابة البرميلين كي يوضع فيهما القطن فور أن يمتلىء الكيس. وتُحمل البراميل إلى الحقل وتوضع في مقدمة الصفوف.

إذا كان بين العبيد عبد جديد غير معتاد على هذا العمل فإنه يُجلد كثيراً طوال اليوم حتى يجمع القطن بأسرع ما يمكن، ثم يوزن في الليل لمعرفة قدرته على جمع القطن، ومن ثم يتعين عليه جمع الوزن نفسه في كل يوم بعد ذلك، وأي نقص عن تلك الكمية يعتبر دليلاً على أنه قد تكاسل، ومن ثم يستحق أن يُعاقب بعدد أكبر أو أقل من الجلدات.

يسفر يوم العمل العادي عن مائتي رطل، والعبد المعتاد على الجمع يُعاقب إذا جمع كمية أقل من ذلك. وهناك فروق كبيرة بين العبيد فيما يتعلق بهذا النوع من العمل. فيبدو بعضهم وكأن لديهم موهبة طبيعية، أو سرعة تمكّنهم من الجمع بسرعة كبيرة وباليدين معاً، بينما هناك آخرون لا يستطيعون أبداً تحقيق المعيار القياسي أياً كانت الممارسة أو الجهد الذي يبذلونه. وهذه هي الأيدي التي تؤخذ من حقل القطن ويتم توظيفها في أي عمل آخر. كانت «باتسي»، وسوف أتحدث عنها كثيراً، تُعرف بأنها الأفضل بين جامعي القطن في «بايو بوف». كانت تجمع بكلتا يديها وبسرعة مذهلة، حتى إن خمسمائة رطل في اليوم لم يكن رقماً غير معتاد بالنسبة إليها.

ومن ثم، كانت المهام توكل إلى كل فرد وفق قدراته في الجمع، بيد أن مائتي رطل كانت الحدّ الأدنى في كل الأحوال. لم أكن من المهرة في هذا الشأن، فكنتُ أرضي سيدي بجمع هذا الحدّ الأدنى، بينما كانت

«باتسي» تُضرب إذا لم تجمع ضعفه.

وينمو القطن بطول خمس إلى سبع أقدام، ولكل ساق الكثير من الفروع التي تبرز في كل الاتجاهات، وتلتف حول بعضها بعضاً فوق أخدود المياه.

ربما ليس هناك أجمل من مشهد حقل القطن حين يُزهر؛ فيبدو مثالاً للنقاء وكأنه مساحة طاهرة من الضوء، أو الثلج الذي سقط لتوّه فوق الأرض.

في بعض الأحيان يجمع العبد القطن من أحد جانبي الصف ثم يعود ليجمع الجانب الآخر، ولكن من المعتاد أن يكون هناك عبد على كل جانب يجمع القطن المتفتّح، تاركاً اللوزات غير المفتوحة لقطاف لاحق. وعندما يمتلىء الكيس يُفرغ في السلة ويُكبس. وعلى العبد أن يكون بالغ الحرص في المرة الأولى لخوضه الحقل حتى لا يكسر فروع السوق؛ فالقطن لا يزهر من الفروع المكسورة. ولم يقصّر «إبس» أبداً في إلحاق أشد العقاب بالخادم تعيس الحظ الذي يرتكب أدنى ذنب في هذا الصدد، سواء بإهمال منه أو رغماً عنه.

يبدأ عمل العبيد في حقل القطن فور أن يبزغ الصباح، وباستثناء فترة العشر أو خمس عشرة دقيقة التي يحصلون عليها في الظهيرة لالتهام حصتهم من لحم الخنزير المقدّد البارد، لا يُسمح لهم بلحظة سكون حتى يحين الظلام ويغدو من الصعب عليهم الرؤية تماماً. وفي الليالي التي يكتمل فيها القمر يستمر العمل حتى منتصف الليل، ولا يجرؤون على التوقّف حتى لتناول العشاء أو الرجوع إلى المسكن مهما تأخر الوقت حتى يأتيهم أمر المشرف بذلك.

بانتهاء يوم العمل في الحقل، تُحمل السلال إلى المِحلج لوزنها. ومهما بلغت درجة تعب العبد وإنهاكه، وبغض النظر عن توقه إلى النوم والراحة، فإنه لا يقترب البتة من المِحلج قط بسلّته الممتلئة بالقطن من من دون خوف. فإن لم تكن بالوزن المطلوب ولم ينجز المهمة الموكلة إليه بالكامل، يعرف المعاناة التي تنتظره. وإذا زاد عليه بعشرة أو عشرين رطلاً فمن المحتمل أن يقيس سيده إنجازه في اليوم التالي وفق هذا الرقم الجديد. ومن ثم، سواء كان ما حقّقه أقل أو أكثر مما يجب، كان اقتراب العبد من المِحلج مصدر خوف وارتعاد. ولأنهم غالباً ما يكون لديهم أقل مما يجب فإنهم لا يتوقون كثيراً إلى مغادرة الحقل. بعد الوزن والجلد الذي يعقبه، تُحمل السلال إلى مخزن القطن ويتم تخزين محتوياتها مثل القش، ويُرسل الجميع لكبسها. إذا لم يكن القطن جافاً ينشر على منصّات يبلغ ارتفاعها قدمين وعرضها ست أقدام بدلاً من أخذه إلى المِحلج، ويُغطّى بالألواح الخشبية مع ترك ممرات ضيقة للمشي بينها.

بعد الانتهاء من ذلك، لا يكون عمل العبيد قد انتهى بأي حال من الأحوال. فيذهب كل منهم إلى عمله الأساسي. فهناك من يُطعِم البِغال، وهناك من يُطعم الخنازير، وآخر يقطع الأخشاب، وهكذا؛ فضلاً عن أعمال التوضيب التي تتم بالكامل على ضوء الشموع. وأخيراً، في ساعة متأخرة، يصل الجميع إلى المسكن، نعسين ومنهكين جرّاء كدحهم طوال اليوم. ثم ينبغي إشعال نار داخل الغرفة لإعداد غداء وعشاء اليوم التالي الذي يتناولونه في الحقل من الذرة المطحونة في الطاحونة اليدوية الصغيرة. فكل ما يُسمح لهم به هو الذرة ولحم

الخنزير المقدّد الذي يُقدّم لهم في مخزن تجفيف الذرة ومبنى تدخين اللحم صباح كل أحد. يحصل كل منهم على حصّته الأسبوعية التي تتألف من ثلاثة أرطال ونصف رطل من لحم الخنزير المقدّد، وقدر من الذرة يكفيهم لصنع وجبة يسيرة. هذا هو كل شيء؛ بلا شاي ولا قهوة ولا سكر، باستثناء قدر هزيل جداً يحصلون عليه من وقت لآخر. أما الملح فلا يحصلون عليه على الإطلاق. وبعد عشرة أعوام قضيتها في منزل السيد «إبس»، يمكنني القول إن أياً من العبيد لديه لم يعاني أبداً من النقرس المصاحب لترف العيش. أما خنازير السيد «إبس» فكانت تتغذّى على حبوب الذرة- بينما كانت السنابل تعطى «للزنوج». كان يرى أن حبوب الذرة تجعلها تسمن بسرعة إذا ما تم غمسها في الماء، بينما قد يسمن الزنوج ويصبحون غير قادرين على العمل إذا ما تناولوها بالطريقة ذاتها. كان السيد «إبس» خبيثاً في حساباته، وكان يعرف كيف يدير حيواناته، سواء كان ثملاً أو واعياً.

كانت طاحونة الذرة تقع في الفناء تحت مظلة. وهي تشبه طاحونة البنّ التقليدية، وكان القادوس يحمل غالوناً ونصفاً. وكانت هناك ميزة واحدة يسمح بها السيد «إبس» لكل العبيد بحرية؛ فكان بإمكانهم طحن الذرة الخاصة بهم ليلاً بكميات صغيرة بقدر احتياجهم اليومي، أو طحن حصتهم الأسبوعية كلها مرة واحدة في أيام الأحد، بحسب تفضيلهم. كم كان كريماً السيد «إبس»!

كنت أحتفظ بالذرة الخاصة بي في صندوق خشبي، والوجبة في ثمرة يقطين؛ وبالمناسبة، ثمار اليقطين من الأواني الأكثر ملاءمة والضرورية في المزارع. فإلى جانب تزويد المكان بأنواع الأواني

الفخارية كافة في أكواخ العبيد، تستخدم ثمار اليقطين في حمل المياه إلى الحقول. وكنت أحمل طعام العشاء في ثمرة أخرى. ولذا كانت بشكل أساسي تحل محل الدلاء، والمغارف، والأحواض، وكل تلك الأشياء الإضافية التي عادة ما تُصنع من القصدير والخشب.

بعد طحن الذرة وإشعال النار، يتم إنزال لحم الخنزير من الخطّاف المعلّق عليه وتُقطع منه شريحة وتوضع على الفحم لشيّها. لم تكن لدى الكثير من العبيد سكين، وعدد أقل كان لديهم شوكة، فكانوا يقطعون اللحم بالفأس على ركيزة خشبية. وتُمزج وجبة الذرة بالقليل من الماء وتوضع في النار حتى يتم خبزها. وعندما تُطهى ويتحوّل لونها إلى «اللون البني»، يتم كشط الرماد وتتحوّل الرقاقة الموضوعة فوقها إلى منضدة يلتف حولها العبيد بالفعل لتناول طعام العشاء، وغالباً ما يكون منتصف الليل قد حلّ. ويتملّكهم الخوف نفسه من العقاب الذي يحدوهم مع الاقتراب من المِحلج، ثانية عندما يستلقون لينالوا قسطاً من النوم. إنه الخوف من الإفراط في النوم في الصباح، فتلك خطيئة تستوجب عشرين جلدة على الأقل. وهكذا يغطّون في النوم كل ليلة وهم يصلّون كي ينهضوا ويقفوا على أقدامهم يقظين مع أول إطلاق للنفير.

وبالطبع لن تجد في مساكن العبيد الأرائك الأكثر نعومة في العالم؛ فتلك التي كنت أتكىء عليها عاماً بعد آخر كانت عبارة عن لوح بعرض اثنتي عشرة بوصة ولا يتجاوز طولها عشر أقدام. أما وسادتني فكانت قطعة من الخشب، والفراش بطانية خشنة فحسب، من من دون أي قطعة قماش إضافية. كان بإمكاننا استخدام الطحالب لولا

أنها تتسبّب مباشرة في تكاثر البراغيث.

كانت الأكواخ تُبنى من قطع الأخشاب، من من دون أرضية ولا نوافذ، لا سيّما أن هذه الأخيرة كانت بلا داعي على الإطلاق حيث الفراغات بين قطع الأخشاب تسمح بقدر كافٍ من الضوء. أما في الطقس العاصف فكانت الأمطار تنفذ من بينها ويغدو المكان غير مريح بالمرة وكريه للغاية، بينما الباب البدائي معلّق على مفاصل خشبية ضخمة. وفي أحد الأركان مدفأة خرقاء.

يُطلق النفير قبل أن يبزغ ضوء الصباح بساعة كاملة، فينهض العبيد، ويعدّون طعام إفطارهم، ويملؤون ثمار اليقطين بالمياه، ويضعون عشاءهم من لحم الخنزير وكعك الذرة في وعاء آخر، ثم يسرعون إلى الحقل مجدداً. وكان البقاء في السكن بعد الشروق جريمة تستدعي الجلد دائماً. بعد ذلك يبدأ الخوف والعمل ليوم جديد، ولا مجال للراحة حتى ينتهي. فالعبد يخاف أن يتكاسل برهة فيرونه، ويخاف أن يقترب من المِحلج بحمولة القطن في سلّته ليلاً، ويخاف حين ينام ليلاً من أن يفيق متأخراً في الصباح. تلك هي الصورة الحقيقية، والمخلصة بلا مبالغة، والوصف الدقيق للحياة اليومية للعبد في أثناء موسم حصاد القطن، على شواطىء «بايو بوف».

وفي شهر يناير بشكل عام، يتم الانتهاء من الحصاد الرابع والأخير، ثم يبدأ موسم حصاد الذرة. وهي تعتبر حصاداً في المرتبة الثانية وتلقى اهتماماً أقل من حصاد القطن. تُزرع في شهر فبراير كما ذكرت من قبل. وتستخدم في هذه المنطقة لأغراض تسمين الخنازير وإطعام العبيد، والقليل منها يباع في السوق، إذا بيع. وهي من النوع الأبيض،

حيث السنابل كبيرة الحجم، وترتفع سيقانها حتى ثماني أقدام وعشر أقدام في كثير من الأحيان. في شهر أغسطس تُقطع الأوراق وتُجفّف في الشمس، ثم تُجمع في حُزم صغيرة وتُخزّن بعيداً كعلف للبغال والثيران. وبعد ذلك يمضي العبيد في الحقل لإنزال سيقان السنابل فوق الأرض لحماية الحبوب من أن تصل إليها الأمطار. ويُترك الحقل على هذا النحو لحين الانتهاء من جمع القطن، سواء كان سابقاً على هذا أو لاحقاً. ثم يتم فصل السنابل عن السيقان وتخزينها في مخزن تجفيف الذرة مع الاحتفاظ بقشرتها، فإزالة القشرة تجعلها عرضة للسوس الذي قد يدمّرها تماماً، وتُترك السيقان منتصبة في الحقول.

تُزرع الكارولينا، أو البطاطا الحلوة، في تلك المنطقة إلى حدّ ما، ولكنها لا تستخدم في إطعام الخنازير أو الماشية، وهي ليست ذات أهمية. ويتم الاحتفاظ بها بتركها فوق الأرض يغطيها القليل من التراب أو ساق الذرة. فالمزارع في «بايو بوف» تفتقر إلى الأقبية، والأرض منخفضة جداً بحيث تمتلئ بالمياه. لا تتجاوز قيمة هذه البطاطا الحلوة بضعة شلنات للبرميل، ويمكن شراء الذرة بالسعر نفسه إلا في حالات ندرتها غير المعتادة.

فور تأمين محصول القطن والذرة، يتم نزع السيقان ورميها في أكوام وحرقها. وفي الوقت ذاته تبدأ أعمال الحرث، وتُصنع الأخاديد مجدداً استعداداً لزرع جديد. والتربة في أبرشيتي «رابيدس» و«أفويليس»، وعبر الريف بأكمله غنية وخصبة للغاية وفقاً لملاحظتي، ولا تتطلب إضافة هذه الأسمدة المقويّة الضرورية للأراضي القاحلة، ويمكن زرع المحصول نفسه في الحقل ذاته عدة سنوات متتالية.

وهكذا فإن أعمال الحرث، والغرس، والقطف، وحصاد الذرة، واجتثاث السيقان وحرقها، تستغرق مواسم العام الأربعة، بينما قطع الأخشاب، وكبس القطن، وتسمين وقتل الخنازير، كلها أعمال عَرَضيّة.

في شهر سبتمبر أو أكتوبر، تُخرج الكلاب الخنازير من المستنقعات وتُحبس في الحظائر. ويتم ذبحها في صباح أحد الأيام الباردة قبيل عشية العام الجديد، فيقطّع كل منها إلى ستة أجزاء وتوضع في كومة بعضها على بعض ويضاف إليها الملح فوق مناضد ضخمة في مبنى التدخين. وتظل في هذا الوضع لمدة أسبوعين ثم تعلّق، وتوقد من أسفلها النار وتظل أكثر من نصف الفترة في أثناء بقية العام. ويلزم هذا التدخين الشامل لمنع تسلّل الديدان إلى اللحم. ففي مثل هذا الطقس الدافىء يصعب الحفاظ على اللحم، وكثيراً ما حصلت أنا وزملائي على ثلاثة أرطال ونصف الرطل من اللحم المليء بالديدان المقززة.

على الرغم من اجتياح الماشية للمستنقعات، فإنها لا تعتبر أبداً مصدراً للربح بأي قدر كبير. وكان المزارع يضع بصمته على أذن الماشية، أو حروف اسمه الأولى على جانبها، ثم يطلقها في المستنقعات كي ترعى بلا قيود داخل منطقة تكاد تكون غير محدودة. وهي من السلالة الإسبانية بحجمها الصغير وقرونها. وقد سمعتُ عن قُطعان تؤخذ من «بايو بوف»، إلا أن ذلك نادراً ما يحدث، ولا تتجاوز قيمة أفضل الأبقار خمسة دولارات للبقرة الواحدة. وإذا أنتجت إحداها أربعة لترات من الحليب كان هذا يعد كمية كبيرة على غير المعتاد.

كما أنها توفّر القليل من الشحم الطريّ ذي الجودة المتدنية. وبصرف النظر عن الأعداد الكبيرة للأبقار التي ترعى في المستنقعات، يدين المزارعون للشمال فيما يحصلون عليه من الجبن والزبد الذي يشترونه من سوق «نيو أورليانز». كما أن لحم البقر المملّح لا يعتبر من مكوّنات الطعام في المنزل الكبير ولا في الأكواخ.

كان السيد «إبس» معتاداً على حضور مباريات الصيد لأغراض الحصول على اللحم الطازج الذي يحتاج إليه. وكانت هذه الرياضة تُقام أسبوعياً في قرية «هولمزفيل»المجاورة؛ حيث يتم صيد الثيران السمينة هناك وقنصها في مقابل سعر متفق عليه في نظير هذا العمل. ويقوم الصيّاد سعيد الحظ الذي يُحسن قنص أهدافه بتقسيم صيده بين زملائه؛ ومن ثم يحصل المزارعون المشاركون على حصتهم.

يبدو أن الأعداد الضخمة من الماشية الداجنة وغير الداجنة التي ترعى في الغابات والمستنقعات في «بايو بوف» هي الأرجح وراء تسميته الفرنسية تلك، بقدر أن المصطلح- عند ترجمته- يشير إلى جدول أو نهر الثور البرّي.

أما منتجات الحديقة؛ مثل الكرنب واللفت وما شابه، فتُزرع لاستخدام السيد وأسرته. فهم يزرعون الخُضَر والخضراوات على مدار مواسم العام. «فالعشب يذبل وتذوي الزهور» قبل أن تهب رياح الخريف على المدارات الشمالية الباردة، ولكن الخضرة الدائمة تكسو الأراضي المنخفضة الحارة، وتتفتح الزهور في قلب الشتاء، في منطقة «بايو بوف».

لا توجد مروج مخصصة لزراعة الأعشاب. فأوراق الذرة توفّر

الطعام الكافي للماشية التي تُستخدم في العمل، بينما الماشية الأخرى تحصل على الطعام بنفسها طوال العام في المراعي المزدهرة على الدوام.

هناك العديد من خصائص المناخ، وتفاصيل العادات، والتقاليد، وطريقة العيش والعمل في الجنوب، ولكن أعتقد أن ما تقدّم يُفترض أنه يعطي القارىء رؤية وفكرة عامة عن مزارع القطن في «لويزيانا». وسوف أذكر طريقة زراعة قصب السكر واستخراج السكر منه في مكان آخر.

الفصل الثالث عشر

عند وصولي إلى مزرعة السيد «إبس»، وطاعة لأمره، كان العمل الأول الذي قمت به هو صناعة مقابض الفؤوس. والمقابض المستخدمة هناك هي ببساطة عبارة عن عصا مستقيمة ومستديرة، بينما صنعت أنا مقبضاً ملتوياً يشبه ذاك الذي كنت معتاداً على استخدامه في الشمال. وعندما انتهيت منه وقدّمته إلى «إبس» نظر إليه مندهشاً غير قادر على تحديد ماهيته، فلم يسبق له أن رأى مقبضاً كهذا. وعندما شرحتُ له سهولة استخدامه أدهشته حداثة الفكرة حتى إنه احتفظ به في منزله لفترة طويلة، واعتاد أن يعرضه على أصدقائه حين يزورونه باعتباره تحفة نادرة.

ثم حلّ موسم العزق وأُرسِلتُ إلى حقل الذرة ثم إلى قطف القطن. وظللتُ أؤدي هذا العمل حتى أوشك موسم العزق على الانقضاء وبدأت تظهر عليّ أعراض الإصابة بالمرض. هاجمتني نوبات القشعريرة التي تعقبها حُمّى شديدة، وأصبحتُ ضعيفاً وهزيلاً وأصاب بالدوار بشكل متكرر فأضطرب وأترنح كرجل ثمل. ومع ذلك كنت مجبراً على متابعة العمل على صف القطن المخصص لي، حتى انتقلتُ من صعوبة اللحاق بزملائي في العمل إلى استحالة العمل على الإطلاق، وكنت أظل متأخراً في أغلب الأحوال فتُلهب

ظهري سياط المشرف منفثة بعض الطاقة المؤقّتة في جسدي المريض المتساقط. وظلّت حالتي تتأخر حتى باتت السياط غير فعّالة على الإطلاق ولم تعد أشد لدغات السياط تحثّني على المُضيّ. وأخيراً، في شهر سبتمبر، عندما كان موسم قطف القطن في أوج نشاطه، لم أستطع ترك الكوخ. ولم أكن حتى تلك اللحظة قد تلقّيت أي علاج ولا رعاية من سيدي أو سيدتي. كان الطاهي العجوز يعودني من وقت لآخر ويجلب لي القهوة والكعك، وأحياناً ما كان يطهو لي بعضاً من لحم الخنزير في تلك الأوقات التي بلغ بي الوهن مبلغه ولم أعد أقوى على إعداده لنفسي.

وعندما قيل إنني أحتضر، لم يرغب السيد «إبس» في تحمّل هذه الخسارة، التي يمكن أن يتسبب فيها موت حيوان قيمته ألف دولار، وقرّر أن يتكبّد نفقات استدعاء الطبيب «واينز» من «هولمزفيل». أخبر الطبيب «إبس» أن مرضي كان نتيجة للطقس وأن احتمال موتي قائم بالفعل. ونصحني بألا أتناول اللحم، وأن يقتصر طعامي على ما يسد الرمق ويبقيني على قيد الحياة فحسب. وبعد عدة أسابيع من اتباع هذا النظام الغذائي القاسي الذي أُخضعت له، تماثلت للشفاء جزئياً. وذات صباح، قبل أن أصبح في حالة مناسبة للعمل، وقف «إبس» على باب الكوخ وهو يحمل حقيبة في يده وأمرني بالذهاب إلى حقل القطن. ولم أكن على دراية بقطف القطن آنذاك، وكان عملاً مربكاً بحق. وبينما كان الآخرون يعملون بكلتا اليدين فيقطفون القطن ويدسّونه في الحقيبة بمنتهى الدقة والبراعة بشكل لم أستطع استيعابه، كنت أنا أمسك بالنبتة بيد وأنزع منها الزهرة البيضاء باليد الأخرى.

كما أن دسّ القطن في الحقيبة، كان عملاً صعباً استلزم العمل باليدين والعينين، وكنت مضطراً لالتقاطه من الأرض كلما سقط، ربما بعدد مرات قطفه من الساق التي ينمو عليها. كما أحدثتُ فوضى في الفروع المُحمّلة باللوزات التي لم تتفتّح بعد، وكانت الحقيبة الطويلة والمُعيقة تتأرجح من جانب لآخر على نحو غير مسموح به في حقل القطن. وفي نهاية يوم العمل الأشد مشقة وصلتُ بحِملي إلى المِحلج، ولم يتجاوز الخمسة والتسعين رطلاً، أي نصف الكمية التي تلزم من أكثر القاطفين كسلاً، وهدّد «إبس» بإنزال أشد العقاب بي، ولكن نظراً إلى أنني «حديث العهد» بهذا العمل، قرّر أن يعفو عني في هذه المرة. ولكن في اليوم التالي، وفي الأيام الكثيرة التي أعقبته، لم أكن أحرز أي تقدم بحلول الليل، وبات جلياً أنني لا أصلح لهذا العمل. لم أكن أتمتع بالمهارة اللازمة لذلك؛ تلك الأصابع الحاذقة والماهرة والسريعة التي تتمتع بها «باتسي» التي يمكنها التحليق إلى جانب صف القطن فتنزع عنه البياض الناصع الناعم بسرعة عجيبة. ومن ثم كان التدريب والجلد غير مُجديين بالنسبة إليَّ، وعندما أدرك «إبس» ذلك أخيراً، ونعتني بأنني وصمة عار لأنني لا أتناسب مع مجتمع قاطفي القطن من «الزنوج»، وبأنني لن أجمع أبداً القدر المطلوب في أي يوم حتى بما يعوّض عناء وزنه، قرّر أنني لن أذهب إلى حقل القطن مجدداً، وتحوّلتُ للعمل في تقطيع الأخشاب ونقلها، وسحب القطن من الحقل إلى المحلج، والقيام بأي أعمال أخرى قد تلزم. يكفي القول إنه لم يكن مسموحاً لي بالبقاء ساكناً ولو للحظة.

نادراً ما كان يمرّ يوم من من دون واقعة جلد أو اثنتين، لا سيّما

في وقت وزن القطن. فكان المقصّر الذي لا يصل حِمله إلى الوزن المطلوب، يؤخذ ويُجرّد من ملابسه ويُلقى على وجهه ثم يتلقّى عقابه بالتناسب مع قدر تقصيره. والحقيقة الحرفية المجردة هي أن فرقعة السوط وصراخ العبيد يمكن أن يُسمع من هبوط الظلام حتى موعد النوم في مزرعة «إبس»، في أي يوم في أثناء موسم جمع القطن.

يزداد عدد الجلدات تدريجياً وفق طبيعة الحالة. على سبيل المثال، كانت الخمس والعشرون جلدة مجرد عقاب بسيط يلحق بالعبد إذا وُجدت في حمولته ورقة جافة أو لوزة قطن، أو إذا ما كسر أحد السيقان في الحقل؛ أما عقاب الخمسين جلدة فكان يعقب أي إهمال أو تقصير يقع في درجة أعلى من ذلك؛ وعقاب مائة جلدة هو ما يطلق عليه عقاب عسير ويُطبّق إزاء الخطأ الجسيم للوقوف ساكناً للحظة في الحقل؛ ومن مائة وخمسين إلى مائتي جلدة يستحقها العبد الذي يتشاجر مع رفاقه في الكوخ؛ وخمسمائة جلدة إلى جانب التشويه باستخدام الكلاب ربما تلحق بالمسكين غير المثير للشفقة الذي يقرّر الهرب حتى يقاسي الألم والعذاب لأسابيع.

خلال العامين اللذين بقي فيهما «إبس» في المزرعة في «بايو بوف»، كان معتاداً، على الأقل مرة واحدة كل أسبوعين، على أن يأتي إلى المنزل مخموراً من «هولمزفيل». فغالباً ما كانت مباريات الصيد تنتهي بالرذيلة. وفي تلك الأثناء كان يتحوّل إلى شخص عاصف وشبه مجنون. وكثيراً ما يحطّم الأطباق والمقاعد وأي أثاث قد تقع يده عليه. ومتى شعر بالارتياح جرّاء ممارساته المنزلية المجنونة تلك يمسك بسوطه ويسير في الفناء. ويتعيّن على العبيد أن يكونوا حذرين ويقظين

للغاية، حيث كان أول من يصل إليه هو أول من يشعر بلسعة سوطه. وكان أحياناً ما يستمر في العدو في كل الاتجاهات عدة ساعات، ويلتفّ حول أركان الأكواخ، فيصادف من وقت لآخر بعضاً من غير الحذرين، فإذا أتى أحدهم على حين غرة ونجح في توجيه ضربة محكمة إليه لأسعده هذا الإنجاز كثيراً. وكان أكثر من يعاني الأطفال الأصغر سناً وكبار السن الذين فارقتهم الهمّة. وفي قلب كل هذا الارتباك، كان يقف خلف الكوخ وينتظر بيد مرفوعة بالسوط كي يلهب به أول أسود يختلس النظر حذراً حول الركن.

أما في الأوقات الأخرى، فكان يعود إلى المنزل بمِزاج أقل مرحاً ووحشية. ثم ينبغي أن يبدأ المرح، ويتحرّك الجميع مع النغم. عندئذٍ يحتاج السيد «إبس» إلى تشنيف أذنيه الموسيقية بإيقاع الكمان، ثم يبتهج ويصبح مفعماً بالحركة والبهجة «فيصول ويجول بقدمين راقصتين» في الفناء وفي أرجاء المنزل كافة.

كان «تيبيتس» قد أخبرني في وقت بيعي له أن في وسعي العزف على الكمان، وأن الرجل قد حصل على معلومات بشأني من فورد. وقد أسفر إلحاح السيدة «إبس» عن إقناع زوجها بشراء آلة كمان لي في أثناء زيارته لـ «نيو أورليانز». وكثيراً ما كان يتم استدعائي إلى داخل المنزل للعزف أمام الأسرة؛ حيث كانت السيدة مغرمة بالموسيقى.

كنا نجتمع جميعاً في الغرفة الكبيرة في المنزل الكبير كلما عاد «إبس» إلى المنزل بمزاج راقص. وبغض النظر عن أننا منهكون ومتعبون لا فِكاك من رقصة عامة. وفور أن يتخذ الجميع أماكنهم فوق الأرض حتى أبدأ العزف، ويصيح «إبس»:

«ارقصوا أيها الزنوج الملاعين، ارقصوا».

وهنا يجب على الجميع أن يبدؤوا الرقص بلا توقف ولا تأخير، ولا بطء ولا ضعف في الحركات؛ فينبغي أن يكون الجميع مفعمين بالسرعة والحماسة والحيوية، حتى يصبح الإيقاع «فوق، تحت، كعب، أصابع، وهكذا نمضي». وكان «إبس» بجسده البدين ينخرط مع عبيده داكني اللون في حركتهم السريعة في كل مسارات الرقصة.

عادة ما يكون «إبس» ممسكاً بسوطه في أثناء الرقص، وعلى استعداد لأن يهوي به فوق أذن أي عبد وقح يجرؤ على الراحة للحظة، أو حتى التوقّف لالتقاط أنفاسه. أما حين ينال منه هو التعب والإنهاك، فيمكن عندئذ التوقّف برهة وجيزة جداً فحسب، ثم بجلدة وضربة وتلويح بالسوط يعاود الصراخ: «ارقصوا أيها الزنوج، ارقصوا»، فيشرعون في الرقص مجدداً في فوضى مذهلة، بينما أجلس أنا لأعزف على الكمان لحناً سريع الإيقاع، بتحفيز من السوط بين الفينة والأخرى. أما السيدة فكانت تنتقده كثيراً وتهدّد بأنها سوف تعود إلى منزل والدها في «تشينيفيل». مع ذلك لم تكن تستطيع أحياناً أن تكبت القهقهة عندما تشاهد مزاحه الصاخب. وكثيراً ما نُستبقى في هذا الاحتفال حتى مطلع الصبح. فبعد العمل الشاق، والتوق إلى بعض الراحة لاستعادة النشاط، والشعور بأننا نفضل لو ارتمينا فوق الأرض وبكينا، كنا نحن العبيد التعساء نُجبر على الرقص والضحك في ليالٍ كثيرة في منزل «إدوين إبس»!

وعلى الرغم من هذا الحرمان إرضاءً لنزوات السيد، كان علينا التواجد في الحقل مع أشعة الشمس الأولى والقيام بالعمل العادي

والمعتاد طوال النهار. لم يكن عناء الليالي الراقصة يؤخذ في الحسبان في تخفيف العقاب عند الوزن في المحلج أو في حقل الذرة إذا لم يتم العزق بالسرعة المعتادة. فكان الجلد بالسوط لا يقل حدّة كما لو أننا ذهبنا إلى العمل في الصباح مفعمين بالقوة والنشاط بعد النوم والراحة ليلاً. بل يمكن القول إنه كان يصبح أكثر وحشية وغلظة بعد تلك النزوات المحمومة، ويميل إلى توقيع العقاب عند أتفه الأسباب، واستخدام السوط بطاقة أكبر ورغبة أشدّ في الانتقام.

أمضيت عشر سنوات وأنا أكدّ في العمل لهذا الرجل من من دون مكافأة. عشر سنوات من العمل المتواصل ساهمت في زيادة مجمل من ممتلكاته. عشر سنوات وأنا مُجبر على مخاطبته بعينين خفيضتين ورأس غير مكشوف، وبلكنة العبيد. ولستُ أدين له بأي شيء سوى الإساءة والجروح التي لم أكن أستحقها.

بعيداً عن متناول سوطه اللاإنساني، وأنا أقف فوق أرض الولاية الحرة حيث وُلِدت، حمداً لله، يمكنني أن أرفع رأسي مجدداً بين البشر، ويمكنني أن أتحدث عن المظالم التي عانيت منها، وهؤلاء الذين ظلموني، بعين جريئة. ولكنني لا أرغب إلا في ذكر الحقيقة، سواء عنه أو عن الآخرين سواه. والحديث عن «إدوين إبس» يعني القول إنه رجل لم يعرف قلبه العطف أو العدل. سماته الأساسية قسوة القلب، والفظاظة، مع عقل غير مستنير وروح جشعة. وكان يُعرف بـ«كاسر الزنوج»، ويتميّز بقدرته على إخضاع روح العبد والتفاخر بسمعته في هذا الصدد، تماماً كفارس يبرع في ترويض جواد بريّ. فكان ينظر إلى الرجل الأسود ليس باعتباره إنساناً، مسؤولاً أمام خالقه عن

الموهبة الصغيرة التي أودعها إياه، وإنما بصفته «متاعاً شخصياً»، مجرد ممتلكات حيّة لا ميزة له عن البغل أو الكلب إلا في القيمة. وعندما وُضع أمام عينيه الدليل الواضح الذي لا مِراء فيه على أنني كنت رجلاً حراً، وأن استحقاقي الحرية بقدر استحقاقه تماماً، وبعلمه يوم رحيلي أن لي زوجة وأبناء أحبهم تماماً كما يحب هو أولاده، كان كل ما فعله هو أن ثار وغضب ولعن القانون الذي انتزعني من ملكيته، وقال إنه سوف يعثر على هذا الرجل الذي أرسل الخطاب الذي يكشف مكان عبوديتي، وإنه لن يدّخر سلطة ولا مالاً لقتله. لم يفكّر إلا في خسارته هو، ولعنني لأنني وُلِدتُ حراً. كان في وسعه أن يقف من دون أن يحرك ساكناً وهو يشاهد ألسنة عبيده المساكين تُقتلع من جذورها، كان يمكنه أن يراهم يحترقون ويتحوّلون إلى رماد على نيران هادئة، أو يشاهدهم والكلاب تقضمهم حتى الموت، إذا كان في هذا منفعة له. لكم كان «إدوين إبس» رجلاً قاسياً وظالماً وطاغية.

لم يكن هناك سوى شخص واحد في «بايو بوف» أشد طغياناً ووحشية من «إبس». فكما ذكرت آنفاً لم يكن يعمل في مزرعة «جيم بيرنز» إلا النساء، وكان هذا البربري يبقي ظهورهن عارية وملتهبة، حتى إنهن لا يستطعن القيام بأعمال العبيد اليومية العادية. وكان يتباهى بقسوته، ويُعرف في البلد بأكملها بكونه رجلاً شديد الحيوية، ومفعماً بالطاقة، ربما أكثر من «إبس». كان طاغية بحق، ولم يحتفظ في قلبه بذرة من رحمة تجاه ضحايا طغيانه، وكان كالأحمق يسلّط سوطه على من يعتمد عليهم في تحقيق مكاسبه، حتى تخور قواهم.

ظلّ «إبس» في «هاف باور» فترة عامين جمع فيهما مبلغاً كبيراً من

المال، أنفقه في زراعة الضفة الشرقية من «بايو بوف» حيث لم يزل يعيش حتى اليوم، ثم امتلكها في عام 1845 بعد انقضاء العطلات. وقد اصطحب معه تسعة عبيد إلى هناك حيث بقوا جميعاً؛ باستثنائي أنا و«سوزان» التي لقيت حتفها بعد ذلك. ولم يُضِف أحداً إلى هذه القوة، ولفترة ثماني سنوات كانت صُحبتي في السكن تتألف من «أبرام» و«ويلي» و«فيبي» و«بوب» و«هنري» و«إدوارد» و«باتسي». وكلهم- باستثناء إدوارد- اشتراهم «إبس» دفعة واحدة في أثناء الفترة التي عمل فيها مشرفاً لدى «آرتشي بي وليامز»، الكائنة مزرعته على شاطئ «رد ريفر»، على مسافة ليست بعيدة من الإسكندرية.

كان «أبرام» طويل القامة، يتجاوز قامة الرجل العادي برأس كامل. وكان في الستين من عمره ومسقط رأسه «تينيسي»، وقد اشتراه منذ عشرين عاماً تاجر أتى به إلى كارولينا الجنوبية، وباعه إلى «جيمس بوفورد» من مقاطعة «وليامزبيرغ» في تلك الولاية. وقد اشتهر في شبابه بقوته العظيمة، ولكن العمر والعمل بلا هوادة بدّدا بنيانه القوي وأضعفا قواه العقلية.

أما «ويلي» ففي الثامنة والأربعين من عمره، ولد في ضيعة «وليام تاسل»، وتولّى عدة سنوات مسؤولية عبّارة هذا الرجل المحترم في نهر « بيغ بلاك ريفر» في كارولينا الجنوبية.

وكانت «فيبي» أَمَةً لدى «بوفورد»، وجارة لـ «تاسل»، وبعد أن تزوّجت «ويلي» اشتراه لاحقاً بتحريض منها. وكان «بوفورد» سيداً طيباً، وعمدة المقاطعة، ورجلاً ثرياً آنذاك.

أما «بوب» و«هنري» فهما ابنا «فيبي» من زوج سابق لها وقد

هجرهما أبوهما كي يفسح المجال لـ «ويلي»؛ هذا المراوغ الذي سلك طريقه إلى قلب «فيبي»، فما كان من الزوجة الخائنة إلا أن طردت زوجها الأول خارج باب حجرتها، ثم أنجبت للزوج الجديد ابنهما «إدوارد» في «بايو هاف باور».

و«باتسي» في الثالثة والعشرين من عمرها، وهي أيضاً من مزرعة «بوفورد»، ولكن لا صِلة تربطها بالآخرين، ولكنها تفخر بأنها من سلالة «زنوج غينيا» الذين تم جلبهم إلى كوبا في سفينة للرقيق ضمن نقل تجاري إلى «بوفورد» الذي كان يمتلك أمها.

هذه رواية عن أنساب العبيد الذين يمتلكهم سيدي، كما عرفتها منهم. لسنوات وهم يعيشون معاً، وكثيراً ما يستدعون ذكريات الأيام الخوالي، ويسهدون وهم يقتفون أثر خطواتهم إلى المنزل القديم في «كارولينا». المشاكل التي حلّت على سيدهم «بوفورد»، جلبت عليهم مشاكل أكبر. فقد غلبه الدين ولم يستطع الصمود أمام سوء طالعه حتى اضطر في النهاية إلى بيعهم وبيع عبيد آخرين. وتم تصفيدهم معاً، وسيقوا من وراء «المسيسيبي» إلى مزرعة «آرتشي بي وليامز». وكان «إدوين إبس» مشرفاً لديه منذ فترة طويلة، وعلى وشك تأسيس عمل لحسابه في وقت وصولهم، فقبِلهم نظير أجره.

وكان «أبرام» العجوز رجلاً طيب القلب؛ وكان بمثابة الأب بيننا، ومولعاً بالحديث إلى رفاقه الشباب بشكل قاتم وجاد. وكان على دراية عميقة بهذه الفلسفة كما تعلّمها في حجرة الرقيق. ولكن هواية «العم أبرام» الأساسية التي كان ينهمك فيها تماماً، هي الحديث عن «الجنرال جاكسون» الذي اتبعه سيده الشاب إلى الحروب في «تينيسي». كان

يحب أن يتجوّل في ذاكرته وخياله في المكان الذي وُلِد فيه، وذكريات مشاهد شبابه في فترات الحروب المضطربة التي كانت تخوضها الأمة. وكان رياضياً، وأكثر حرصاً وقوة من عموم عِرقه، إلا أنه فقد الآن كثيراً من بصره، وخفتت قوته الطبيعية. في كثير من الأحيان، بينما نناقش أفضل طريقة لصنع الكعك، أو نسهب في الحديث عن أمجاد «جاكسون»، كان ينسى أين وضع قبعته، أو المجرفة التي يستخدمها، فنسخر من العجوز إذا كان «إبس» غائباً، أو يُجلَد إذا كان موجوداً. ومن ثم كان الرجل في حالة ارتباك مستمرة، يحزن لفكرة أنه قد هَرِم واقترب الأجل، ولا شك أن الفلسفة و«جاكسون» والنسيان قد آذوه، وبات من الواضح أن اجتماعهم على قلبه كان يشيع البياض في رأس «العم أبرام» حتى القبر.

أما العمّة «فيبي» فكانت عاملة ممتازة في الحقل، ولكنها انتقلت مؤخراً للعمل في المطبخ حيث بقيت هناك إلا أحياناً في أوقات الاستعجال غير المألوفة. وكانت مخلوقة عجوزاً وخبيثة، وثرثارة جداً في غياب سيدها وسيدتها.

وعلى النقيض منها كان «ويلي» الصامت دائماً. كان يقوم بمهامه بدون تذمر أو شكوى، ونادراً ما ينخرط في رفاهية الحديث إلا للتعبير عن أمنية ابتعاده عن «إبس» والعودة إلى كارولينا الجنوبية.

أما «بوب» و«هنري» فكانا في العشرين والثلاثة وعشرين من عمريهما، ولم يتميزا بأي شيء استثنائي أو غير معتاد، بينما «إدوارد»، وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره، لم يكن قادراً بعد على المحافظة على صفه في حقل الذرة أو القطن، ومن ثم بقي في المنزل الكبير

للاعتناء بأبناء «إبس».

كانت «باتسي» نحيلة وممشوقة القوام، وتقف منتصبة كأكثر ما يستطيعه الجسم البشري. وكان هناك شيء من الشموخ في حركتها لم يستطع العمل ولا التعب ولا حتى العقاب أن يأتي عليه. والحق أن «باتسي» كانت حيواناً رائعاً، ولولا الأسر الذي غلّف عقلها في ظلام دامس ومستمر لكانت أصبحت زعيمة لعشرة آلاف من ناسها. كان في وسعها القفز فوق الأسوار العالية، ولا يسبقها في العدو إلا كلب سباق. ولم يكن في وسع أي جواد أن يسقطها عن ظهره، فكانت مروّضة ماهرة. وكانت تقلب أثلام الزراعة على أفضل وجه، ولا يتفوّق عليها أحد في قطع الأخشاب. وعندما كان يصدر أمر التوقّف في الليل، كانت تجمع البغال في الزريبة، غير مقيّدة، وتطعمها، وتنظف جلودها، قبل أن يعثر العم «أبرام» على قبعته. ومع كل ذلك، لم تكن كل تلك الأشياء سبب شهرة «باتسي» على وجه الخصوص، بل كانت تلك الحركة كالبرق في أصابعها كما لم تكن في أية أصابع أخرى، ومن ثم كانت «باتسي» ملكة الحقل عند جمع القطن.

وكانت ذات طبيعة لطيفة وطيّبة، إلى جانب كونها مخلصة ومطيعة. ولا شك أنها كانت فتاة مرحة وضحوكة وطيبة القلب، وتبتهج لأي شيء في الوجود، بيد أنها كانت كثيراً ما تبكي، بل وعانت أكثر من كل رفاقها. كان جسدها مسلوخاً بكل معنى الكلمة، وظهرها يحمل ندوب آلاف الجلدات، لا لأنها تتخلّف في عملها ولا لأنها ذات روح متمرّدة وعنيدة، بل لأن قدرها أوقع بها لتكون أمة لسيد شهواني وسيدة غيورة. كانت تنكمش أمام عينيه النهمة، وحياتها في خطر

في أيديها، وحقاً أصابتها اللعنة بينهما. فكان الصياح يعلو في البيت الكبير عدة أيام وتسود الكلمات الغاضبة والتجهّم والاستياء، حيث كانت تلك البريئة هي السبب. ولم يكن هناك ما يسّر السيدة أكثر من رؤيتها تتعذّب، وفي أكثر من مرة حين رفض «إبس» بيعها، حاولت السيدة غوايتي بالرشوة كي أقتلها سراً وأخفي جثتها في المستنقعات. وبسعادة بالغة كانت «باتسي» تسترضي تلك الروح التي لا تعرف الرحمة متى كان في وسعها ذلك، ولكنها لم تجرؤ على الفرار من السيد «إبس» كما فعل «جوزيف»، وتركت روحها في يده. كانت «باتسي» كأنها تسير فوق الحبل؛ إذا تفوّهت بكلمة تعارض بها مشيئة سيدها تُجلد على الفور لإخضاعها، وإذا غابت عن كوخها أو متى شوهدت تسير في الفناء، كانت قطعة من الخشب أو ربما زجاجة مكسورة تطير من يد سيدتها لترتطم بوجهها على حين غرّة. لم تهنأ «باتسي» في حياتها، وكانت أسيرة الشهوة والمقت.

كان هؤلاء رفاقي وزملائي العبيد الذين اعتدت العمل معهم في الحقل، وقضت أقداري أن أعيش معهم عشر سنوات في أكواخ «إدوين إبس». وإن كانوا لا يزالون بعد على قيد الحياة فلا شك أنهم يكدحون على ضفاف «بايو بوف»، لا يُسمح لهم بتنفس نسائم الحرية المباركة كما أفعل أنا الآن، ولا أن يتخلصوا من أغلالهم الثقيلة حتى توارى جثامينهم في التراب إلى الأبد.

الفصل الرابع عشر

في العام الأول من إقامة «إبس» على النهر، في عام 1845، كاد فطر اليسروع أن يدمِّر محصول القطن بالكامل في المنطقة. ولمّا لم يكن لدى العبيد سوى القليل ليقوموا به، كانوا يمكثون في خمول نصف الوقت. لكن سَرَت شائعة في «بايو بوف» بأن الأجور عالية والطلب كبير على العمال في مزارع السكر في أبرشية سانت ماري، التي تقع على ساحل خليج المكسيك، على مسافة أربعين ميلاً أو نحوها من «أفويليس»؛ حيث نهر «ريو تيك» الكبير الذي يتدفق من «سانت ماري» إلى الخليج.

قرّر المزارعون عند اطلاعهم على هذه المعلومات أن يقودوا العبيد لإرسالهم إلى «توكاباو» في «سانت ماري»؛ بغرض تأجيرهم للعمل في حقول القصب. ومن ثم، تم جمع مائة وسبعة وأربعين من العبيد في «هولمزفيل» في شهر سبتمبر، ومن بينهم كنت أنا و«أبرام» و«بوب». وكان نحو نصف هذا العدد من النساء. وكان كل من «إبس»، و«ألونسون بيرس»، و«هنري تولر»، و«أديسون روبرت» هم الرجال البيض المختارين لاصطحاب هؤلاء العبيد وقيادة المسيرة، مستخدمين في ذلك عربة يجرها حصانان وجوادان مسرّجان، فضلاً عن عربة كبيرة تجرها أربعة خيول ويقودها جون، وهو فتى يمتلكه

السيد «روبرتس»، كانت تحمل البطانيات والمؤن.

في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، وبعد إطعامنا، بدأت استعدادات الرحيل. كانت المهمة الموكلة إليَّ هي مسؤولية الحفاظ على البطانيات والمؤن، وأن أحرص على ألا يضيع أي شيء منها في أثناء الرحلة. تقدّمت العربة أولاً تتبعها عربة المؤن، ومن خلفهما تم ترتيب العبيد بينما الرجلان فوق الجوادين في المؤخّرة، وتحرّك الركب على هذا النحو مغادراً «هولمزفيل».

وصلنا في تلك الليلة إلى مزرعة السيد «ماكرو» الواقعة على مسافة من عشرة أميال إلى خمسة عشر ميلاً حيث أُمرنا بالتوقف. وبالفعل أشعلنا ناراً ضخمة وبسط كل منّا بطانيته فوق الأرض ونام فوقها، فيما بقي الرجال البيض في المنزل الكبير. وقبل إشراق اليوم التالي بساعة واحدة، أيقظنا قادة الرحلة الذين خاضوا بيننا وهم يأمروننا بالصحو باستخدام السياط، فطوينا البطانيات حيث تسلّمتها ووضعتها في عربة المؤن قبل أن نعاود مسيرتنا.

وفي الليلة التالية أمطرت السماء بغزارة، فابتللنا جميعاً حتى تشبّعت ملابسنا بالمياه والطين. ثم وصلنا إلى حظيرة مفتوحة كانت محلجاً للقطن فيما مضى، فاحتمينا بها قدر المستطاع، ولكن لم تكن هناك مساحة كافية لنا جميعاً كي نستلقي. وبقينا هناك مجتمعين معاً طوال تلك الليلة، ثم استأنفنا مسيرتنا كالمعتاد في الصباح. وفي أثناء تلك الرحلة، كنا نُطعَمُ مرتين في اليوم، حيث كنا نطهو لحم الخنزير ونخبز كعك الذرة في نيران كنا نصنعها كما نفعل في أكواخنا. ومررنا في طريقنا بكل من «لافايتيفيل» و«ماونتسفيل» و«نيو تاون»، حتى

وصلنا إلى «سنترفيل»، حيث تم تأجيرنا؛ أنا و«بوب» والعم «أبرام». وكان عدد العبيد يقل فيما نتقدّم نظراً إلى أن كل مزرعة سكر كنا نمر بها كانت تحتاج إلى خدمات واحد أو أكثر من المجموعة.

مررنا في طريقنا بـ «غراند كوتو» أو البراري، وهي مساحة هائلة مستوية، وبلد رتيب بلا أشجار، باستثناء واحدة تم زرعها بالقرب من منزل متداعٍ. وقد كانت هذه المنطقة مأهولة بالسكان فيما سبق، غير أنهم هجروها لسبب ما، وأصبح العمل الأساسي للسكان المتناثرين هناك رعي الماشية. ورأينا عندما مررنا قطعاناً هائلة ترعى هناك. ولا تملك في وسط هذا المكان إلا أن تشعر كما لو أنك في محيط بعيد عن اليابسة. ولا ترى على مدّ البصر في كل الاتجاهات سوى دمار وأرض مهجورة.

كان القاضي «تيرنر» هو من استأجرني، وهو رجل شهير ومزارع ثري تقع ضيعته الضخمة على جدول «سالي»، على مسافة أميال قليلة من الخليج. وهذا الجدول هو مجرى صغير يتدفّق في خليج «أتشافالايا». عملتُ لبعض الأيام في مزرعة «تيرنر» حيث تولّيتُ مهمة إصلاح بيت السكر؛ ثم تسلّمتُ سكين القصب وذهبتُ إلى الحقل مع ثلاثين أو أربعين آخرين. ولم أصادف في تعلّم فن قطع سوق القصب تلك الصعوبة التي واجهتها في جمع القطن، بل قمتُ بهذا العمل بشكل طبيعي وتلقائي وسرعان ما استطعت مضاهاة أسرع سكين في الحقل. ومع ذلك، وقبل أن تنتهي أعمال القطع، نقلني القاضي «تيرنر» من الحقل إلى مصنع السكر للعمل بصفة مشرف. ومن وقت بدء صنع السكر وحتى النهاية، لم يكن الطحن

والغلي يتوقفان ليلاً أو نهاراً. وقد أُمرت أن أستخدم السوط مع أي عبد ألمحه يتوقف عن العمل. وإذا قصّرت في تنفيذ الأوامر بالحرف الواحد، فسأتعرّض للجلد. وعلاوة على ذلك، كان من مهامي دعوة المجموعات المختلفة وقت العمل وصرفهم وقت الانتهاء. ولم تكن لي فترات منتظمة للراحة، ولم أكن أنام سوى لحظات قليلة كل مرة.

كان المعتاد في «لويزيانا»، كما أفترض أنه الحال في الولايات الأخرى التي لا تحظر العبيد، السماح للعبيد بالاحتفاظ بأي أجر قد يحصل عليه نظير الخدمات التي يقوم بها في أيام الأحد. وبهذه الطريقة فقط، يمكنهم الحصول لأنفسهم على أي ترف أو رفاهية. ومتى كان يتم شراء أو خطف أي من العبيد في الشمال، يتم نقله إلى كوخ في «بايو بوف» ويُعطى إما سكيناً وإما شوكة، من من دون صحن ولا غلاية أو أي شيء آخر في شكل الأواني الفخارية، أو أي أثاث أياً كان نوعه أو وصفه. كما يُعطى بطّانية قبل أن يصل إلى هناك ويلفها حول جسده بحيث يستطيع أن يقف على قدميه أو أن يرقد فوق الأرض أو فوق لوح في الأوقات التي لا يحتاج إليه فيها سيده. ولديه الحرّية في إيجاد يقطينة يحتفظ فيها بوجبة طعامه، أو أن يأكل حصته من الذرة من قولحته، حسبما يشاء. أما أن يطلب من سيده سكيناً، أو مقلاة، أو أي أداة أياً كانت، فكان يُقابل بركلة أو ضحكة كما لو أنها مزحة. وأياً ما كان يوجد من هذه الأدوات في أي من الأكواخ فهو مُشْتَرَى بأموال يوم الأحد. ومهما بلغت الإساءة التي يلحقها كسر العطلة الأسبوعية بالمبادئ الأخلاقية، فإن السماح للعبد بذلك يعود بالنفع على حالته المادية من دون شك. وبخلاف ذلك، لن تكون هناك

طريقة ليحصل بها لنفسه على الأواني التي لا غِنى له عنها، والتي تلزمه لأعمال الطهي.

في أوان السكر في مزارع القصب، لا يوجد أي تمييز بين أيام الأسبوع. ومن المفهوم جيداً أن الجميع يجب أن يعملوا أيام الأحد، ومن المفهوم كذلك أن المستأجرين على نحو خاص، كما استأجرني القاضي «تيرنر»، والآخرين في السنوات التالية سوف يحصلون على أجر نظير عملهم. ومن المعتاد كذلك أنه في أكثر أوقات جمع القطن عجلة واستعجالاً، يلزم الاستعانة بالخدمة الإضافية بالقدر نفسه. ومن هذا المصدر يحصل العبيد بشكل عام على فرصة الحصول على ما يكفيهم لشراء سكين، أو غلاية، أو تبغ، وما إلى ذلك. أما النساء فيزهدن في شراء سبل الترف تلك ويفضّلن شراء أشرطة مبهرجة ليعقفن بها شعورهن في مواسم العطلات المرحة.

ظللتُ في «سانت ماري» حتى الأول من يناير، وجمعتُ في أيام الأحد مبلغ 10 دولارات. كما حقّقتُ ثروة أخرى أُدين بها لكمنجتي، رفيقتي الدائمة، ومصدر ربحي ومُسرّي أحزاني طوال فترة العبودية تلك. كان هناك حفل كبير تجمّع فيه البيض في منزل السيد «يارني» في «سنترفيل»، وهي قرية صغيرة في محيط مزرعة «تيرنر». وطُلِب مني أن أعزف لهم، وقد نال عزفي إعجاب صنّاع السعادة هؤلاء فتشاركوا في عطائهم لي حتى جمعتُ سبعة عشر دولاراً.

وبهذا المبلغ في حوزتي، أصبحتُ مليونيراً في نظر زملائي. وكنتُ أشعر بالسرور البالغ كلما نظرت إلى هذا المبلغ، وكنت أقوم بعدّه مرة بعد مرة، ويوماً بعد يوم. وكانت رؤية الأثاث في الكوخ، ودلاء

المياه، وسكاكين الجيب، والأحذية والمعاطف والقبعات الجديدة تجول بخيالي، وكان الحلم الأسمى هو أن أصبح أكثر «الزنوج» ثراءً في «بايو بوف».

كانت السفن تُبحر أعلى نهر «ريو تيك» حتى «سنترفيل». وبينما كنت هناك حدث ذات يوم أن كنت من الجرأة بأن قدّمتُ نفسي لقبطان إحدى السفن، وتوسلت إليه كي يسمح لي بالاختباء بين البضائع. وقد شجّعني على ركوب هذه المخاطرة أن سمعتُ بالمصادفة حواراً تيقّنتُ من سياقه أنه من سكان الشمال. ولم أذكر له تفاصيل تاريخي واكتفيتُ بأن أعربت له عن رغبتي العارمة في الفرار من العبودية إلى إحدى الولايات التي تحظر العبودية. أشفق عليَّ الرجل ولكنه قال إنه من المستحيل تجنّب ضباط مصلحة الجمارك اليقظين في «نيو أورليانز»، وإن الكشف عن هذا الأمر سوف يُخضعه للعقاب ومصادرة سفينته. ولا شك أن توسلاتي الجادة قد أثارت تعاطفه وكان سيفعل بالقطع لو كان في الأمر أي قدر من السلامة. واضطررتُ إلى كبت هذا اللهب المفاجىء الذي اشتعل في جوانحي مع آمال الحرية المعسولة، وتحوّلت خطواتي مجدداً نحو ظلام اليأس المتزايد.

بعد هذا الحدث مباشرة، اجتمع القادة في «سنترفيل» ووصل العديد من أصحاب المزارع وجمعوا أموالهم المستحقة نظير خدماتنا، ثم عدنا أدراجنا إلى «بايو بوف». وفي طريق عودتنا، في أثناء مرورنا بقرية صغيرة، لمحتُ «تيبيتس» جالساً عند باب محل بقالة قذر، وقد بدا رثّ المظهر ويائساً للغاية. وكنت على يقين من أن ثمة غضباً

شديداً وشراباً رديئاً قد نالا منه وأردياه في هذه الحالة.

وعلمتُ من العمة «فيبي» و«باتسي» أن تلك الأخيرة قد واجهت صعوبات ومشاكل أكبر وأعظم في أثناء غيابنا، وأن المسكينة كانت بالفعل أهلاً للشفقة؛ حيث أفرط «هوغجو العجوز»، وهو الاسم الذي يُعرف به «إبس»، في ضربها بشكل أعنف وأكثر من ذي قبل في أثناء غياب العبيد. فكان فور أن يأتي من «هولمزفيل»، ثملاً ومخموراً، وكثيراً ما فعل في تلك الأيام، يعمد إلى جلدها فقط إرضاءً لزوجته، وكان يعاقبها بما لا تطيق احتماله لإساءة ارتكبتها برغم أنه السبب الوحيد والحتمي لها. أما في لحظات رصانته، لم يكن ينغمس في تعطش زوجته للانتقام.

باتت فكرة التخلّص من «باتسي»، بوضعها بعيداً عن ناظريه، أو عن متناول يديه، سواء ببيعها أو بموتها، أو بأي شكل آخر، الفكرة المسيطرة والشعور الغالب على السيدة «إبس» في السنوات الأخيرة. وكانت «باتسي» هي المدلّلة في المنزل الكبير حتى عندما كانت بعدُ طفلة. فكانت تحظى بالملاطفة والإعجاب لما تتمتّع به من حيوية مميزة وشخصية لطيفة. وكثيراً ما كانوا يطعمونها، وفق رواية العم «أبرام»، حتى الحليب والكعك عندما كانت السيدة «إبس»، في أيام شبابها، تحب أن تدعوها إلى الساحة وتلاطفها كهرة صغيرة. بيد أن تغيراً حزيناً طرأ على روح هذه السيدة ولم يعد يعتمل بداخل قلبها إلا مشاعر الغضب السوداء، حتى إنها لم تعد تنظر إلى «باتسي» إلا بمنتهى المَقت.

في النهاية، لم تكن السيدة «إبس» امرأة شريرة بطبعها. ولكن كان

يسكنها شيطان الغيرة، هذا حقيقي، وبصرف النظر عنه كانت بالفعل تتسم بالكثير المثير للإعجاب. كان والدها، السيد روبرتس، يعيش في «شينيفيل»، وهو رجل محترم وذو نفوذ، ويلقى احترام الجميع في الأبرشية شأن أي مواطن آخر. أما هي فقد تلقّت قسطاً جيداً من التعليم في مؤسسة تعليمية على هذا الجانب من «المسيسيبي»، فضلاً عن أنها كانت جميلة، وبارعة، ولطيفة في المعتاد. كانت طيبة مع الجميع باستثناء «باتسي». وكثيراً ما كانت ترسل لنا في غياب زوجها بعضاً من طعام مائدتها اللذيذ. ولعلّها في موقف آخر- في مجتمع مختلف عن هذا الكائن على ضفاف «بايو بوف»- كانت لتُعتبر امرأة أنيقة ورائعة. ولكنها رياح السوء التي قذفت بها بين ذراعي «إبس».

كان الرجل يحترم زوجته ويحبها بقدر أن روحاً خشنة مثله قادرة على الحب، بيد أن الأنانية المفرطة دائماً ما تتغلّب على المودة الزوجية.

«أحبَّ كما يستطيع الرجل العادي أن يحب،
ولكن القلب الخبيث والروح الدنيئة كانا يسكنان هذا الرجل».

كان على استعداد دائم لإرضاء أي من نزواته، ولا بأس من إجابة أي طلب لها ما دام لا يكلفه كثيراً. كانت «باتسي» تساوي أي اثنين من عبيده من حيث التكلفة في حقل القطن. لم يستطع استبدالها بقدر المال نفسه الذي تعود به عليه، فكانت فكرة التخلّص منها مستبعدة. ولكن السيدة لم ترها على هذا النحو أبداً. كانت غطرسة هذه المرأة المغرورة تزيد، والدماء تغلي في عروقها الجنوبية بمجرد أن تقع عيناها

على «باتسي»، ولا شيء يرضيها إلا استخدام القسوة الشديدة مع تلك الأَمَة الضعيفة العاجزة.

وأحياناً ما كان غضبها يتحول إليه بعد أن بات لديها سبب لتكرهه. ولكن سرعان ما تمر عاصفة الكليات الغاضبة وتسود مواسم السلام مجدداً. وفي تلك الأثناء، كانت باتسي ترتعد من الخوف وتبكي كما لو أن قلبها سوف ينفطر، فقد علّمتها التجربة المؤلمة أنه متى اشتعل غضب سيدتها مجدداً فلن يهدئها إلا وعد من «إبس» بأن «باتسي» سوف تنال بعض الجلدات؛ وهو وعد لا يخلفه أبداً. كانت تلك سجال الغرور والغيرة وحرب الانتقام مع العاطفة الظالمة الغاشمة في منزل سيدي، تملؤه بالاضطرابات والخلافات اليومية. وكانت كل تلك الآفات المنزلية تصب على رأس «باتسي»، تلك الأمة البسيطة العقل التي غرس الله في قلبها بذور الفضيلة.

وفي أثناء فصل الصيف الذي أعقب عودتي من أبرشية سانت ماري، وضعتُ خطة كي أوفّر لنفسي الطعام، وقد نجحت هذه الخطة على بساطتها نجاحاً منقطع النظير. وحذا حذوي كثير آخرون على طول النهر؛ الأمر الذي حقّق فائدة كبيرة حتى شرعتُ أنظر إلى ذاتي باعتباري محسناً. في ذلك الصيف، تفشّى الدود في لحم الخنزير المقدّد، ولم نكن لنبتلعه إلا جرّاء الجوع الشديد. ولم تكن الحصة الأسبوعية من اللحم كافية لإشباعنا. كان من الشائع لدينا، شأن الجميع في المنطقة بأسرها، عندما تُستهلك تلك الحصة قبل ليلة السبت أو متى كان لحم الخنزير مقززاً ومثيراً للغثيان، أن نصطاد الراكون والأبوسوم في المستنقعات. لكن يجب القيام بذلك في الليل بعد الانتهاء من يوم

العمل. وهناك مزارعون يحصل عبيدهم على اللحم لعدة شهور بهذه الطريقة فقط. فليس هناك أي اعتراضات على الصيد بقدر أنه يُسحب على دفعات إلى بيت التدخين، ولأن مقتل كل راكون مُغير يعد إنقاذاً لبعض سوق الذرة. وكان يتم صيدها بالكلاب والهراوات حيث لا يُسمح للعبيد باستخدام الأسلحة النارية.

لحم الراكون مستساغ، لكن ليس هناك حقاً ذبيحة ألذ من الأبسوم عند شيّها. وهي حيوانات صغيرة، ذات جسد طويل ومستدير، وبيضاء اللون بأنف يشبه أنف الخنزير، وذيل يشبه ذيل الفأر. تحفر بين الجذور وفي تجاويف أشجار الصمغ، وهي خرقاء وبطيئة الحركة. ولكنها مخلوقات مخادعة وماكرة. عند تلقّيها أخف ضربة تدور حول نفسها على الأرض وتدّعي الموت. فإذا تركها الصياد سعياً وراء غيرها من دون أن يتجشّم عناء دقّ عنقها، فإنه يعود ولا يجدها. وهكذا يخدع هذا الحيوان الذكي «المراوغ» صيّاديه ويفرّ منهم. ولكن بعد يوم العمل الطويل والشاق، يشعر العبد المنهك بعدم القدرة على الذهاب إلى الصيد في المستنقعات للحصول على عشائه، ويفضل في أغلب الأحوال أن يلقي بجسده فوق أرض الكوخ من من دون طعام. ولكن ليس من مصلحة السيد أن تتدهور صحّة الخدم من جرّاء الجوع، كما أنه ليس من مصلحته كذلك أن يسمن بسبب الإفراط في الإطعام. وفي تقدير المالك يصبح العبد في أفضل حالاته متى كان نحيلاً وهزيلاً شأن خيل السباق عندما يتم تجهيزها، فتراهم دائماً على هذه الحالة في مزارع السكر والقطن على طول «رد ريفر».

كان كوخي يقع على مسافة يسيرة من ضفة النهر، والحاجة بالفعل هي أم الاختراع، واعتزمتُ انتهاج طريقة للحصول على قدر الطعام اللازم من من دون الذهاب إلى الغابة في كل ليلة. وتمثّلت هذه الطريقة في بناء مصيدة للأسماك. ولمّا كوّنت فكرة كاملة عن كيفية القيام بذلك، عكفت في يوم الأحد التالي على وضع الفكرة موضع التنفيذ العملي. وقد يستحيل عليَّ أن أصف للقارىء الفكرة الكاملة والصحيحة للبناء، ولكن أعتقد أن الوصف التالي يكفي كوصف عام لهذا البناء:

يُصنع إطار من قدمين إلى ثلاث أقدام مربعة، وبارتفاع أكثر أو أقل حسب عمق المياه. ثم تسمّر الألواح أو القدد على ثلاثة جوانب من الإطار، ولكن مع ترك مسافة يسيرة بين بعضها بعضاً كي لا يحول ذلك من دون تدفّق المياه بحرية من خلالها. ويتم تثبيت باب على الجانب الرابع بحيث ينزلق بسهولة إلى أعلى وإلى أسفل في الأخدودين المصنوعين في العمودين. ثم يتم تثبيت قاع متحرّك يمكن رفعه إلى أعلى الإطار بسهولة. وفي مركز هذا القاع المتحرك، يصنع ثقب يوضع فيه طرف مقبض أو عصا مستديرة ويظل طرفها الآخر حراً بحيث تستدير. ويتدلّى هذا المقبض من مركز القاع المتحرك إلى أعلى الإطار أو إلى أي ارتفاع مطلوب. وفي أعلى وأدنى هذا المقبض، توجد ثقوب تمرر عبرها عصِيّ صغيرة تمتد حتى الطرف الآخر من الإطار. فالكثير من هذه العصِيّ الصغيرة ينفذ من المقبض في كل الاتجاهات، بحيث لا تستطيع الأسماك كبيرة الحجم المرور من بينها من دون أن ترتطم بأحدها. ثم يوضع الإطار في المياه ويتم تثبيته.

«يُنصب» هذا الفخ بتزليق الباب أو سحبه إلى أعلى، وإبقائه على هذا الوضع باستخدام عصي أخرى يتم تثبيت أحد طرفيها في شِق كائن في الجانب الداخلي، بينما الطرف الآخر في شِق يُصنع في المقبض ويسري من المركز وحتى القاع المتحرك. أما الطُّعم في هذا الفخ فهو عبارة عن حفنة من اللحم الرطب والقطن يتم مزجهما معاً حتى يكتسبا صلابة، ثم يوضع في الجزء الخلفي من الإطار. تسبح السمكة من خلال الباب المفتوح نحو الطُّعم وترتطم بالضرروة بإحدى العصي الصغيرة فيدور المقبض الذي يحرّك العصا الداعمة للباب فتسقط وتظل السمكة حبيسة بالداخل. وبالإمساك بالجزء العلوي من المقبض، يبدأ القاع المتحرك في الصعود إلى سطح المياه ونحصل على السمكة. ربما كانت هناك أفخاخ أخرى مستخدمة قبل بناء الفخ الذي صنعته، إلا أنني لم أرَ أيّاً منها. وتكثر الأسماك كبيرة الحجم وعالية الجودة في «بايو بوف»، وبعد ذلك الوقت أصبحتُ نادراً ما أحتاج إلى الأسماك لي أو لزملائي. وكان هذا بمثابة منجم جديد؛ مورد جديد تم تطويره ولم يفكر فيه أي من أبناء العبيد الأفارقة من قبل، الذين يكدحون ويجوعون على طول تلك الضفاف الراكدة والخصبة.

ونحو هذا الوقت الذي أكتب عنه الآن، وقعت حادثة في المنطقة المجاورة لنا مباشرة تركت أثراً عميقاً في نفسي، وتعكس حالة المجتمع الكائن هنا، والطريقة التي عادة ما تُقابل بها الإهانات. فعلى الجهة المقابلة من مسكننا، على الجانب الآخر من النهر، توجد مزرعة السيد «مارشال». وكان ينتمي إلى عائلة تعدّ من بين العائلات

الأرستقراطية الأكثر ثراءً في المنطقة. وكان أحد الرجال من الجوار يتفاوض معه لشراء ضيعته. وحدث ذات يوم أن أتى رسول إلى المنزل الكبير في مزرعتنا وقال إن ثمة معركة دموية مخيفة تدور رحاها في ضيعة «مارشال»، وأن الدماء قد أريقت، وما لم يتم التفريق بين المتنازعين فسوف تقع كارثة.

عند التوجّه إلى منزل «مارشال»، ظهر مشهد يجدر وصفه. على أرضية إحدى الغرف كانت تستلقي جثة مروّعة لرجل من «ناتشز»، بينما كان «مارشال»، يذرع المكان جيئة وذهاباً، غاضباً وقد غطته الجروح والدماء، «وهو يهدّد ويتوعّد بالذبح والقتل». برزت صعوبات في أثناء التفاوض، وتعالت الكلمات، وسُحبت الأسلحة، وبدأت المعركة الدامية وانتهت هذه النهاية المأساوية. لم يوضع «مارشال» قيد الاعتقال أبداً، بل أقيمت محكمة أو تحقيق «ماركسفيل» وتمّت تبرئته وعاد إلى مزرعته وقد نال المزيد من الاحترام، كما اعتقدت، لأن في رقبته دماء شخص آخر.

اهتم «إبس» بالرجل، واصطحبه إلى «ماركسفيل»، وكان يبرّر له فعلته في كل المواقف بصوت مرتفع، إلا أن خدماته لم تردع فيما بعد أحد أقرباء «مارشال» نفسه عن السعي لقتله أيضاً. فقد وقع شجار بينهما على طاولة القمار، وانتهى بخصومة قاتلة. ركب «مارشال» جواده أمام منزله في أحد الأيام مسلحاً بمسدسات وخنجر، وتحدّاه أن يخرج ويضع نهاية لهذا الشجار، وإلا سيعتبره جباناً ويطلق عليه الرصاص ككلب في أول فرصة تتاح له. وأعتقد أن لا الجُبن ولا أي وازع من ضمير، ولكن تأثير زوجته عليه، هو ما منعه من قبول

تحدّي عدوّه. غير أن صُلحاً قد أقيم بينهما فيما بعد وأصبحا صديقين حميمين.

كثيراً ما تقع في منطقة النهر مثل تلك الأحداث التي تجلب على الأطراف المعنية فيها عقوبات مستحقة وملائمة في ولايات الشمال، ولكنها هنا تمضي من من دون أن تُلاحظ، وربما من من دون تعليق. فكل رجل يحمل خنجره، وعندما يتشاجر اثنان يعمدان إلى طعن وقتل أحدهما الآخر كهمجيين لم يعرف التحضّر طريقه إليهما.

لا شكّ أن وجود الرق في أبشع صوره بينهم قد أسفر عن ميلهم إلى الوحشية بدلاً من الإنسانية والمشاعر الطيّبة الطبيعية. فلا يُتوقع منهم إلا أن يكونوا على هذا القدر من التوحّش والاستهتار بالحياة البشرية نتيجة مرأى البشر في معاناتهم اليومية، والاستماع إلى صرخات العبيد الحادة المؤلمة، ورؤية أجسادهم تتلوّى تحت وطأة الجلدات التي لا تعرف الرحمة، وعضّهم وتمزيقهم بأنياب الكلاب، والموت من دون أن يعبأ بأمرهم أحد، ودفنهم بلا توابيت ولا أكفان. غير أن هناك الكثير منهم قد احتفظوا بطيبة قلوبهم وإنسانيتهم في أبرشية «أفويليس»؛ شأن السيد «وليام فورد» مثلاً، ممن ينظرون بعين العطف إلى معاناة العبيد، كما أن هناك في أرجاء العالم كافة أرواحاً رقيقة وعطوفة لا يمكنها النظر بلامبالاة إلى معاناة أي مخلوق وهبه الخالق الحياة. ولستُ أرى أن خطأ القسوة يقع على عاتق مالك العبيد، بقدر أن الخطأ يكمن في النظام الذي يعيشون في إطاره. فهو لا يستطيع أن يخالف تأثير العادات والروابط من حوله. كما أنه يتعلّم منذ نعومة أظفاره وطفولته المبكرة من كل ما يراه ويسمعه من حوله

من أن السوط محلّه ظهر العبد، وليس من المنتظر أن يغيّر آراءه في الكِبر.

هناك من السادة من لا تعوزهم الإنسانية بقدر أن هناك من تنقصهم بالقطع؛ ومن ثم تجد عبيداً يرتدون ملابس جيدة، ويُطعمون طعاماً جيداً، بقدر أن هناك عبيداً نصف عراة ونصف جوعى ويعيشون حياة بائسة. ومع ذلك، فإن المؤسسة التي تتسامح مع تلك الأخطاء واللاإنسانية التي شهدتها هي مؤسسة قاسية، وظالمة، وهمجية. وقد يكتب الرجال القصص التي تصوّر تلك الحياة الوضيعة كما هي، أو على نحو مغاير - قد يسهبون كنعيق البوم في نعمة الجهل - ويأتون بخطاب استخفافي وهم يجلسون على مقاعد وثيرة ويصفون ملذات حياة العبيد، ولكن دعهم يكدحون معهم في الحقول أو ينامون معهم في الأكواخ، أو يتغذون معهم على القشور، أو دعهم يكابدون معاناة الجلد أو المطاردة أو السحق، ولا شك أنهم سيأتون عندئذ برواية أخرى تخرج من أفواههم. دعهم يتعرفون على مكنون قلب العبد المسكين، ويطلعون على أفكاره التي لا يجرؤ على التفوّه بها في حضرة الرجل الأبيض؛ دعهم يجلسون إلى جواره في المراقبة الليلية، ويتحدثون إليه بثقة الواثق عن «الحياة، والحرية، والسعي إلى تحقيق السعادة»، وسيجد أن تسعة وتسعين في المائة من العبيد أذكياء بما يكفي لفهم حقيقة وضعهم، وكيف أنهم يهفون إلى الحرية بقدر ما يفعلون.

الفصل الخامس عشر

نظراً إلى عدم قدرتي على جمع القطن، اعتاد «إبس» أن يؤجّرني خارج المزرعة لمزارع السكر في أثناء فصل قطع القصب وصنع السكر. وكان يحصل نظير خدمتي على دولار واحد كل يوم مع المال الذي يعوّض به مكاني في مزرعة القطن خاصته. وكان قطع القصب وظيفة تلائمني، واستطعت طوال ثلاث سنوات متتالية قيادة الصف في مزرعة «هوكينز»، ومن خلفي مجموعة من خمسين إلى مائة يد.

وقد وصفتُ في فصل سابق طريقة زراعة القطن، وقد يكون هذا هو المكان المناسب لوصف زراعة القصب.

يتم إعداد الأرض في أحواض على غرار طريقة إعدادها لاستقبال بذور القطن، باستثناء أن هذه يتم حرثها بدرجة أعمق، وتبذر بالطريقة نفسها. وتبدأ الزراعة في شهر يناير وتستمر حتى شهر أبريل. ومن الضرور بمكان زرع حقل السكر مرة واحدة كل ثلاثة أعوام. ويُجمع المحصول ثلاث مرات قبل استنفاد البذور أو النباتات.

تعمل في هذه العملية ثلاث مجموعات؛ الأولى تقوم بسحب القصب من الأكوام، وتقطيع الرأس والأزهار عن الساق مع ترك الجزء السليم والصحي فحسب. ولكل عقدة في ساق القصب عين، مثل عين ثمرة البطاطا، تُطلِق برعماً فور وضعها في التربة.

أما المجموعة الثانية فتضع القصب في الأخاديد، كل اثنتين جنباً إلى جنب بحيث تكون هناك عقدة كل أربع أو ست بوصات. وتتبعهم المجموعة الثالثة بالمعاول؛ فتهيل التراب فوق الساق وتغطيها بعمق ثلاث بوصات.

وفي خلال أربعة أسابيع على الأكثر، تظهر البراعم فوق الأرض، ومنذ ذلك الحين تنمو بسرعة كبيرة. ويُعزق حقل السكر ثلاث مرات، شأن حقل القطن، باستثناء أن جذور القصب تحتاج إلى كمية أكبر من التربة. وعادة ما ينتهي عزق الأرض بحلول الأول من شهر أغسطس. وقبل منتصف شهر سبتمبر، يكون كل ما يلزم للبذور قد تم قطعه وتكديسه في أكوام كما يسمّونها. وفي شهر أكتوبر، تصبح جاهزة للمطحنة أو لمصنع السكر، ثم يبدأ التقطيع العام. ويصل طول نصل سكين القصب إلى خمس عشرة بوصة، وعرضه ثلاث بوصات في المنتصف، ومستدق نحو الطرف والمقبض. وهو نصل رقيق وينبغي الحفاظ عليه حاداً جداً حتى يكون قابلاً للاستخدام في كل الأوقات. ويتولى كل عامل ثالث قيادة العاملين الآخرين على جانبيه؛ فيقوم العامل القائد بضرب الساق بسكينه وينزع الزهرات عنها. ثم يقطع الطرف العلوي الأخضر. ويجب عليه أن يكون حريصاً على قطع كل الأجزاء الخضراء من الجزء الناضج؛ حيث عصير الجزء الأول يفسد دبس السكر ويجعل مذاقه كريهاً. ثم يقطع الساق من الجذر ويلقيه خلفه مباشرة. ويلقي صاحباه على يمينه ويساره بالساق التي قطعاها بالطريقة نفسها فوق الساق الأول. وهناك عربة لكل ثلاث أيادٍ تتبعهم، وتوضع عليها السيقان من قِبل عبيد أصغر سناً،

وتُسحب إلى مصنع السكر والأرض.

إذا صادف المزارع صقيعاً يتم قطع القصب مبكراً وتُرمى بكامل طولها في أخاديد الماء؛ بحيث تغطي الرؤوس أعقاب السيقان. وتظل في هذه الحالة ثلاثة أسابيع أو شهراً من من دون أن تفسد ويتم حمايتها من الصقيع. وبحلول الوقت المناسب، يتم سحبها وتقطيعها وحملها إلى مصنع السكر.

ويدخل العبيد الحقل مجدداً في شهر يناير لإعداده لمحصول آخر، وتكون التربة في هذا التوقيت مغطاة بالأجزاء العليا من أعواد القصب والزهرات التي تم قطعها من قصب العام الماضي. وتوقد النيران في يوم جاف لحرق هذه النفايات القابلة للاحتراق فتجتاح الحقل وتتركه عارياً ونظيفاً وجاهزاً للمعاول. تخلخل التربة عند جذور القصب القديمة، وبمُضي الوقت يحلّ حصاد آخر من بذور العام الماضي. ويتكرر الأمر في السنة التالية. وفي السنة الثالثة تكون البذور قد استنفدت قوتها ويصبح من اللازم حرث الحقل وزراعته مجدداً. ويصبح القصب أحلى في السنة الثانية وأغزر إنتاجاً من العام الأول، ويزيد في العام الثالث عن العام الثاني.

عملتُ خلال المواسم الثلاثة في مزرعة «هوكينز»، وقضيتُ جزءاً كبيراً من هذه الفترة في مصنع السكر. ويُعرف الرجل بأنه ينتج أفضل أنواع السكر الأبيض. وفيما يلي وصف عام لمصنع السكر وعملية التصنيع:

المصنع بناء ضخم من الطوب يوجد على ضفة النهر. وتمتدّ من المبنى سقيفة مفتوحة بطول مائة قدم على الأقل، وبعرض أربعين أو

خمسين قدماً. وتقع الغلاية التي تنتج البخار خارج المبنى الرئيس، بينما توضع المعدات والمحرّك على رصيف من الطوب يرتفع خمس عشرة قدماً عن الأرض داخل المبنى. وتدير الماكينات أسطوانتين ضخمتين من الحديد يبلغ قطرهما قدمين أو ثلاثاً، ويتراوح طولهما بين ست وثماني أقدام. وهما مرتفعتان فوق الرصيف الحجري وتدور إحداهما تجاه الأخرى. وهناك محمل لا نهائي مصنوع من السلاسل والأخشاب مثل السيور الجلدية التي تُستخدم في المطاحن الصغيرة، وتمتد من الأسطوانتين الحديديتين إلى خارج المبنى الرئيس عبر السقيفة المفتوحة بالكامل. أما العربات التي تجلب القصب من الحقل فور قطعها فتضع حمولتها على جانبي السقيفة. وإلى جوار المحمل اللانهائي، تجد العبيد من الأطفال الذين يقومون بوضع القصب فوقه، فينقل عبر السقيفة إلى المبنى الرئيس حيث يقع بين الأسطوانتين ويُسحق ثم يسقط فوق محمل آخر يخرجه من المبنى الرئيس في اتجاه مضادّ، ويوضع على قمة مدخنة أسفلها نيران تستهلكه. ومن الضروري حرقه على هذا النحو وإلا سرعان ما سيمتلئ المبنى، وبصفة خاصة لأنه سوف يفسد ويتسبب في الإصابة بالأمراض. ويسقط عصير القصب في ناقل أسفل الأسطوانتين الحديديتين، ويُحمل إلى خزّان. ثم تنقله الأنابيب من الخزان إلى خمسة مرشّحات تحمل كل منها عدة براميل. تملأ هذه المرشّحات بفحم عظمي؛ وهي مادة تشبه الفحم المسحوق، مصنوعة من العظام المكلّسة في أوعية مغلقة، وتستخدم لأغراض إزالة الألوان عن طريق تصفية عصير القصب قبل غليه. يمر عصير القصب من

خلال هذه المرشّحات الخمسة على نحو متعاقب، ثم إلى خزّان ضخم تحت الأرض يُحمل منه عن طريق مضخة بخارية إلى مُنَقٍّ مصنوع من صفائح الحديد حيث يتم تسخينه بالبخار حتى يغلي. ثم يُحمل من المنقّي الأول في أنابيب إلى مُنَقٍّ ثانٍ ثم إلى مُنَقٍّ ثالث، ومنه إلى كفّات حديدية تمر الأنابيب المملوءة بالبخار من خلالها. وبينما يتدفق في حالة الغليان عبر ثلاث كفّات متتالية، ثم يتم نقله في أنابيب أخرى إلى المبرّدات في الطابق الأرضي. والمبرّدات هي صناديق خشبية ذات قيعان غربالية مصنوعة من أفضل أنواع الأسلاك. وفور أن يمر العصير عبر المبردات ويتعرض للهواء يتحبّب، وينفلت دبس السكر على الفور عبر الغربال إلى صهريج بالأسفل. ومن ثم يصبح هناك سكر أبيض أو مخروطي من أفضل الأنواع؛ نظيفاً ونقياً وأبيض كالثلج. وعندما يبرد يتم إخراجه في براميل كبيرة ويصبح جاهزاً لبيعه في السوق. ويُحمل دبس السكر من الصهريج إلى الطابق الأعلى مجدداً ليتم تحويله من خلال عملية أخرى إلى سكر بنيّ.

وهناك مصانع أكبر تُبنى بشكل مختلف عن تلك التي وصفتها وصفاً أحسبه منقوصاً، كان أشهرها في «بايو بوف». وكان «لامبرت» من «نيو أورليانز» شريكاً لـ «هوكنز». وهو رجل واسع الثراء، يمتلك كما قيل لي حصصاً في أكثر من أربعين مزرعة سكر مختلفة في «لويزيانا».

****

أما فترة الراحة الوحيدة التي ينعم بها العبد في السنة بأكملها، فهي عطلة عيد الميلاد. وكان «إبس» يسمح لنا بثلاثة أيام، بينما كان آخرون

يسمحون بأربعة وخمسة وستة أيام؛ كل وفق درجة كرمه. ففي تلك الفترة فحسب، يتطلعون إلى مضي الأيام باهتمام وسرور، فيسعدون حين يأتي الليل ليس فقط لأنه يجلب لهم ساعات قليلة من الراحة، ولكن لأن ذلك يقرّبهم يوماً من عطلة عيد الميلاد. ويستقبله الجميع، كباراً وصغاراً، بالحبور نفسه؛ حتى إن العم «أبرام» كان يتوقف عن تمجيد «أندرو جاكسون»، وتنسى «باتسي» أحزانها الكثيرة، وسط ذاك المرح العام الذي يسود أيام العطلات. فكانت تلك أوقات الولائم، والرقص، والمرح، وهي بمثابة كرنفال لأبناء العبودية. وتمثل لهم الأيام الوحيدة التي يُسمح لهم فيها بحرية محدودة، يستمتعون بها ملء قلوبهم حقاً.

وكان من المعتاد أن يقيم أحد المزارعين مأدبة «عشاء ليلة الميلاد» ويدعو إليها العبيد من المزارع المجاورة للانضمام إلى العبيد لديه في تلك المناسبة. على سبيل المثال يتولى «إبس» تقديمها في أحد الأعوام، ثم يقوم بها «مارشال» في العام التالي، ثم «هوكينز»، وهكذا. فكان يجتمع من ثلاثمائة إلى خمسمائة شخص في تلك المناسبات، يأتون سيراً على الأقدام، أو في عربات تجرّها الخيل، أو على ظهور الجياد أو البغال التي يركبها اثنان أو ثلاثة، وأحياناً فتى وفتاة، أو فتاة واثنان من الفتيان، أو فتى وفتاة وامرأة عجوز في أحيان أخرى. وكان العم «أبرام» يعتلي بغلاً ومن خلفه العمة «فيبي» و«باتسي» ويتوجهون إلى عشاء عيد الميلاد في مشهد مألوف في «بايو بوف».

كذلك، كانوا يرتدون أفضل ما لديهم من ملابس في ذلك اليوم «من كل أيام العام». فكان يُغسل المعطف القطني كي يكون نظيفاً،

وتُنظف الأحذية بشمع الشحم، وكان سعيد الحظ يعتمر على رأسه قبعة بلا حافة أو تاج. ومع ذلك، كان الجميع يلقون الترحاب نفسه حتى وإن أتوا إلى المأدبة حاسري الرأس وحفاة القدمين. وبشكل عام كانت النساء يربطن رؤوسهن بالمناديل، ولكن إن وضعت الظروف شريطة حمراء في طريقهن، أو قلنسوة تخص جدة السيدة مثلاً، فلا شك أنها ستليق أكثر بالمناسبة. ولا شك أن اللون الأحمر- الأحمر القاني- هو اللون المفضل بين الفتيات من العبيد؛ فإن لم تجد الشرائط الحمراء تُطوّق أعناقهن، تأكّد من أنك ستجد شعورهن معقوفة بخيوط صوفية حمراء من نوع أو آخر.

كانت المنضدة تُمَد في الهواء الطلق ومن فوقها صنوف اللحم والخضراوات، وكانت تقدم في تلك الأوقات وجبات لحم الخنزير المقدّد وكعك الذرة. وأحياناً ما كان الطهي يتم في مطبخ المزرعة، أو في ظل الأشجار واسعة الفروع في أحايين أخرى. وفي الحالة الأخيرة يحفر خندق في الأرض وتُحرق فيه الأخشاب حتى تتحول إلى جمر متوهّج، فيوضع فوقه الدجاج والبط والديك الرومي والخنازير، بل في كثير من الأحيان كان يوضع ثور كامل لشيّه. كما كان العبيد يحصلون على الدقيق لصنع الكعك غالباً مع الخوخ والأطعمة المحفوظة الأخرى، وكذلك التورتات، وكل أنواع الفطائر عدا فطائر اللحم المفروم التي لم تكن معروفة لهم بعد. فقط الرقيق الذين عاشوا تلك السنوات على حصة الذرة والخنزير المقدّد الهزيلة هم من يُقدّرون وجبات العشاء تلك. وكان البيض يجتمعون بأعداد كبيرة لمشاهدة بهجة التذوّق.

كانوا يجلسون حول منضدة ريفية -الرجال في جانب والنساء في الجانب الآخر، ويمكن لأي اثنين منهما تربطهما عاطفة خاصة أن يجلسا قبالة أحدهما الآخر حتى لا تصيب سهام كيوبيد المتناثرة قلوب العبيد. وكانت السعادة والغبطة الصافية تضيء الوجوه الداكنة كلها، فتبزغ الأسنان العاجية في تضادّ مع البشرة الداكنة، لتصنع في النهاية صفّين طويلين من البياض المتصل على طول المنضدة. وحول المائدة الوفيرة، كانت العيون تدور في نشوة، يصحبها صخب الضحك والقهقهة وقعقعة الأواني وأدوات المائدة. وكان مرفق «كوفي» يلكز جانب الجالس بجانبه مثيراً نوبة تلقائية من الضحك؛ بينما «نيللي» تشير بإصبعها إلى «شامبو» وتضحك ربما بلا سبب، وتتدفّق المتعة والفرحة والسعادة.

عندما يختفي الطعام، وتمتلىء معدات الأطفال الكادحين، يحين في ترتيب الاحتفال أوان رقصة عيدِ الميلاد؛ حيث دوري الدائم في تلك الأيام الاحتفالية هو العزف على الكمان. فلا شك أن العرق الإفريقي مُحب للموسيقى ضمن تقاليده؛ والعديد منهم كانوا من بين زملائي العبيد الذين حسّنوا من أدائهم على آلاتهم وأصبح في وسعهم العزف على آلة البانجو الإفريقية بمنتهى البراعة، ولكن عليّ أن أعترف، ولو بدا في ذلك شيء من الغرور، حتى أُذيع عني أنني كنت أعتبر «أولي بول» العزف على الكمان في منطقة «بايو يوف». وكثيراً ما كان سيدي يتلقّى خطابات من مسافة عشرة أميال تطلب منه إرسالي للعزف في أي حفل أو كرنفال للبيض. وكان يحصل على مقابل لذلك، وعادة ما كنت أعود ببعض العملات التي تجلجل في

جيوبي كمساهمة إضافية من هؤلاء الذين سعدوا بما قدّمتُ لهم. ومن ثم أصبحتُ أكثر شهرة مما ينبغي لي أن أكون على طول النهر. وكان شباب وشابّات «هولمزفيل» يعرفون أن هناك احتفالاً في مكان ما متى رأوا «بلات إبس» يمر حاملاً كمنجته في يده. فكان السؤال الذي يصدر عن المستفسرين من كل باب ونافذة هو «إلى أين أنت ذاهب الآن يا «بلات»؟» و«ماذا سيحدث الليلة يا «بلات»؟ وفي كثير من الأحوال عندما لا يكون «بلات» في عجلة من أمره، كان يستجيب للإلحاح فيرفع قوس الكمان ويجلس منفرج الساقين على بغله، وقد يقيم حواراً موسيقياً مع حشد من الأطفال المسرورين المجتمعين حوله في الشارع.

واحسرتاه! لا أعرف كيف كنت سأحتمل سنوات عبوديتي الطويلة لولا كمنجتي الحبيبة. لقد فتحت لي أبواب المنازل الكبيرة، وأعفتني من الكثير من الأعمال اليومية في الحقل، وأمدتني بسبل الراحة في كوخي من غليون وتبغ وزوج إضافي من الأحذية، وكثيراً ما قادتني بعيداً عن حضرة سيّد قاسي القلب لأشهد مشاهد البهجة والفرح. كانت رفيقتي- وأنيستي -تصدح عالياً متى كنت سعيداً، وتترنّم بمواساتها الناعمة والهادئة إذا كنتُ حزيناً. وفي كثير من الأحيان، في منتصف الليل، حين يجافي النوم كوخي، وتضطرب روحي حين أتأمل مصيري، كانت تغني لي أغنية السلام. وفي أيام الأحد المقدسة، حين كان يُسمح لنا بساعة أو اثنتين من الترفيه، كانت تصحبني إلى مكان هادىء على ضفة النهر، فترفع صوتها وتتحدّث إليَّ بلطف وصفاء. كانت تذيع اسمي في أرجاء المنطقة،

وصنعت لي أصدقاء لولاها ما عرفوني، بل كفلت لي مقعداً شرفياً في الأعياد السنوية، وأمّنت لي أعلى وأحرَّ الترحيبات منهم جميعاً في كل رقصات عيد الميلاد. رقصات عيد الميلاد! آه، يا أبناء وبنات الكسل الساعين إلى السعادة، والذين يتحركون بخطوات محسوبة، في تؤدة بالغة كالحلزون في رقصة الحركة البطيئة. إذا أردت أن تنظر إلى السعادة الحقيقية، إن لم يكن «شِعر الحركة» -إلى السعادة الطليقة وغير المقيّدة، فاذهب إلى «لويزيانا» وشاهد العبيد وهم يرقصون في أضواء ليلة عيد الميلاد.

في عيد الميلاد الذي يحضرني الآن، وسأصفه بشكل عام، استهلّت الحفل الآنسة «ليفلي» والسيد «سام»، حيث تتبع الأولى «ستيورات» ويتبع الثاني «روبرتس». وكان من المعروف أن «سام» يحب «ليفلي» حباً جمّاً، وكذلك كان أحد الفتيان لدى «مارشال» وآخر لدى «كاري». كانت «ليفلي» تنبض بالحياة بالفعل، ومغناجاً تأسر القلوب. وكان بمثابة انتصار لـ «سام روبرتس» عندما أعطته يدها للرقصة الأولى بعد الانتهاء من الطعام، في أفضلية له عن منافسيه. فخاب أملهم، وهزّوا رؤوسهم غضباً، وألمحوا إلى أنهم يتمنّون لو استطاعوا الانتقام من السيد «سام» وإيذاءه بشدة. ولكن لم تؤثّر عاصفة الغضب تلك على رباطة جأش «صموئيل» الذي انطلقت ساقاه ترقصان كعصي الطبلة إلى أسفل وإلى أعلى بجوار شريكته الساحرة. فشجّعتهما الصحبة بأكملها، وأثارا عاصفة من التصفيق، واستمرا في الرقص حتى بعدما أنهك الجميع وسكنوا للحظات يلتقطون فيها أنفاسهم. ولكن جهود «سام» الفائقة غلبته في آخر المطاف وترك «ليفلي» تدور

وتلتف بمفردها كقمة جبل. وهنا اندفع أحد منافسي «سام»، ويُدعى «بيتي مارشال»، وبقوة وعنفوان راح يقفز ويراوغ، ويتخذ من جسده كل الأشكال المواتية كما لو أنه قد اعتزم أن يري الآنسة «ليفلي» والعالم بأسره أن «سام روبرتس» عديم الأهمية.

إلا أن ولع «بيتي» كان أعظم من حكمته. وتلك الرقصة العنيفة قد أطاحت بأنفاسه على الفور وسقط كالحقيبة الفارغة. وحان دور «هاري كاري» كي يجرّب حظّه، ولكن سرعان ما تفوّقت عليه «ليفلي» وسط الصيحات والهتافات بما رسّخ سمعتها التي اكتسبتها عن جدارة من كونها «الفتاة الأسرع» في النهر.

وهكذا كان ينتهي أحد الراقصين ليحل الآخر مكانه، وكانت الفتاة أو الفتى الذي يظل أطول فترة فوق أرض الرقص يحصل على الثناء الأعظم، ومن ثم يستمر الرقص حتى ساعات الصباح الأولى، ولا يتوقف مع توقف صوت الكمان وإنما يخترعون لأنفسهم موسيقى خاصة بهم. ويُطلق على ذلك مُسمّى «التربيت» التي تصحب أيّاً من تلك الأغنيات التي لا معنى لها، والتي يتم تأليفها فقط متى تتلاءم مع نغمة محددة أو إيقاع بعينه، بدلاً من أن تهدف إلى التعبير عن فكرة مميزة. ويؤدّى هذا التربيت بالضرب باليدين على الركبتين ثم اليدين معاً، ثم الكتف اليمنى بإحدى اليدين وتليه الكتف اليسرى باليد الأخرى؛ مع إبقاء التزامن مع القدمين والغناء؛ ربما الأغنية التالية:

«جدول هاربر والنهر الثائر
هناك يا عزيزي سنعيش معاً

ثم سنذهب إلى بلاد الهند

حيث كل ما أريد في هذا الكون

هما زوجة صغيرة جميلة ومزرعة كبيرة»

الكورس: أعلى أشجار السنديان وأسفل ذاك النهر

مشرفان وزنجي صغير».

أو أغنية «عين الحمل العجوز» إذا لم يتسنّ تكييف الأغنية الأولى مع الإيقاع، وهي قطعة شعرية حزينة ومذهلة، ولكنها موضع تقدير فقط في الجنوب. وهي كالتالي:

«من كان هنا منذ رحيلي؟

فتاة جميلة ترتدي حزاماً.

عين الحمل!

عين الحمل العجوز!

لم أرَ شيئاً كهذا أبدا،

فتاة صغيرة ترتدي حزاماً.

عين الحمل!

عين الحمل العجوز!»

أو ربما الأغنية التالية؛ ليس لها معنى كذلك، ولكنها ذات لحن جميل وهي تتدفّق من أفواه الزنوج:

«إيبو ديك وجوردان جو

زنجيان سرقاني

الكورس: يحجل جيم

يمشي جيم

يتحدث جيم

دان العجوز الأسود؛ أسود كالقطران

كان سعيداً جداً أنه لم يكن هناك

الكورس: يحجل جيم

يمشي جيم

يتحدث جيم».

وخلال العطلات الأخرى التي تعقب عيد الميلاد، كان العبيد يحصلون على تصاريح، ويُسمح لهم بالذهاب حيثما أرادوا ضمن مسافة محددة، أو يمكنهم العمل في المزرعة فيحصلون على أجر في هذه الحالة. ومع ذلك كان من النادر أن يُقبل هذا البديل الأخير. وكان من الممكن رؤيتهم في تلك الأوقات وهم يسرعون في كل الاتجاهات، سعداء ومعنوياتهم مرتفعة كأكثر ما يكون على وجه الأرض، وكأنهم كائنات مختلفة عن تلك الموجودة في الحقول؛ الاسترخاء المؤقت، والتخلّص الوجيز من الخوف، ومن السوط، بما يسفر عن كائن مختلف تماماً في شكله وسلوكه. وزيارة الصداقات القديمة أو تجديدها، أو اكتساب علاقات جديدة عن طريق الصدفة، أو السعي نحو أي مسرّات؛ كلها خيارات مطروحة في تلك الأوقات.

كانت تلك هي الحياة في الجنوب على حقيقتها؛ ثلاثة أيام كل عام بينما الثلاثمائة واثنان وستون يوماً الأخرى كلها مخصصة للشقاء، والتعب، والخوف، والمعاناة، والعمل المتواصل.

كثيراً ما كانت الزيجات تتم في أثناء العطلات، إذا كان هناك ما يُطلق عليه هذه التسمية بينهم. فالمراسم الوحيدة التي تلزم قبل الدخول في هذه «الحالة المقدّسة» هي الحصول على موافقة المالكين المعنيين. وعادة ما يشجع الأسياد هذا فيما يتعلق بالرقيق من النساء. ويجوز لأي طرف أن يكون لديه العديد من الأزواج أو الزوجات على النحو الذي يسمح به المالك، ويجوز لأي من الزوجين رفض الآخر في أي وقت. فالقانون فيما يتعلق بالطلاق، أو تعدّد الزوجات، وما إلى ذلك، لا ينطبق على الممتلكات بالطبع. فإذا لم تكن الزوجة تتبع المزرعة ذاتها التي ينتمي إليها الزوج، يُسمح له بزيارتها في ليالي الأحد إذا لم تكن المسافة بعيدة جداً. كانت زوجة العم «أبرام» تعيش على مسافة سبعة أميال من مزرعة «إبس» على «بايو هاف باور». وكان يُسمح له بزيارتها مرة واحدة كل أسبوعين، ولكن قد بات مُسنّاً كما يُقال، والحق أنه ربما قد نسيها مؤخراً. فلم يكن لدى العم «أبرام» وقت ليستقطعه من تأملاته بشأن «جنرال جاكسون»، أما متعة الزواج فتتناسب مع الشباب الطائش فارغ الذهن، ولكنهم لا يصبحون فلاسفة يتسمون بالرزانة والوقار مثله.

الفصل السادس عشر

كنت أعمل بشكل مستمر في مزرعة السيد «إبس»، باستثناء رحلتي إلى أبرشية «سانت ماري»، وغيابي أثناء موسم قطع القصب. وكان يعتبر مزارعاً صغيراً لا يمتلك عدداً كافياً من الأيدي، ومن ثم لا يحتاج إلى خدمات المشرف، وكان يتولّى مهام تلك الوظيفة بنفسه. ونظراً إلى أنه لم يستطع زيادة العاملين لديه، اعتاد أن يستأجر بعضهم في موسم جمع القطن المتعجّل.

أما في المزارع الأكبر، حيث يعمل خمسون أو مائة، أو حتى مائتين، فلا غِنى عن المشرف. فهذا الرجل يذهب إلى الحقل معتلياً جواده وحاملاً، من من دون استثناء حسب علمي، مسدسات، وخنجراً، وسوطاً، ويصحبه الكثير من الكلاب. وهم يذهبون، مسلّحين كما ذكرت، خلف العبيد ويراقبونهم جميعاً عن كثب. أما المؤهلات التي يلزم تواجدها في المشرف فهي الجفاء الشديد، والوحشية، والقسوة العارمة. فمن صميم عمله أن ينتج محصولاً ضخماً، ولا بديل عن أن يتحقق هذا بغض النظر عن المعاناة التي قد تلزم. كما أن وجود الكلاب ضروري لردع أي هارب قد يفكّر في الفرار، كما يحدث أحياناً، متى أصابه التعب أو المرض أو أصبح غير قادر على البقاء في صفّه، ولا يحتمل كذلك لهيب السوط. أما المسدسات فتلزم لحالات

الطوارىء الخطرة، وقد رأينا مواقف استلزمت استخدامها. ففي ظل الجنون الخارج عن السيطرة، حتى العبد قد ينقلب على ظالمه. كانت المشانق تُعلّق في «ماركسفيل» في يناير الماضي، حيث شُنق شخص منذ عام مضى لأنه قتل المشرف عليه. حدث ذلك على مسافة بضعة أميال من مزرعة «إبس» على «رد ريفر». كان العبد قد تولّى مهمة تقسيم القضبان، وأرسله المشرف في أثناء اليوم في مهمة ما استغرقت الكثير من الوقت ولم يستطع إنجاز عمله الأساسي. وفي اليوم التالي استُدعي للحساب، ولم يكن غيابه لتلك المهمة سبباً كافياً، وأُمر بأن يركع عاري الظهر لاستقبال الجلدات. وكانا بمفردهما في الغابة، بعيداً عن مرأى أو مسمع أي شخص. وبالفعل استسلم الفتى حتى جُنّ جنونه من جرّاء هذا الظلم الفادح، وأفقده الألم صوابه، فوثب على كتفيه ممسكاً بفأس، وعمد إلى تقطيع جسد المشرف إلى أجزاء. ولم يحاول الاختباء بأي حال، بل أسرع إلى سيده وحكى له تفاصيل ما حدث، واعترف أنه على استعداد لأن يفقد حياته نظير الذنب الذي اقترفه. وسيق إلى منصّة الإعدام، وحين التف الحبل حول عنقه لم تكن ملامحه تحمل أيّاً من إمارات الهيبة أو الخوف، وبرّر فعلته بكلماته الأخيرة.

وتعمل تحت إمرة المشرف مجموعة المُسيّرين، ويتحدّد عددهم بالتناسب مع عدد العاملين في الحقل. وهم من السود الذين يتولّون شأن جلد الأفراد في المجموعات التي يُسيّرونها، علاوة على أداء حصة مساوية من العمل. تعلّق الأسواط حول أعناقهم، وإذا لم يستخدموها استخداماً شاملاً، يتعرّضون للجلد. غير أنهم يتمتعون

بقليل من المزايا الضئيلة، فمثلاً، لا يُسمح عند قطع القصب أن يجلس العامل لفترة تكفي لأن يتناول غداءه، فتُدفع العربات اليدوية التي تحمل كعك الذرة المطهي في المطبخ إلى داخل الحقل عند الظهيرة. ويوزّع المسيّرون الكعك، على أن يتم تناوله من دون تأخير.

وحين يجف عرق العبد، وهو ما يحدث غالباً حين يتجاوز عمله قدرته على التحمّل، فإنه يسقط على الأرض ويصبح عاجزاً تماماً. وهنا يأتي دور المُسيّر في جرّه إلى ظل القصب أو القطن التي لا تزال قائمة، أو إلى ظل شجرة قريبة، فيهيل عليه دلاء الماء، ويستخدم سبلاً أخرى حتى يعاود جسده التعرق ويُدفع إلى العمل في الحقل مجدداً.

وفي «هاف باور»، حين أتيت إلى مزرعة «إبس» أول مرة، كان «توم» مُسيّراً هناك، وهو أحد الزنوج التابعين لمزرعة «روبرت». وكان رجلاً قويّ البنية وحاداً للغاية. وبعد انتقال «إبس» إلى «بايو بوف» مُنحت أنا هذا الشرف العظيم. وحتى وقت رحيلي كان يتعين عليَّ أن أضع سوطاً حول عنقي في أثناء تواجدي في الحقل. وفي الأوقات التي كان يتواجد فيها «إبس» لم أكن أجرؤ على إظهار أي تسامح، ولم يكن لديَّ الثبات المسيحي الذي كان يتمتع به «العم توم» المعروف؛ كي أقف في وجه غضب «إبس» إذا ما رفضت القيام بمهام منصبي. وبهذه الطريقة فحسب، نجوتُ من الشهادة التي لحقت به، بل وجنّبتُ رفاقي الكثير من المعاناة في نهاية الأمر. وسرعان ما علمت أن «إبس» يُبقي عينيه علينا بشكل عام، سواء في أثناء تواجده في الحقل أو في غيابه. فمن الفناء، من وراء بعض الأشجار القريبة، أو من أي نقطة مراقبة أخرى لا نراها، كان يراقبنا باستمرار. فإذا تباطأ

أي منا أو تخلّف في أي وقت من اليوم، كان يخبرنا بما حدث تماماً عند رجوعنا إلى المساكن. وكانت مسألة مبدأ بالنسبة إليه أن يعاقب كل مذنب عن أي ذنب اقترفه على هذا النحو ويعلم به «إبس»، بل أنال أنا أيضاً عقابي لأنني قد سمحت بهذا التراخي.

وعلى الصعيد الآخر، كان يرضيه أن يراني وأنا أستخدم السوط بحرّية. «الممارسة تخلق الكمال» حقاً؛ وخلال خبرة السنوات الثماني التي عملتُ فيها مُسيّراً تعلمت استخدام السوط بدقة وبراعة تامتيْن، فكنت أرمي السوط على بُعد شعرة واحدة من ظهر العبد، أو أذنه، أو أنفه، ولكن من دون أن أمّس أيّا منها. فإذا كان «إبس» يراقبنا من بعيد، أو إذا خامرنا شعور بأنه يسترق النظر إلى المنطقة من مكان ما، كنت أبدأ على الفور في إعمال السوط بكثافة، وكانوا، وفق اتفاقي معهم، يتشنّجون ويصيحون كما لو أنهم يتألمون بالفعل، على الرغم من أن السوط لم يمس أيّاً منهم فعلاً. وكانت «باتسي» تنتهز أوقات وجوده في الحقل لتغمغم بالشكوى من أن «بلات» يجلدهم بالسوط طوال الوقت، فيما يقول العم «أبرام» ببراءته التي تليق به أن جلداتي أشد قسوة من جلدات «الجنرال جاكسون» للأعداء في «نيو أورليانز». فإذا لم يكن «إبس» ثملاً أو في إحدى نوبات مزاحه الوحشي، ما كان هذا ليرضيه في العموم. أما إذا كان كذلك، فيعني هذا أن واحداً منّا أو أكثر يجب عليه أن يعاني بطبيعة الحال. وأحياناً ما كان عنفه يتخذ منحى خطيراً، ويضع حياة البشر على المحك. أذكر في إحدى المرات، أن هذا المجنون الثمل فكّر في أن يتسلّى بقطع عنقي!

كان غائباً في «هولمزفيل» لحضور مباراة في الصيد، ولم يكن أي

منّا قد علم بعودته. وبينما كنت أقوم بعزق الأرض بجوار «باتسي» قالت متعجّبة في صوت خفيض: «بلات.. هل ترى أن «هوغ-جو» العجوز يستميلني كي أذهب إليه؟».

فنظرتُ بطرف عيني ورأيته على حافة الحقل، يومئ مقطّباً جبينه كما يفعل دائماً حين يكون نصف ثمل. وعندما أدركنا ما يعتزم فعله، بدأت «باتسي» تبكي. همستُ لها ألا ترفع عينيها وألا تنظر تجاهه وأن تواصل عملها كما لو أنها لم تلحظه. ولكنه ارتاب في حقيقة الأمر وسرعان ما اندفع تجاهي في غضب شديد، وسألني مطالباً وهو يرعد ويزبد: «ماذا قلت لـ «باتسي»؟ ورددتُ عليه بإجابة مراوغة لم تسفر إلا عن الإمعان في حدّة عنفه.

فسألني في سخرية خبيثة: «منذ متى وأنت تمتلك هذه المزرعة أيها الزنجي الملعون؟»، وأمسك في الوقت ذاته بياقة قميصي بيد، بينما دسّ يده الأخرى في جيبه وهو يقول: «سوف أقطع عنقك الأسود الآن؛ أقسم إني سأفعل»، وأخرج من جيبه سكيناً. ولكنه لم يستطع فتحها بيد واحدة حتى أمسك النصل أخيراً بأسنانه ورأيتُ أنه قد ينجح فعلا فيما اعتزمه، وشعرتُ بضرورة الفرار منه، حيث في حالته الثملة تلك كان واضحاً أنه لا يمزح بأية حال. كان قميصي مفتوحاً من الأمام، وبينما استدرتُ مسرعاً كي أنفلت منه كان لم يزل قابضاً على القميص حتى انخلع تماماً من ظهري؛ فلم يكن من الصعب التملص منه. فراح يطاردني حتى انقطعت أنفاسه فوقف برهة، كال لي فيها الشتائم قبل أن يعاود المطاردة مجدداً. ثم أمرني بأن آتي إليه وحاول ملاطفتي كي أفعل، ولكنني كنتُ حريصاً على أن أستبقي

بيننا مسافة كافية. وعلى هذا النحو، قطعنا الحقل في عدة دوائر وهو يحاول محاولات يائسة اللحاق بي، لكنني كنتُ أنجح دائماً في مراوغته وربما وجدتُ الأمر مسلياً أكثر منه مخيفاً، وكنت على يقين من أنه سوف يضحك على حماقته تلك فور أن يفيق من ثمالته. وأخيراً لمحتُ السيدة تقف عند سور الفناء وترقب مناوراتنا نصف الجادة ونصف المازحة من مكانها، فاندفعتُ من خلفه وركضتُ صوبها. ولما أدرك «إبس» ذلك لم يتبعني. وظلّ بعد ذلك في الحقل فترة ساعة أو أكثر وقفتُ في أثنائها بجوار السيدة وقد حكيتُ لها تفاصيل ما كان بيننا، فثار غضبها مجدداً، وراحت تلعن زوجها و«باتسي» على حدّ سواء. وأخيراً ذهب «إبس» صوب المنزل وقد استعاد رصانته بشكل كبير وراح يخطو بشكل رزين ومتزّن، وقد عقد يديه خلف ظهره، وحاول أن يبدو بريئاً كطفل.

ومع ذلك، بينما كان يقترب من المنزل، بدأت السيدة «إبس» في توبيخه بشدة، ونعتته بالكثير من النعوت السيّئة، وسألته عن سبب محاولته قطع عنقي. وهنا افتعل «إبس» أنه لا يعرف شيئاً عمّا تقول على الإطلاق، ومما أدهشني أنه أقسم بكل القديسين الكائنين في التقويم الشهري أنه لم يتحدّث إليَّ على الإطلاق في ذاك اليوم، ثم صاح تجاهي بتبجح ووقاحة قائلاً: «بلات، أيها الزنجي الكاذب، هل حادثتك اليوم؟!».

ليس من السلامة في شيء أن تعارض سيدك، حتى وإن كان لأجل الحقيقة. ومن ثم التزمتُ الصمت، وفور أن دخل إلى المنزل عدتُ أنا إلى الحقل، ولم نخُض في هذه المسألة مجدداً أبداً.

بعد فترة وجيزة من تلك الواقعة، خطر لي أن أكشف عن اسمي الحقيقي وتاريخي، وهو الأمر الذي حرصتُ طويلاً على إخفائه، وكنت مقتنعاً بأن هروبي الأخير يعتمد عليه. بعيد أن اشتراني «إبس» سألني إن كنتُ أجيد الكتابة والقراءة، وعندما أخبرته أنني قد تلقيتُ شيئاً من تعليم في بعض الفروع، أكّد لي أنه إن رآني أمسك بكتاب، أو قلم وحبر، فسوف يجلدني مائة جلدة. وقال إن عليَّ أن أفهم جيداً أنه قد اشترى «زنوجاً» للعمل لا للعِلم. ولم يحدث أبداً أن سأل عن حياتي الماضية أو من أين أتيت، في حين أن السيدة سألتني كثيراً عن واشنطن التي افترضت أنها مسقط رأسي، بل ألمحت أكثر من مرة أنني لا أتحدث أو أتصرف شأن «الزنوج الآخرين»، وأنها على يقين من أنني قد رأيتُ من هذا العالم أكثر مما أزعم.

كان هدفي الأسمى ابتكار طريقة كي أرسل بها رسالة سراً إلى مكتب البريد موجّهة إلى بعض أصدقائي أو إلى أسرتي في الشمال. ولا يمكن إدراك صعوبة تحقيق ذلك من قِبل من لم يعرف القيود الصارمة التي كانت مفروضة عليَّ آنذاك. ففي المقام الأول، كنت محروماً من الحصول على أي ورقة وقلم وحبر. والعبد لا يستطيع ترك مزرعته من من دون تصريح، كما أن مكتب البريد لن يرسل رسالة مقدمة منه إلا بتعليمات خطية من مالكه. وقد مكثتُ في أغلال العبودية تسع سنوات قضيتها حذراً ومنتبهاً قبل أن أحظى بفرصة الحصول على ورقة. فبينما كان «إبس» في «نيو أورليانز» ذات شتاء كي يبيع القطن، أرسلتني السيدة إلى «هولمزفيل» بأمر شراء العديد من الأشياء، وكان من بينها مجموعة من الأوراق، فاستبقيت ورقة منها في كوخي تحت

اللوح الذي أنام فوقه.

ونجحتُ بعد عدة تجارب في صنع الحبر عن طريق غلي لحاء القيقب الأبيض، وباستخدام ريشة انتُزعت من جناح بطة صنعتُ القلم. وعندما نام الجميع في الكوخ، استطعتُ في ضوء الفحم، مستلقياً فوق أريكتي الخشبية، أن أكتب رسالة طويلة نوعاً، ووجّهتها إلى أحد معارفي القدامى في «ساندي هيل» وقد شرحتُ له فيها حقيقة موقفي، وحثثته على اتخاذ التدابير اللازمة كي أستعيد حريتي. واحتفظتُ بهذه الرسالة لفترة طويلة أتحيّن تدابير آمنة كي أودعها في مكتب البريد. وأخيراً أتانا شخص رقيق الحال يُدعى «أرمزباي». كان غريباً عن الناحية وقد أتى إلى المزرعة بحثاً عن وظيفة مشرف، وتقدّم بالفعل إلى «إبس» ومكث في المزرعة عدة أيام. ثم ذهب إلى مزرعة «شو» القريبة منّا ومكث فيها عدة أسابيع. عادة ما كانت تحيط بـ «شو» شخصيات تافهة؛ حتى هو ذاته كان معروفاً بكونه مقامراً ورجلاً بلا مبدأ. وكان قد تزوّج من أَمَتِه «شارلوت» ومن ثم نشأ في منزله سلالة من الخلاسيين. وخسر «آرمزباي» الكثير من مكانته حتى أُجبر على العمل مع العبيد الآخرين. وكان مشهد رجل أبيض يعمل في الحقل مشهداً نادراً وغير معتاد في «بايو بوف». وقد اجتهدتُ وتحيّنتُ كل الفرص كي أعضّد معرفتي به سراً؛ أملاً في اكتساب ثقته بحيث أستطيع إعطاءه الرسالة. كان يذهب إلى «ماركسفيل» كثيراً كما أخبرني، وهي مدينة تقع على مسافة عشرين ميلاً، وفكّرتُ أنه يمكنه إرسال الرسالة من هناك.

درستُ بعناية الطريقة المثلى للتحدّث إليه حول هذا الموضوع،

وانتهيتُ إلى سؤاله ببساطة ما إذا كان في وسعه أن يودع لي رسالة في مكتب بريد «ماركسفيل» في زيارته التالية لها، من من دون أن أكشف له عن موضوع الرسالة أو أي من التفاصيل المتضمّنة فيها. فقد كنتُ خائفاً من أن يفضح أمري، وفضّلتُ أن أخفي عنه الدافع وراء الرسالة من باب الحذر حتى أتأكد من سلامة أن أفضي إليه. وفي الساعة الواحدة من إحدى الليالي، انسللتُ من كوخي وعبرتُ الحقل حتى مزرعة «شو»، ووجدته نائماً في الفناء. كان معي القليل من المال الذي ربحته من عزفي على الكمان، ولكني وعدته بأن له كل ما أمتلك في العالم إذا ما أسدى لي هذا الصنيع. وتوسّلت إليه ألا يكشف أمري إن لم يستطع أن يلبّي لي طلبي. وأكّد لي بشرفه أنه سوف يودعه مكتب البريد في «ماركسفيل»، وأنه سيبقي الأمر سراً إلى الأبد. وبرغم أن الرسالة كانت في جيبي آنذاك إلا أنني لم أجرؤ على تسليمها له، وقلت له بدلاً من ذلك إنني سوف أكتبها في غضون يوم أو اثنين، وتمنّيت له ليلة طيّبة وعدتُ إلى كوخي. كان من المستحيل أن أتخلّص من كل شكوكي دفعة واحدة، وظللتُ مستيقظاً طوال الليل أحاول أن أتخذ القرار بشأن الوسيلة الأكثر أمناً التي يمكنني اتباعها. كنت راغباً في المخاطرة بشكل كبير كي أحقق هدفي، ولكن إذا وقعت الرسالة في يد «إبس» بأي طريقة، فستكون ضربة قاضية لكل طموحاتي، وكنت «في أقصى حدود حيرتي».

كانت شكوكي في محلّها كما اتضح فيما بعد. فبعد ذلك بيومين، بينما كنت أقوم بقطع القطن في الحقل، جلس «إبس» على السياج بين مزرعة «شو» ومزرعته في موضع يمكّنه من الإشراف على مشهد

العاملين. وسرعان ما ظهر «أرمزباي»، وارتقى السياج، وجلس بجواره حيث بقيا هكذا ساعتين أو ثلاث ساعات، قضيتها أنا في حالة رعب مؤلمة.

وفي تلك الليلة، بينما كنت أقوم بشي لحم الخنزير، دخل «إبس» الكوخ يحمل سوطاً من الجلد الخام في يده، وقال:

«حسناً يا فتى. لقد علمتُ أن لديَّ زنجياً متعلماً يكتب الرسائل ويحاول مع رجال من البيض أن يرسلوها إليها. وكنتُ أتساءل إذا ما كنت تعرف من هو؟»

وهكذا تحقّقت أسوأ مخاوفي، وعلى الرغم من صعوبة التصديق، حتى في ظل الموقف الراهن، إلا أن اللجوء إلى الكذب وتزييف الحقائق كان الملجأ الوحيد الواضح آنذاك. فأجبته وأنا أفتعل الجهل بالموضوع والدهشة منه: «لا أعرف شيئاً عن هذا يا سيدي «إبس». لا أعرف شيئاً على الإطلاق يا سيدي».

«ألم تكن أنت من ذهب إلى مزرعة «شو» في الليلة قبل الماضية؟».

«كلا يا سيدي».

«ألم تطلب من «أرمزباي» أن يرسل لك رسالة بريدية من «ماركسفيل»؟».

«كلا يا سيدي، فأنا لم أتحدّث معه مطلقاً في حياتي، ولستُ أفهم ما تعنيه».

«حسناً، لقد أخبرني «أرمزباي» اليوم أن هذا الشيطان هو أحد الزنوج؛ وأن لديَّ من بين العبيد من ينبغي مراقبته عن كثب وإلا سيهرب. وعندما سألته عن السبب قال إنك قد ذهبت إليه في

مزرعة «شو» وأيقظته في الليل لتطلب منه أن يحمل منك رسالة إلى «ماركسفيل»، فماذا لديك لتقوله عن هذا؟»

فأجبته: «كل ما لديَّ لأقوله يا سيدي، هو أن الأمر يخلو تماماً من الحقيقة. فكيف لي أن أكتب رسالة من من دون حبر أو ورقة؟ كما أنه لا يوجد من أكتب له رسالة، وليس لي أصدقاء أحياء. إن «أرمزباي» رجل كاذب ويثمل كثيراً، ولا يصدّقه أحد بالأساس. أنت تعرف أنني لا أكذب أبداً، وأنني لا أترك المزرعة من من دون تصريح. ويمكنني الآن أن أرى بوضوح غرض «أرمزباي» من هذه القصة. ألم يرغب في أن تعيّنه مشرفاً في هذه المزرعة؟».

«بلى، لقد طلب منّي أن أوظفه هنا».

«هذا هو الأمر. هو يريدك أن تصدق أننا جميعاً نرغب في الفرار، ويعتقد أنك ستفكر في تعيين مشرف لمراقبتنا. لقد اختلق هذه القصة حتى يصنع منها موقفاً لصالحه. الأمر برمّته كذبة يا سيدي، ولك أن تعتمد على هذا».

أخذ «إبس» يفكر برهة وقد بدا ميّالاً لمعقولية نظريتي، ثم قال متعجباً: «اللعنة عليَّ يا «بلات» إذا لم أصدق أنك تقول الحقيقة. لا بد أنه استخف بي كي يظن أنه قد يأتيني بحكاية كتلك، أليس كذلك؟ ربما ظنّ أنه يستطيع خداعي؛ ربما يظن أنني لا أعرف شيئاً، وأنني لا أستطيع أن أتولّى شأن الزنوج لديَّ! «إبس» العجوز المغفل! ها.. ها.. ها! اللعنة عليك يا «أرمزباي»! أطلق الكلاب عليه يا «بلات»، وراح يطلق الكثير من هذه التعليقات الوصفية لشخصية «أرمزباي» بشكل عام، وقدرته على الاعتناء بأعماله والاهتمام «بزنوجه»، ثم ترك

السيد «إبس» الكوخ وذهب. وما إن اختفى حتى ألقيتُ بالرسالة في النار، وبقلب يعتصره اليأس شاهدت الرسالة التي كلّفتني الكثير من القلق والتفكير، والتي أمَلتُ بشغاف القلب أن تسبقني إلى أرض الحرية، شاهدتها وهي تهتز وترتجف بين قطع الفحم وتذوي رماداً ودخاناً. ثم حدث أن تم استبعاد «أرمزباي» الحقير الخائن من مزرعة «شو» بعد ذلك بفترة قصيرة، وارتحتُ لذلك كثيراً؛ لأنني خشيتُ أن يجدّد حديثه وربما يقنع «إبس» أنني قد خدعته.

لم أعد أعرف الآن ما إذا كان عليَّ أن أواصل السعي نحو خلاصي. فكلما أشرقت الآمال في قلبي انسحقت وسبّبت لي الحزن والشقاء. كان صيف حياتي يذوي وبدأت أشعر بتلابيب الهَرم مبكراً؛ فبضع سنوات أخرى من الكدح والحزن، والهواء الخانق والسام في المستنقعات، لا بد أن تترك آثارها عليَّ حتى تلقي بي في ثنايا القبر لأبلى وأُنسى. ونظراً إلى ما شعرت به من إحساس بالصدمة والخيانة وضياع الأمل، لم أستطع إلا أن أرتمي فوق الأرض وأنتحب بحزن لا يوصف. فلقد كان أمل إنقاذي هو شعاع الضوء الوحيد الذي يلقي بصيصاً من الراحة في قلبي. والآن وقد صار مرتعشاً وخافتاً وخفيضاً، ثمة خيبة أمل أخرى بدّدته تماماً، وتركتني أتلمس طريقي في ظلمة منتصف الليل تلك وحتى آخر يوم في حياتي.

الفصل السابع عشر

كان عام 1850، وهو الوقت الذي وصلت إليه الآن، حاذفاً العديد من الوقائع التي قد يجدها القارئ رتيبة، عاماً تعيساً لصديقي «ويلي»، زوج «فيبي»، الذي بقي في خلفية القصة حتى الآن، ربما لطبيعته قليلة الكلام والميّالة إلى العزلة. فبصرف النظر عن أن «ويلي» كان نادراً ما يفتح فمه ليتحدّث، ومكث يدور في فلكه الغامض غير المُدعى من من دون أي شكوى، إلا أن عناصر السلوك الاجتماعي الدافئة كانت قوية في عُمق هذا «الزنجي» الصامت. ففي اعتماده المفرط على ذاته، وتجاهله فلسفة العم «أبرام»، وعدم الاهتمام بنصائح العمّة «فيبي» على الإطلاق، كان من الغباء والحمق البيّن ليقوم بزيارة إلى كوخ مجاور من من دون تصريح.

كان جذاباً جداً ذاك المجتمع الذي وجد فيه نفسه حتى إن «ويلي» قلّما كان يلحظ مرور الساعات، وكثيراً ما كان الضوء يشرع في إطلالته من الشرق قبل أن ينتبه، فيحثّ الخطى بأسرع ما يمكنه نحو المزرعة؛ أملاً في أن يصل قبل انطلاق النفير؛ ولكن للأسف لحظته مجموعة من الخفر على الطريق.

لا أعرف كيف يبدو الأمر في بقاع العبودية الداكنة الأخرى، ولكن في «بايو بوف» هناك مؤسسة للخفر كما يُطلق عليهم، ويتمثل

عملهم في اعتقال وجلد أي عبد قد يجدونه يتجوّل خارج المزرعة. فهم ينطلقون فوق ظهور الجياد يتقدمهم رئيس، ويمضون مسلّحين تصحبهم الكلاب. ويحق لهم، سواء بالقانون أو بالموافقة العامة، توقيع عقاب تقديري على أي رجل أسود يمسكون به خارج حدود ضيعة سيده من من دون تصريح، بل وقتله إذا حاول الفرار. ولكل مجموعة مسافة يقطعونها جيئة وذهاباً على النهر، ويحصلون على أجر من المزارعين الذين يسهمون في هذا الأجر بشكل تناسبي مع عدد العبيد الذي يمتلكه كل منهم. وكان يمكن سماع طقطقة سنابك خيولهم المندفعة طوال ساعات الليل، وكثيراً ما كنّا نراهم وهم يسوقون أحد العبيد أمامهم، أو يقودونه بحبل مربوط حول عنقه، حتى مزرعة صاحبه.

حاول «ويلي» الفرار من إحدى تلك المجموعات ظناً منه أنه يستطيع الوصول إلى كوخه قبل أن يعتقلوه؛ إلا أن أحد كلابهم المفترسة الكبيرة أمسك به من قدمه واعتقلوه على الفور. وعمد الخفر إلى جلده بقسوة، ثم جلبوه سجيناً إلى «إبس»؛ حيث جلده هو الآخر ربما بشكل أكثر قسوة حتى تقرّح جسده جرّاء الجلد وعضّ الكلب، وتصلّب وأصابه الهزال، حتى صار بالكاد قادراً على الحركة. وكان من المستحيل عليه وهو على هذه الحالة أن ينتهي من الصف المحدد له في الحقل، فلم تكن من النهار ساعة إلا ويذوق «ويلي» لدغة الجلد الخام من سوط سيده على ظهره الدامي. وأصبحت معاناته غير محتملة حتى قرّر الفرار أخيراً. ومن من دون أن يُفضي باعتزامه الهرب إلى أي منّا، بمن في ذلك زوجته «فيبي»، اتخذ «ويلي» ترتيباته لتنفيذ خطة

الهروب الخاصة به. فما كان منه إلا أن قام بطهي حصته الأسبوعية كاملة، ثم ترك الكوخ في حذر في ليلة أحد بعد أن نام الجميع. وعندما انطلق النفير في الصباح لم يكن «ويلي» موجوداً. وبدأ البحث عنه في الأكواخ، وفي مخزن الذرة، ومحلج القطن، وفي كل زاوية وركن في المكان. كما تم التحقيق معنا جميعاً لمعرفة ما إذا كان لدى أي منّا أي معلومات ربما تلقي الضوء على اختفائه المفاجىء ذاك أو المكان الذي علّه ذهب إليه. أما «إبس» فقد هاج وماج، ثم اعتلى جواده وراح يصول في المزارع المجاورة ليسأل الجميع عنه في كل الاتجاهات. إلا أن كل هذا البحث كان عقيماً، ولم يتوصلوا إلى أي شيء يخبر عن هذا الرجل المفقود. كما تم إطلاق الكلاب إلى المستنقع، إلا أنها لم تقتفِ له أثراً وكانت تدور عبر الغابة وهي تلصق أنوفها بالأرض، ولكنها سرعان ما كانت تعود إلى النقطة التي بدأت منها.

وهكذا هرب «ويلي» في سرية تامة وحذر بالغ، وتمكّن من مراوغة الجميع وإرباكهم. ومضت أيام، وحتى أسابيع، لم نسمع فيها شيئاً عنه. ولم يفعل «إبس» شيئاً سوى السبّ واللعن. وكان ذاك هو الموضوع الوحيد الذي يشغلنا ونتحدث عنه فور أن نصبح بمفردنا. وانغمسنا في قدر كبير من التكهنات بشأن «ويلي»، اقترح أحدهم أنه ربما قد غرق في أحد الجداول لأنه كان لا يجيد السباحة؛ واقترح آخر أنه ربما التهمته التماسيح أو لدغته أفعى سامة أردته قتيلاً في الحال. ولكن المشترك بيننا جميعاً كان التعاطف الشديد مع «ويلي» أياً كان مكانه أو ما حدث له. وكثيراً ما صلّى العم «أبرام» لأجله، داعياً له بالسلامة في تجواله.

وبعد مرور ثلاثة أسابيع، حين فقدنا جميعاً الأمل في رؤية «ويلي» مرة ثانية، وجدناه ذات يوم يظهر بيننا. وقال إنه حين ترك المزرعة كان يعتزم الذهاب إلى «كارولينا الجنوبية»؛ إلى ضيعة السيد «بوفورد» القديمة. وبقي طوال اليوم مختبئاً - أحياناً في فروع الأشجار - وخاض المستنقعات ليلاً. وأخيراً، في فجر أحد الأيام، وصل شاطىء «رد ريفر». وبينما وقف هناك يفكر كيف سيعبر النهر، بادره رجل أبيض وطلب منه إبراز تصريحه. ومن من دون التصريح، كان من الجليّ أنه عبد هارب وتم أخذه إلى الإسكندرية، وهي المدينة الإدارية لأبرشية «رابيدس»؛ حيث وضعوه في السجن. وحدث بعد ذلك بعدة أيام أن كان «جوزيف بي روبرتس» عمّ السيدة «إبس» في الإسكندرية، وتعرّف إليه عندما دخل إلى السجن. وكان «ويلي» قد عمل في مزرعته عندما كان «إبس» يسكن في «هاف باور». فما كان منه إلا أن سدّد كفالته وكتب له تصريحاً دوّن فيه ملحوظة إلى «إبس» بألا يقوم بجلده عند عودته، وأُرسِل «ويلي» إلى «بايو بوف» ثانية. وبينما كان «ويلي» يقترب من المزرعة كان أمله منعقداً على هذا الطلب، وأكّد له «روبرتس» أن سيد «إبس» سوف يحترم رغبته تلك. ومع ذلك لم يلتفت «إبس»، كما هو متوقّع طبعاً، إلى هذا الطلب على الإطلاق. وبعد أن استبقى «ويلي» في وجله وترقّبه ثلاثة أيام، تم تجريده من ملابسه وعانى واحدة من نوبات الجلد اللاإنسانية التي عادة ما يخضع لها هذا العبد المسكين. وكانت تلك هي محاولة الهرب الأولى والأخيرة التي أقدم عليها «ويلي»؛ فالندبات الطويلة التي سيحملها ظهره إلى القبر ظلّت تذكره بمغبّة هذه الخطوة.

لم يمضِ يوم طوال السنوات العشر التي بقيتُ فيها لدى «إبس» لم أفكّر فيه فِي احتمال الهروب. ووضعتُ لذلك خططاً كثيرة كنت أراها في وقتها خططاً ممتازة، ولكني كنت أهملها يوماً بعد آخر. وليس في وسع الرجل الذي لم يجد نفسه في هذا الموقف من قبل أن يدرك آلاف العقبات التي تعرقل طريق الهروب أمام أي عبد. فأيادي كل البِيض تقف ضده؛ الخفر يراقبونه، والكلاب على أهبة الاستعداد لتعقب أثره، وطبيعة البلاد تجعل من المستحيل عبورها بسلام. ومع ذلك كنت أفكر أنه ربما سيحين الوقت كي أهرب عبر المستنقعات كما فعلت من قبل. وانتهيتُ إلى أن عليَّ في هذه الحالة أن أستعد لكلاب «إبس» إذا ما انطلقت في إثري. وكان لديه الكثير منها، بل من بينها كلب اشتهر بصيده للعبيد، وهي من النوعية الأكثر شراسة ووحشية. في أثناء صيد الراكون أو الأبوسوم، وفي الأوقات التي كنت فيها بمفردي، لم أُضع أي فرصة لجلدها بعنف حتى أخضعتها لي تماماً. أصبحت تخشاني، وتطيع صوتي على الفور، بينما لم يكن للآخرين أي سيطرة عليها. وأصبحتُ على يقين من أنها لو اتبعتني ووصلت إليَّ فإنها لن تقدم أبداً على مهاجمتي.

كانت الغابات والمستنقعات مليئة باستمرار بمن يحاولون الهروب، على الرغم من اليقين من إلقاء القبض عليّهم. فالكثير من العبيد، حين يمرضون، أو ينهكون ويصبحون غير قادرين على أداء مهامهم، يفرّون إلى المستنقعات، راغبين في نيل العقاب المقرّر لمثل هذا الذنب فقط بغية الحصول على راحة ليوم أو اثنين.

بينما كنت أعمل لدى «فورد»، كنت على غير عِلم مني وسيلة

الكشف عن مكان اختباء ستة أو ثمانية اتخذوا من «جريت باينوودز» مخبأً لهم. كان «آدم تايدم» كثيراً ما يرسلني من المطاحن إلى الأرض المفتوحة للحصول على المؤن. وكانت المسافة كلها آنذاك في غابات الصنوبر الكثيفة. في العاشرة من ليلة مقمرة جميلة، وبينما كنت أسير على طريق «تكساس» في أثناء عودتني إلى المطاحن وأنا أحمل خنزيراً في كيس على كتفي، سمعتُ خطوات تأتي من خلفي، فاستدرتُ وألفيتُ اثنين من الرجال السود في ثياب العبيد يقتربان منّي في عجالة. وعندما أصبحا على مسافة قصيرة رفع أحدهما هراوة كما لو أنه يعتزم ضربي بها، بينما خطف الآخر الكيس الذي كنت أحمله. واستطعتُ مراوغتهما والتقطتُ كوز صنوبر وضربتُ به رأس أحدهما بكل قوة حتى سقط على الأرض مغشياً عليه. وهنا ظهر رجلان آخران من أحد جانبي الطريق، ولكن قبل أن يستطيعا الإمساك بي نجحت في مراوغتهما وأطلقتُ ساقيّ هرباً منهما نحو المطاحن. وعندما علم «آدم» بتلك المغامرة أسرع على الفور إلى القرية الهندية وأوقظ «أوسكالا» والعديد من أبناء قبيلته وذهبوا جميعاً وراء قطّاع الطرق هؤلاء. واصطحبتهم إلى المكان الذي حدث فيه الهجوم حيث رأينا بركة من الدماء على الطريق؛ كانت دماء الرجل الذي ضربته بكوز الصنوبر وسقط في هذا الموضع. وبعد البحث بحذر في الغابات لفترة طويلة، اكتشف أحد رجال «أوسكالا» دخاناً يتصاعد من بين فروع مجموعة كبيرة من أشجار الصنوبر تقترب قممها من بعضها بعضاً. وأحيط بمجموعة قطاع الطرق تلك بحذر وتم اعتقالهم جميعاً. كانوا قد هربوا من إحدى المزارع في منطقة «لاموري»، واختبؤوا في تلك

المنطقة ثلاثة أسابيع. وعلمت أن لم يكن لديهم أية نوايا سيئة سوى الحصول على الخنزير الذي كنت أحمله. فعندما لمحونني أمر صوب مزرعة «فورد» مع مقدم الليل، اشتبهوا في حقيقة مهمتي واتبعوني، ثم رأونني أقتل الخنزير وأعود به. ولّما كانوا بحاجة إلى الطعام عمدوا إلى مهاجمتي من باب الحاجة الشديدة. وسلّمهم «آدم» في سجن الأبرشية وحصل على مكافأة مجزية لذلك.

يتكرّر كثيراً أن يفقد الهارب حياته في أثناء محاولته الفرار. كانت ضيعة «كاري» تحدّ ضيعة «إبس» من أحد الجوانب، وهي مزرعة شاسعة للسكر. فهو يزرع ألفاً وخمسمائة فدان على الأقل من قصب السكر كل عام، ينتج منها ألفين ومائتين أو ألفين وثلاثمائة برميل من السكر؛ حيث ينتج كل فدان نحو برميل ونصف في المعتاد. كما أنه يزرع خمسمائة أو ستمائة فدان من الذرة والقطن. وكان يمتلك في العام الماضي مائة وثلاثة وخمسين من الأيدي إلى جانب العدد نفسه تقريباً من الأطفال، واستأجر المزيد من هذا الجانب من الميسيسيبي في أثناء مواسم العمل النشطة.

ومن بين المسيّرين الزنوج لديه، كان هناك فتى لطيف وذكي يُدعى «أوغسطس». وفي فترات العطلات، ومن وقت لآخر في أثناء العمل في الحقول المجاورة، سنحت لي فرصة التعرّف إليه حتى أصبحنا على صداقة دافئة ومتبادلة. وقد كان الصيف قبل الماضي موسماً تعساً بالنسبة له؛ حيث استاء منه المشرف، وهو طاغية غاشم وقاسي القلب، فقام بجلده بمنتهى العنف. وهرب «أوغسطس» حتى وصل إلى مزرعة «هوكينز» حيث اختبأ أعلى كومات القصب. وتم إطلاق

كل كلاب «كاري» في إثره، وكانت نحو خمسة عشر كلباً، وسرعان ما تعقبت خطواته إلى المكان الذي يختبىء فيه. وبالفعل أحاطت بالكومة وراحت تخدشها وهي تنبح، إلا أنها لم تستطع الوصول إليه. وعلى الفور، مسترشدين بالصخب الذي أحدثه نباح الكلاب، وصل المطاردون وتسلّق المشرف الكومة وقبض عليه. وبينما كانا ينحدران إلى الأرض اندفعت نحوه المجموعة بأكملها، وقبل أن تبعد عنه، كانت قد عضّته وشوهت جسده بأبشع ما يكون، حتى اخترقت أسنانها لحمه حتى عظامه في مائة موضع. حُمل إلى المنزل مقيداً فوق ظهر أحد البغال. ولكن تلك كانت آخر المشكلات التي واجهها «أوغسطس»، فقد مكث ليلته تلك يعاني حتى أتى الموت الرحيم لهذا الفتى التعس وأراحه من عذابه.

لم يكن من غير المألوف أن يحاول العبيد من النساء والرجال الهروب. فقد اختبأت «نيللي»، فتاة «إلدرت»، وهو الرجل الذي عملت عنده مدّة في قطع الأخشاب في «بيغ كين بريك»، في مخزن الذرة في مزرعة «إبس» ثلاثة أيام. في الليل، عندما كانت أسرته تغط في نومها، كانت تتسلّل إلى السكن لتناول الطعام ثم تعود إلى المخزن مجدداً. وقد رأينا أنه لم يعد آمناً أن نسمح لها بالبقاء على هذا النحو؛ ومن ثم عادت أدراجها إلى كوخها.

لكن المثال الأبرز على نجاح الفرار من الكلاب والمطاردين كان الواقعة التالية: كان من بين الفتيات لدى «كاري» فتاة تُدعى «سيليستي». كانت في التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها، ولها بشرة أكثر بياضاً من مالكها أو أي من نسله. وكان يستلزم الأمر

فحصاً دقيقاً لتمييز أي دماء إفريقية في ملامحها. ولم يكن أي غريب ليتخيّل أنها من نسل الرقيق. كنت جالساً في كوخي ليلاً أعزف على كمنجتي عندما فتح الباب في حذر وظهرت «سيليستي» أمامي. كانت شاحبة ومنهكة. ولو أن الأرض قد انشقت عن شبح لم أكن لأفزع كما فزعت لرؤيتها.

سألتها بعد أن حدّقتُ فيها لحظة: «من أنتِ؟!»

«أنا جائعة؛ أعطني بعضاً من اللحم المقدد».

كان أول ما خطر لي أنها سيدة شابة مخبولة فرّت من منزلها وكانت تتجوّل على غير هدى واجتذبها صوت الكمان إلى كوخي، بيد أن ثياب العبيد القطنية الخشنة التي كانت ترتديها سرعان ما بدّدت هذا الظن.

فسألتها مجدداً: «ما اسمك؟»

«اسمي «سيليستي»، أنا من مزرعة «كاري» وأهيم بين الأشجار منذ يومين. أنا مريضة ولا أستطيع العمل، وأفضل الموت في المستنقعات على الجلد حتى الموت من قِبل المشرف. لن تتبعني كلاب «كاري». لقد أطلقوها في إثري لكن هناك سراً بيني وبينها فلن تستمع إلى الأوامر الشيطانية للمشرف. أعطني بعض اللحم؛ أنا أتضوّر جوعاً».

اقتسمتُ حصتي الهزيلة معها، وبينما كانت تتناول الطعام قصّت عليَّ كيف استطاعت الفرار، ووصفت لي مكان اختبائها. على حافة المستنقع، على مسافة أقل من نصف ميل من منزل «إبس»، هناك مساحة كبيرة تغطي آلاف الفدادين يكسوها النخيل. وهي أشجار

طويلة تتشابك فروعها الطويلة مع بعضها بعضاً لتصنع ما يشبه المظلة، وهي من الكثافة بحيث تمنع نفاذ أشعة الشمس. فيبدو المكان وكأنه في وقت شفق دائم حتى في منتصف النهار البرّاق. في منتصف تلك المساحة الشاسعة التي لا تستكشفها إلا الأفاعي والثعابين- كونها منعزلة وكئيبة- شيّدت «سيليستي» كوخاً بدائياً من الفروع الميتة التي سقطت على الأرض، وغطّته بأوراق النخيل. كان هذا هو الملجأ الذي اختارته. لم تكن تخشى كلاب «كاري» تماماً كما لم أعد أخشى كلاب «إبس». وهي حقيقة لم أستطع أبداً تفسيرها، ألا وهي أن هناك من ترفض الكلاب تعقب مساراتهم تماماً؛ وكانت «سيليستي» من بين هؤلاء.

وهكذا كانت تأتي إلى كوخي في ليالٍ كثيرة طلباً للطعام. وذات ليلة نبحت الكلاب عند اقترابها حتى استيقظ «إبس» وأوعزت إليه باستطلاع المكان. وبرغم أنه لم يكتشف أمر «سيليستي» فإنها رأت أنه لم يعد آمناً بالنسبة إليها أن تأتي إلى الفناء. وعندما ساد الصمت كنت أحمل المؤن إلى مكان محدّد متفق عليه حتى تجدها.

على هذا النحو، أمضت «سيليستي» غالبية فصل الصيف حتى استعادت صحتها وقوتها وجمالها. وطوال كل فصول العام، كنا نسمع أصوات الحيوانات البرّية في الليل على حدود المستنقعات. وكثيراً ما كانت تزعجها في منتصف الليل، وتوقظها من سباتها بهديرها. فارتعبت من هذه الأصوات المفزعة وقرّرت في نهاية الأمر أن تهجر منزلها المنعزل وتعود إلى سيدها، فجلدها وهي مقيّدة بآلة الجلد من عنقها، ثم أرسلها للعمل في الحقل مجدداً.

في العام السابق لوصولي إلى المدينة، كانت هناك حركة منسّقة بين عدد من العبيد في «بايو بوف» انتهت نهاية مأساوية بالفعل. أعتقد أن الصحف قد تداولت هذا الموضوع بكثافة آنذاك، ولكن كل ما كنت أعرفه عنها آنذاك مستقى من علاقتي بمن كانوا يعيشون في المنطقة المجاورة تماماً لموقع الحدث. فقد أصبح الموضوع يتمتع بالاهتمام العام والمستمر في كل أكواخ العبيد على النهر، ولا شك أنه سينتقل إلى الأجيال القادمة باعتباره من تقاليدهم الأساسية. ثمة رجل يدعى «ليو تشيني»، كنت أعرفه آنذاك -وهو زنجي خبيث وماكر، وأكثر ذكاءً من عموم عِرقه، ولكن بلا ضمير ومخادع- تصوّر مشروع إنشاء جماعة لديها القوة الكافية لشق طريقها أمام كل معارضيها حتى منطقة المكسيك المجاورة.

وقد وقع الاختيار على منطقة بعيدة في أعماق المستنقع خلف مزرعة «هوكينز» بحيث تكون نقطة التجمّع. كان «ليو» ينتقل من مزرعة إلى أخرى في جوف الليل وهو يدعو لحملة إلى المكسيك، ويحدث موجة من الإثارة أينما ذهب، شأن «بطرس الناسك». أخيراً اجتمع عدد كبير من الهاربين، ونقلت البغال المسروقة والذرة التي تم جمعها من الحقول ولحم الخنزير المسروق من بيوت التدخين، إلى الغابات. وكانوا على أهبة الاستعداد لبدء الحملة حين تم اكتشاف مكانهم. وعندما أدرك «ليو تشيني» فشل مشروعه بشكل نهائي، حاول استمالة سيده وتجنّب العواقب التي كان يعرف أنها ستعقب هذا الفشل، وقرّر أن يضحي بكل زملائه. فما كان منه إلا أن رحل سراً عن ذاك المخيّم، وكشف لأصحاب المزارع عن العدد المجتمع في المستنقع، وبدلاً من أن يعلن

عن الغرض الحقيقي الذي كانوا يطمحون لتحقيقه، أكّد أن هدفهم كان الخروج من هذا المكان المنعزل في أول فرصة سانحة، وقتل كل رجل أبيض يصادفونه على طول النهر.

اجتاح الرعب المنطقة كلها بانتشار هذا الإعلان والمبالغة فيه مع انتقاله من فم لآخر. حوصر الهاربون واعتقلوا، ونقلوا مقيّدين بالسلاسل إلى الإسكندرية، وشنقهم الغوغاء. ليس هؤلاء فحسب، بل أُخذ كل من اشتُبه فيهم حتى وإن كانوا أبرياء تماماً، من الحقول ومن الأكواخ، ومن من دون أي شكل من أشكال المحاكمة وسيقوا إلى منصة الإعدام. اعترض المزارعون في «بايو بوف» على هذا التدمير العشوائي لممتلكاتهم، ولكن لم تتوقف هذه المذبحة العشوائية إلا بوصول مجموعة من الجنود النظاميين من أحد الحصون على حدود «تيكسان»، فأزالوا المشانق وفتحوا سجن الإسكندرية. فرّ «ليو تشيني»، بل حصل على مكافأة نظير خيانته. ولا يزال على قيد الحياة ولكنه يُحتقر ويُلعن من جميع أبناء عِرقه في كل أبرشيات «رابيديس» و«أفويليس».

غير أن فكرة التمرد لا تعتبر جديدة بين جموع العبيد في «بايو بوف». وأكثر من مرة اشتركت في مناقشة جادة عند طرح الموضوع للنقاش، وكانت كلمة مني في بعض الأوقات كفيلة بدفع المئات من زملائي في الرِق إلى اتخاذ موقف المتحدّي أو المتمّرد. ومن من دون أسلحة أو ذخائر، أو حتى في وجودها، كنت أرى أن ذلك سيسفر عن هزيمة محقّقة، وكوارث، وموت، ووقفت دائماً ضدّ الفكرة.

أذكر الآمال العريضة التي نشأت في أثناء الحرب المكسيكية، حين

ملأت أنباء النصر البيت الكبير بالسرور، بينما خيّم الحزن وخيبة الأمل على الأكواخ. وفي رأيي- وكانت لي الفرصة لمعرفة شيء ما من الشعور الذي أتحدث عنه- كان هناك نحو خمسين من العبيد على ضفاف «بايو بوف»، يسعدون باقتراب الجيش الغازي.

إنهم مخدوعون ويوهمون أنفسهم بأن العبيد، بجهلهم ووضاعتهم، على غير علم بأخطائهم، ويظنون أن هذا الذي ينهض على ركبتيه، بظهره المتهتك النازف، يمتلك روح الوداعة والمغفرة فقط. وقد يأتي يوم- وسوف يأتي لا محالة إذا ما أجيبت الصلوات- يوم الانتقام الفظيع؛ ليبكي السيد طالباً الرحمة بلا جدوى.

الفصل الثامن عشر

لاقي «ويلي» الكثير من صنوف التعذيب على يديّ السيد «إبس» كما سردت في الفصل السابق؛ إلا أنه في هذا الصدد لم يكن حاله أسوأ من حال رفاقه. كانت الفكرة التي يعتمدها السيد هي «تجنّب العصا». كان يقع بالأساس في براثن فترات من المزاج السيئ التي يكون فيها على أتم استعداد لتوقيع العقاب الشديد إزاء أي استفزاز وإن كان طفيفاً. وسوف توضح لك ملابسات الجلد قبل الأخير الذي تلقّيته كيف كان السبب تافهاً ولكن كافياً بالنسبة إليه كي يُعمل السوط.

هناك رجل يُدعى السيد «أونيل» في منطقة «جريت باين وودز» زار «إبس» كي يشتريني. كانت مهنته دبغ الجلود وتنظيفها، ويدير عملاً واسع النطاق، ورغب في أن يضعني في الخدمة في بعض أقسام مؤسسته شريطة أن يشتريني. وكانت العمة «فيبي» قد سمعت حوارهما في أثناء إعدادها لمائدة العشاء في البيت الكبير. وعند عودتها إلى الفناء ليلا، أسرعت إليَّ كي تخبرني بالأنباء بالطبع، وشرعت في قصّ أدق التفاصيل التي سمعتها، وجدير بالذكر أن العمة «فيبي» كانت تتمتع بأذنين لا تخطئان ما تسمعان أبداً ولا تفوّتان كلمة واحدة من أي حوار يدور في نطاق سمعها. استفاضت في الحديث أن «السيد «إبس» يعتزم بيعي إلى رجل يعمل في دبغ الجلود في «باين وودز» على

مهل وبصوت مرتفع لجذب انتباه السيدة التي كانت تقف في مكان غير مرئي في الفناء آنذاك وتستمع إلى الحوار.

فقلت: «حسناً أيتها العمة «فيبي». إن هذا ليسعدني. لقد تعبت من قطف القطن وأفضّل أن أعمل في دبغ الجلود. أتمنى أن يشتريني بالفعل».

ومع ذلك لم يُتّم «أونيل» عملية الشراء حيث اختلف الطرفان على السعر، ورحل إلى بيته في صباح اليوم التالي لوصوله. وبعد برهة من ذهابه، ظهر «إبس» في الحقل. ولم يكن هناك ما يُغضب أي سيّد، لا سيّما «إبس»، أكثر من استمالة أحد خدمه لتركه. وكانت السيدة «إبس» قد نقلت له ردّي على العمة «فيبي» في مساء اليوم السابق، كما علمت منها فيما بعد، حين استمعت إلى الحوار الذي دار بيننا. وحين دخل «إبس» إلى الحقل توجّه صوبي مباشرة.

«لقد تعبت إذن من قطف القطن يا «بلات»، وتحب لو أتيحت لك فرصة تغيير سيدك، أليس كذلك؟ مغرم أنت بالانتقال من مكان لآخر، ترى نفسك رحّالة ومسافراً؟ نعم، ربما تحب السفر حفاظاً على صحتك؟ أو علّك تشعر أنك أرقى من العمل في حقل القطن، وتفضل دبغ الجلود؟ عمل جيد، عمل جيد بحق! أعتقد أنني سأمارس هذا العمل كذلك. اركع على ركبتيك وعرِّ ظهرك! فسوف أتدرب على دبغ الجلود قليلاً».

توسّلت إليه كثيراً، وحاولت عبثاً أن أخفّف حدة غضبه بالأعذار علّ قلبه يلين. ولم يكن هناك بُدّ من ركوعي، وقدّمت له ظهري العاري كي يُعمل فوقه سوطه.

وبينما كان السوط ينهال على لحمي، كان «إبس» يقول ويكرر مع كل ضربة: «كيف تعجبك الدباغة؟». ومضى في هذا الأمر حتى تلقّيت عشرين أو ثلاثين جلدة وهو يشدّد على كلمة «الدباغة» بشكل أو بآخر. وعندما اطمأن إلى «دبغ» ظهري سمح لي بالوقوف، وأكّد لي بضحكة نصف خبيثة أنه يمكن تعليمي المزيد عن عمل الدباغة إذا ما كنت لا أزال مهتماً به. وأشار أن ذاك لم يكن سوى درس قصير في «الدباغة»، وأن الدرس التالي سوف يقضي عليَّ.

وكثيراً ما كان العم «أبرام» يُعامل بوحشية بالغة على الرغم من أنه كان من أكثر المخلوقات وداعة وإخلاصاً في العالم بأسره. وكان رفيقي في الكوخ لسنوات عديدة، بوجهه الذي يحمل تعابير خيّرة تسرّ الناظر إليه. وكان يعاملنا بشعور أبوي، ودائماً ما يقدّم لنا النصائح بجدية وتأنٍ كبيرين.

في أثناء العودة من مزرعة «مارشال» عصر أحد الأيام، وكانت السيدة قد أرسلتني في مهمة لها، وجدته يرقد فوق أرض الكوخ وثيابه مخضّبة بالدماء. أخبرني أنه قد تلقّى طعنة قاتلة! فبينما كان يقوم بنشر القطن على السقّالة، جاء «إبس» مخموراً من «هولمزفيل» وأخذ ينتقد كل العمل الذي كان يتم آنذاك، وأعطى أوامر متناقضة تماماً ومن المستحيل تنفيذها، فارتبك العم «أبرام» الذي أصبحت مَلَكاته غير قادرة على الاستيعاب السريع، وارتكب بعض الأخطاء جرّاء التشويش الذي أصابه. فاجتاح «إبس» المخمور غضب بالغ وانقض على الرجل العجوز بمنتهى التهور وطعنه من الخلف. كان الجرح طويلاً وقبيحاً ولكنه لم يخترق البدن ما يكفي كي يصبح مميتاً.

خاطته له السيدة التي وجّهت اللوم العنيف لزوجها من جرّاء فعلته، واستنكرت ليس فقط عدم آدميته بل أكدت أنه سوف يتسبب في فقر هذه الأسرة بقتله كل عبيد المزرعة في نوبات ثمالته.

لم يكن من غير المألوف بالنسبة إليه أن يقذف العمة «فيبي» بمقعد أو عصا من الخشب؛ بيد أن أقسى جلد قُدّر لي أن أشهده، والذي لا أذكره إلا بمنتهى الرعب، كان ذاك الذي خضعت له «باتسي».

كان من الواضح أن الغيرة والكراهية اللذين احتلا قلب السيدة «إبس» قد جعلا من حياة أَمَتها الشابة الضعيفة مأساة كاملة. ولكم يسعدني أن أعتقد أنني كنت سبباً في عدة مواقف لتجنيب تلك الفتاة الطيّبة مثل هذا العقاب المؤذي. وكثيراً ما كانت السيدة تطلب مني، في غياب «إبس»، جلد الفتاة من من دون أي خطأ من جانبها. وكنت أرفض بزعم أنني أخشى غضب سيدي، وكثيراً ما غامرت واحتججت على معاملة «باتسي» على هذا النحو. وحاولت إقناعها بأن الفتاة ليست مسؤولة عن التصرّفات التي تشكو منها السيدة، ولكنها أَمَة وتخضع بشكل تام لرغبة سيدها، وهو وحده يتحمّل المسؤولية.

أخيراً تسللت الغيرة إلى نفس «إبس» أيضاً، فانضم إلى زوجته الغاضبة في الابتهاج الجهنمي بمآسي الفتاة.

حدث في أحد أيام السبت، في أوان عزق الأرض، من فترة ليست بعيدة، أن كنا على ضفة النهر نغسل ملابسنا كما اعتدنا، حين اختفت «باتسي». شرع «إبس» يناديها بصوت مرتفع ولكن من من دون إجابة، ولم يلحظها أحد وهي تترك الفناء، وتساءلنا جميعاً ما إذا

كانت قد فرّت. وفي غضون ساعتين رأيناها تقترب من ناحية مزرعة «شو». وهذا الرجل، كما ذكر من قبل، سيئ السمعة، ولم يكن على علاقة جيدة بـ «إبس». وكانت «هاريت»، زوجته السوداء، على عِلم بمتاعب «باتسي» وتعطف عليها، فاعتادت الأخيرة الذهاب إليها لرؤيتها كلما سنحت الفرصة بذلك. لم يكن هناك دافع لزيارتها لها إلا الصداقة فحسب، ولكن تسرّب الشك تدريجياً إلى عقل «إبس» بأن ثمة عاطفة أخرى وضيعة تقودها إلى هناك، وأنها لا تذهب لملاقاة «هاريت»، وإنما جاره الفاجر قليل الحياء. وجدت «باتسي» سيدها في حالة غضب عارمة عند عودتها، وارتعبت لعنفه حتى إنها حاولت في البداية تجنّب الإجابات المباشرة عن أسئلته، الأمر الذي زاد من شكوكه. ومع ذلك، استعادت ثباتها في النهاية وأنكرت بإباء كل اتهاماته، فقالت:

«إن السيدة لا تعطيني صابوناً كافياً للاغتسال شأن الآخرين، وأنت تعرف لماذا. وقد ذهبت إلى منزل «هاريت» كي أحصل على قطعة منه»، وأبرزت قطعة الصابون من جيب ثوبها حتى يراها، وأردفت: «هذا هو ما يدفعني إلى الذهاب إلى منزل «شو» يا سيدي «إبس»، ويعلم الرب أني أقول الحقيقة».

إلا أن «إبس» صرخ فيها قائلاً: «أنتِ كاذبة أيتها العاهرة السوداء!».

«أنا لا أكذب يا سيدي؛ حتى إن قتلتني فلن أقول سوى هذا».

فتمتم بشراسة من بين أسنانه: «حسناً! سوف تدفعين ثمن هذا. سوف أعلّمك كيف تذهبين إلى مزرعة «شو». سوف أنتزع عظامك

من جسدك».

ثم استدار تجاهي وأمر بدق أربعة أوتاد في الأرض مشيراً إلى أماكنها بطرف حذائه. وفور أن ثبّتنا الأوتاد، طلب منها أن تخلع كل ثيابها تماماً، واستلقت الفتاة على وجهها وقُيِّدت يداها وقدماها إلى الأوتاد بشدة. ثم ذهب الطاغية إلى الفناء وعاد بسوط ثقيل وضعه في يدي وأمرني بجلدها. وعلى الرغم من مرارة المهمة، فإنني اضطررتُ لها. ويمكنني القول إنه لم يحدث في أي مكان على وجه الأرض في ذاك اليوم مشهد شيطاني آخر بهذا القدر على النحو الذي كان.

وقفت السيدة «إبس» في الفناء بين أبنائها تحدّق في المشهد بقلب تغمره السعادة، فيما تجمع الرقيق معاً على مسافة قصيرة وملامحهم تعكس أسى أفئدتهم. توسّلت المسكينة «باتسي» طلباً للرحمة، وذهبت توسّلاتها سُدًى. أما «إبس» فكان يطحن أسنانه غيظاً وقد جلس فوق الأرض وراح يصرخ فيَّ كالمجنون كي أزيد من قوة الضربات:

«اضربها بقوة أشدّ، وإلا ستحل محلّها أيها الوغد».

«يا إلهي! .. الرحمة يا سيدي! .. الرحمة! .. يا إلهي .. ارحمني».. هكذا كانت «باتسي» تصرخ طوال الوقت وتكافح من دون طائل، وجسدها يرتجف تحت وطأة كل ضربة.

وعندما وصلت الجلدات إلى ثلاثين جلدة توقّفت واستدرت صوب «إبس»؛ آملاً في أن يكون قد اكتفى، ولكنه كال لي المزيد من اللعنات والتهديدات وأمرني بأن أستمر. وأوقعت بها عشراً أو خمس عشرة جلدة إضافية حتى استحال ظهرها إلى مجموعة من الجروح الطويلة والمتقاطعة كالشبكة. كان «إبس» غاضباً ووحشياً كأكثر ما

يكون وهو يسألها ما إذا كانت سترغب في الذهاب إلى مزرعة «شو» مجدداً، وهو يقسم إنه سوف يجلدها حتى تتمنّى الجحيم بدلاً من ذلك. وأخيراً أنزلت السوط من يدي وقلت إنني لا أستطيع إنزال العقاب بها أكثر من ذلك. وأمرني «إبس» أن أستمر وهو يهدّدني بجلد أشد ضراوة إن لم أفعل. ثار قلبي على هذا المشهد اللاإنساني، وقررت أن أجازف بالعواقب ورفضت أن أرفع السوط مجدداً. فأمسك «إبس» السوط بنفسه وجلدها عشر جلدات أخرى أشد قوة مما سبق حتى اختلطت صرخات «باتسي» وحشرجاتها المؤلمة بشتائم «إبس» العالية والغاضبة. تمزّقت الفتاة وانسلخ جلدها- من من دون مبالغة- وغدا السوط مضرجاً بدمائها التي راحت تسيل على جانبيها وفوق الأرض. أخيراً توقّفت الفتاة عن المقاومة وارتخى رأسها بسكون فوق الأرض، وانخفضت صرخاتها وتوسّلاتها تدريجياً حتى اختصرتها في أنين خفيض. ولم تعد ترتجف وتنكمش عندما يقضم السوط قطعة أخرى من لحمها، وظننت أنها كانت تحتضر!

كان ذاك سبت الرب. وكانت الحقول تبتسم في ضوء الشمس الدافىء، والطيور تزقزق في سعادة بين أوراق الأشجار، وبدا أن السلام والسعادة يسودان العالم بأسره إلا قلب «إبس» وضحيّته اللاهثة والشهود الصامتين المتحلّقين من حوله. فكانت عاصفة المشاعر المتأجّجة هناك لا تتسّق مع هدوء اليوم وجماله. لم يسعني إلا النظر إلى «إبس» بمنتهى البُغض والاستنكار، وكنت أردّد لذاتي: «أيها الشيطان، عاجلاً أو آجلاً، في مكان ما في مسار العدالة الأبدية، سوف تدفع ثمن ذنوبك هذه!»

أخيراً توقّف عن جلدها من فرط إنهاكه، وأمر «فيبي» بإحضار دلو من الماء والملح. وبعد غسلها جيداً بهما أمرني بأخذها إلى الكوخ. فحللت وثاقها عن الأوتاد ورفعتها على ذراعي. كانت غير قادرة على الوقوف على قدميها واستندت برأسها فوق كتفي، وأخذت تكرّر في صوت ضعيف بالكاد يُسمع: «أوه «بلاـت» .. أو «بلات»!»، ولا شيء غير ذلك. وحين أبدلنا لها ثوبها تعلّق بجروحها وسرعان ما امتلأ بالدماء. مدّدناها على بعض الألواح في الكوخ حيث مكثت فترة طويلة بعينين مغلقتين وأنين مؤلم. وفي الليل وضعت «فيبي» الشحم المذاب على جروحها، وساعدنا جميعنا قدر استطاعتنا إلى التسرية عنها. ويوماً بعد آخر، استلقت في كوخها على وجهها وقد منعتها القروح من اتخاذ أي موضع آخر.

لكم كان مباركاً لها لو أنها لم ترفع رأسها مجدداً؛ لكان جنّبها أياماً وأسابيع وشهوراً أخرى من البؤس. وبالفعل، من ذلك الوقت لم تعد كما كانت أبداً. كان يجثم فوق روحها حِمل ثقيل من الحزن، وافتقدت خطواتها كل ابتهاجها ورشاقتها، وخبا في عينيها البريق الذي كان يميزها، وهدأ نشاطها، وروحها الشبابية المُحبة للمرح. ووقعت في شرك مِزاج حزين ويائس. وكثيراً ما كانت تستيقظ من سباتها وترفع ذراعيها طالبة الرحمة. وأصبحت أكثر صمتاً مما كانت، وتعمل طوال اليوم بيننا من من دون أن تنطق بكلمة، وقد استقرّ فوق وجهها تعبير منهك مثير للشفقة، وباتت أقرب إلى البكاء من الضحك. فلو أن هناك قلباً كُسِر، وسحقته وأتلفته وقاحة المعاناة وسوء الحظ، لكان هذا قلب «باتسي».

كانت «باتسي» قد تربّت كبهيمة يمتلكها صاحبها، يُنظر إليها فقط باعتبارها حيواناً نادراً وجميلاً، ومن ثم لم يكن مسموحاً لها إلا بقدر يسير من المعرفة. إلا أن ثمة شعاعاً خافتاً نفذ إلى فِكرها فلم يكن مظلماً بالكامل. كان لديها تصوّر بسيط عن الخالق والأبدية، وتصور أبسط عن المنقذ الذي ضحّى بحياته حتى لأشخاص مثلها. كانت لديها تصوّرات مشوّشة عن الحياة في المستقبل، ولا تميّز الفارق بين الوجود المادي والروحي. وكانت السعادة كما تعرفها إعفاء من الجلد، والعمل، وطغيان الأسياد والمشرفين. وكانت فكرتها عن فرحة الجنة هي الراحة فحسب، كما جاء في سطور الشاعر الحزين حين قال:

«أنا لا أطلب فردوساً عالياً،
يخلو من هموم المظلومين فوق الأرض،
الفردوس الذي أصبو إليه،
هو الراحة، الراحة الأبدية».

ولعلّه رأي خاطىء ذاك الذي يسود في بعض الأوساط من أن العبد لا يفهم مصطلح الحرّية وفكرتها. حتى في «بايو بوف»، عندما أرى العبودية القائمة في أبشع صورها وأكثرها قسوة، وتتسّم بسمات غير معروفة في الولايات الشمالية، فإن أكثرهم جهلاً يعرف للحرّية معنى عاماً ومكتملاً. فهم يدركون المزايا والاستثناءات المتعلّقة بها، وأنها ستسمح لهم بأن يجنوا ثمار عملهم، وتؤمّن لهم متعة السعادة المنزلية. إنهم يستطيعون التمييز بين الأوضاع التي يعيشونها وتلك

التي يعيشها حتى أكثر البيض وضاعة، ويدركون ظُلم القوانين التي تضع في أيدي البيض السلطة لامتلاك ليس فقط أرباح صناعتهم، بل إخضاعهم لعقوبات غير مستحقة وغير مبرّرة، من من دون قصاص، ومن دون الحق في المقاومة أو الاحتجاج.

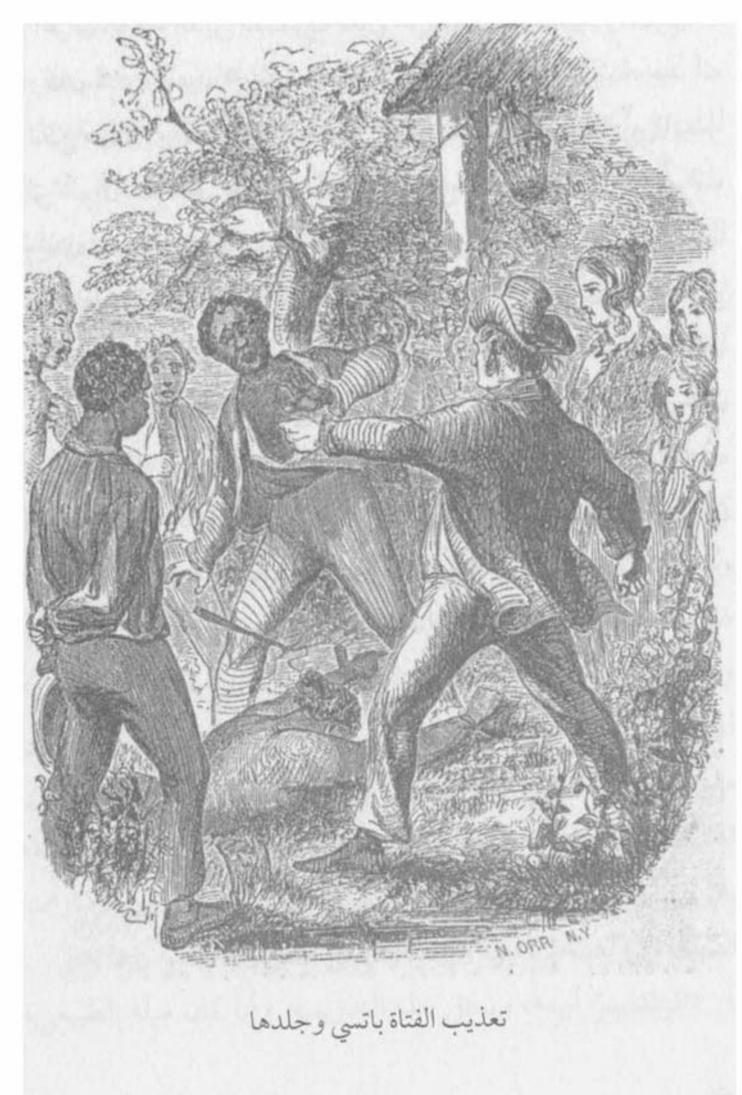
أصبحت حياة «باتسي»، لا سيّما بعد جلدها، بمثابة حلم طويل للحرية. وكانت تعرف أن هناك- على بُعد مسافة لانهائية في خيالها- تقبع أرض الحرية. فقد سمعت آلاف المرات عن مكان ما في الشمال البعيد حيث لا يوجد عبيد ولا أسياد، والرجل الأسود يعمل ليكسب قوت يومه بنفسه، ويعيش في كوخه الخاص به، ويحرث أرضاً يمتلكها؛ ولكم كان هذا حلماً سعيداً لـ «باتسي».. مجرد حلم يتعذر تحقيقه!

كان تأثير هذه العروض الوحشية جلياً على أسرة مالك العبيد. كان ابن «إبس» الأكبر فتى ذكياً في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره. ومن المثير للشفقة أن تراه في بعض الأحيان وهو يؤدّب، مثلاً، شخصاً ضعيفاً مثل العم «أبرام». كان يطلب من العجوز تفسيراً لسلوكه، ويحكم عليه بعدد من الجلدات إذا رأى بتقديره الطفولي ضرورة لذلك، ويُنفّذ هذا الحكم بالفعل بكثير من الجدّية والتأنّي. وكثيراً ما كان يرتقي مُهره وينطلق به إلى الحقول ممسكاً بسوطه ليلعب دور المشرف، بما يسعد أباه سعادة بالغة. وكان يُعمل سوطه في تلك الأثناء بلا تمييز وهو يصيح ليحثّ العبيد على العمل، مع كثير من العبارات النابية، بينما يضحك أبوه ويصفه بالفتى المثالي.

«الولد سرّ أبيه»، وبمثل هذا التدريب، وأياً كان ميله الطبيعي،

لا يمكن أن يختلف الأمر عن ذلك، وعند وصوله إلى سنّ النضج ينظر إلى معاناة العبيد ومآسيهم بمنتهى اللامبالاة. فتأثير هذا النظام الجائر يعزّز بالضرورة الروح الظالمة غير القادرة على الإحساس حتى في أعماق هؤلاء الذين يتسّمون- بين أقرانهم- بالإنسانية والكرم.

كان لدى السيد «إبس» الصغير بعض الصفات النبيلة، بيد أنه لم تكن هناك أي فكرة قد تقوده إلى فهم أن الخالق لا يميّز بين البشر وفق ألوان بشرتهم. فكان ينظر إلى الرجل الأسود باعتباره حيواناً، لا يختلف من أي جانب عن أي حيوان آخر إلا بالقدرة على الحديث واحتفاظه بمَلَكات أعلى نوعاً، بما يجعله أكثر قيمة. أن يعمل مثل البغال التي يمتلكها والده، وأن يُجلد ويُركل ويُعذب طوال حياته، وأن يخاطب الرجل الأبيض ممسكاً بقبعته بيديه وبعينين لا تبرحان الأرض، كان يرى أن هذا هو قدر العبد الطبيعي والملائم. على هذه الأفكار تربّى؛ أننا نقف من من دون أرض الإنسانية، فلا عجب أن الطغاة وظالمي زمرة العبيد هم عِرق قاسٍ ولا يعرف الشفقة.



تعذيب الفتاة باتسي وجلدها

الفصل التاسع عشر

في شهر يونيو من عام 1852، وفي إطار تعاقد سابق، بدأ السيد «آفري»، وهو نجار من نهر «روج»، بناء منزل للسيد «إبس». وكان قد ذّكر في وقت سابق أنه لا توجد أقبية في «بايو بوف»، علاوة على أن طبيعة الأرض المنخفضة التي تتألف من المستنقعات تحتّم بناء المنازل الكبيرة على ركائز خشبية، من ناحية أخرى. كما أنها تتميز بسمة مغايرة ألا وهي أن الغرف لا يتسنى تغطيتها بالجص، ولكن تُغطى الأسقف والألواح بأخشاب السرو المتطابقة، وتُطلى بالألوان التي يختارها المالك حسب ذوقه. وبشكل عام، تُنشر الألواح والركائز الخشبية عن طريق العبيد باستخدام المناشير؛ حيث لم تكن هناك طاقة مائية تتيح بناء المناشر على مسافة أميال عدة. وعندما يقوم المزارع ببناء منزل لنفسه، يتحمل العبيد لديه الكثير من العمل الإضافي. ولمّا كنت أتمتع بخبرة جيدة عندما عمِلت نجّاراً مع «تيبيتس»، أبعدت عن الحقل تماماً عند وصول «آفري» ومساعديه.

كان من بينهم شخص أدين له بمعروف كبير؛ فله وحده، على أغلب الظن، أدين بانتهاء أيام عبوديتي. كان مُخلّصي رجلاً يفيض قلبه بمشاعر النبل والكرم. وسوف أذكره حتى آخر لحظة في حياتي بأسمى آيات الشكر والامتنان. كان اسمه «باس»، وكان يعيش آنذاك

في «ماركسفيل». وسيكون من الصعب أن أنقل انطباعاً صحيحاً عن مظهره أو عن شخصيته. كان ضخم البنيان، ويتراوح عمره ما بين أربعين وخمسين عاماً، ذا بشرة وشعر فاتح لونهما. كان شديد الهدوء ورابط الجأش، مغرماً بالنقاش، لكنه دائماً ما يتحدّث بتأنٍّ شديد. كان من هذا النوع الذي يتمتع بسلوك خاص جداً حتى إنه لا يقول شيئاً مسيئاً أبداً. والقول الذي لا يمكن قبوله إذا خرج من فم شخص آخر يقوله هو بحصافة شديدة لا تؤخذ عليه. وربما لم يكن هناك في «رد ريفر» من يتفق معه في الموضوعات المتعلقة بالدين أو السياسة، ويمكنني القول إنه ليس هناك من يتحدّث في مثل هذه الأمور نصف ما يتحدّث. ويبدو أنه أمر مفروغ منه أنه سوف يناصر الجانب الأقل تأييداً في كل مسألة محلية؛ الأمر الذي كان يسفر عن تسلية المستمعين إليه بدلاً من استيائهم منه، من خلال الاستماع إلى الطريقة البارعة والأصيلة التي يستبقي بها النقاش. كان أعزب؛ «عجوزاً أعزب» وفق التفسير الصحيح للوصف، ولا يعلم لنفسه أقارب على قيد الحياة في هذا العالم. كما لم يكن له محل إقامة مستمر يلتزم يه، فكان يتجوّل من ولاية لأخرى حسبما يروق له. فعاش في «ماركسفيل» ثلاث سنوات أو أربع، وفي إطار أداء بمثابة عمله نجّار- ونتيجة كذلك لصفاته الشخصية تلك- كان ذائع الصيت في كل أرجاء أبرشية «أفويليس». وكان متسامحاً تجاه الأخطاء، وعُرف عنه الكثير من الأفعال الخيّرة وطيبة القلب وشفافيته، بما زاد من شعبيته في المجتمع، وهو شعور لم يتوقف أبداً عن مكافحته.

كان من مواطني كندا، ومنها انطلق في جولاته في وقت مبكّر من

حياته، وبعد أن قام بزيارة كل المواقع الرئيسة في الولايات الشمالية والغربية في أثناء ترحاله، وصل إلى منطقة «رد ريفر» غير الصحية، وكان آخر مكان انتقل منه هو ولاية «إيلينوي». ولكم يؤسفني أنني لا أعرف مكانه الحالي. فقد جمع أغراضه وغادر «ماركسفيل» في هدوء في اليوم السابق لذهابي؛ حيث الشكوك التي حامت حوله فيما يتعلق بتحريري جعلت هذه الخطوة ضرورية من جانبه. فما كان سيصيبه جرّاء تصرفه المنصف والصالح معي إلا الموت إذا ما ظل في متناول أيدي قبيلة جلاَّدي العبيد في «بايو بوف».

ذات يوم، في أثناء العمل على المنزل الجديد، اشترك «باس» و«إبس» في جدل استمعت إليه باهتمام شديد، كما هو مفترض. كانا يتناقشان بشأن العبودية حين قال «باس»: «إنك مخطىء في كل ما تقوله، فكلّه يا سيدي يخلو من العدالة والبرّ. لن أمتلك عبداً حتى وإن كنت في ثراء «كروسوس»، وأنا لست كذلك، وهو أمر مفهوم جداً لا سيما بين المدينين له. وهناك كذلك هذا الهراء المدعو نظام الائتمان؛ هراء يا سيدي، فليس هناك ما يُدعى دين ولا مدين. فالدين يُغري الرجل، والدفع نقداً هو الشيء الوحيد الذي ينقذه من براثن الشيطان. ولكن مسألة العبودية؛ أي حق لك في الزنوج الذين تمتلكهم حين نأتي إلى هذه النقطة؟».

فقال «إبس» وهو يضحك: «أي حق! ماذا تعني؟ أنا اشتريتهم ودفعت فيهم ثمناً».

«بالطبع اشتريتهم؛ فالقانون يقول إن لك الحق في امتلاك زنجي، ولكن- مع احترامي للقانون- فإن هذا كذب. نعم يا «إبس»، عندما

يقول إنه كاذب بينما الحقيقة ليست كذلك. هل كل ما يقوله القانون حقيقي فقط لأنه يقتضي ذلك؟ ماذا لو أنهم مرّروا قانوناً ينتزع منك حريتك ويجعل منك عبداً؟».

أجابه «إبس» ولم يزل يضحك: «أوه، هذا مستحيل. وأرجو ألا تكون هذه مقارنة بيني وبين الزنوج يا «باس»».

أجابه «باس» بحزن شديد: «حسناً، ليس تماماً. ولكنني رأيت زنوجاً من قبل ليسوا أقل مني شأناً، كما أنني لا أعرف من الرجال البيض في هذه النواحي من أرى أنهم أفضل مني بأي حال. والآن، أمام الرب، ما الفرق يا «إبس» بين أي رجل أبيض، وأي رجل أسود؟».

«كل الفرق! تماماً كما لو أنك تسأل عن الفرق بين الإنسان الأبيض وقرد البابون. لقد رأيت أحد هذه المخلوقات في «أورليانز» يعرف قدر ما يعرف أي من الزنوج لديَّ. أفترض أنه يمكنك تسميتهم بمواطني الدرجة الثانية»، قال «إبس» وهو يطلق ضحكة عالية إعجاباً بمزحته.

فتابع صاحبه قائلاً: «اسمع يا «إبس»، لن يمكنك إقناعي على هذا النحو. بعض الرجال يتمتعون بالذكاء، وبعضهم ليسوا بالذكاء الذي يعتقدونه. دعني الآن أسألك سؤالاً. هل خُلِق جميع البشر أحراراً ومتساوين وفق ما ينص عليه إعلان الاستقلال؟».

فأجاب «إبس»: «بلى، ولكن كل البشر، وليس الزنوج والقرود»، وهنا أطلق ضحكة أعلى وأشد صخباً من سابقتها.

أجابه «باس» ببرود: «هناك قرود بين البيض كما هو بين السود.

أنا أعرف رجالاً من البيض يستخدمون حُججاً تخلو من المنطق يليق بالقرود استخدامها. ولكن دعنا من هذا، فالزنوج بشر. وإذا كانوا لا يعرفون الكثير الذي يعرفه أسيادهم من البيض، فخطأ من هذا؟ فهم لا يُسمح لهم بمعرفة أي شيء. أنت لديك كتب وأوراق، ويمكنك الذهاب حيثما شئت، واكتساب المعرفة بألف من الطرق. ولكن عبيدك لا يتمتعون بهذه المزايا، بل سوف تجلد أياً منهم إذا لمحت في يده كتاباً. فهم مقيّدون في أغلال العبودية جيلاً بعد آخر؛ محرومون من الارتقاء بعقولهم، فمن يتوقع منهم أن يكون لديهم الكثير من المعرفة؟ وما داموا يُحط من شأنهم لمستوى البهائم، لا يجوز لومهم على جهلهم. فإذا كانوا قردة، أو لا يرتقون على سلم الذكاء عن درجة هذه الحيوانات، فأنت ومن هم مثلك يتحملون المسؤولية عن ذلك. هناك إثم، بل إثم كبير، ترتكبه هذه الأمة، وسوف تدفع ثمنه ذات يوم. نعم، سوف يأتي يوم للحساب يا «إبس»؛ يوم سوف تحترق فيه كالفرن. قد يأتي هذا اليوم آجلاً أو عاجلاً، ولكنه آتٍ لا ريب، بقدر ثقتي في عدل الرب».

قال «إبس»: «إذا عشت بين الشماليين في «نيو إنغلند»، أتوقع أن تكون أحد المتعصبين الملاعين الذين لا يعرفون أكثر من الدستور، ويتجوّلون لبيع الساعات ويقنعون الزنوج بالفرار».

«لو كنت أعيش في «نيو إنغلند»، كنت سأكون كما أنا هنا تماماً. وكنت سأقول إن العبودية ظلم وينبغي إلغاؤها. سوف أقول إنه ما من مبرّر ولا إنصاف في هذا القانون أو الدستور الذي يسمح لرجل أن يمتلك رجلاً آخر في أغلال الأسر. لا شك أنه سيكون من الصعب

عليك التنازل عن ممتلكاتك، ولكن لن يكون هذا في نصف صعوبة فقدانك حريتك. ولكن في ظل العدالة الحقيقية لن تكون لك حقوق أكثر من حقوق العم «أبرام» مثلاً. وإذا تحدثنا عن البشرة السوداء والدم الأسود؛ فكم من العبيد هنا على هذا الرافد لهم بشرتنا البيضاء نفسها؟ وما الفرق في لون الروح؟ اللعنة، إن النظام بأسره سخيف وظالم. لك أن تمتلك ما شئت من الزنوج وتحمّل إثم ذلك، ولكنني لن أمتلك عبداً أبداً حتى في أفضل المزارع في «لويزيانا».»

«أنت تحب الاستماع إلى نفسك يا «باس» أكثر من أي شخص عرفته. بل قد تذهب إلى أن الأسود هو أبيض، أو العكس، إذا ما عارضك أي شخص. لا شيء يناسبك في هذا العالم، ولا أعتقد أنك سترضى بالعالم الآخر إذا ما أتيح لك الاختيار».

ثم أصبحت المحادثات حول هذا الموضوع بالأساس معتادة بين الرجلين؛ فكان «إبس» يحاول استدراجه فقط بغرض السخرية منه أكثر منه بهدف مناقشة المسألة بإنصاف وموضوعية. كان ينظر إلى «باس» باعتباره رجلاً على استعداد لأن يقول أي شيء فقط من أجل الاستمتاع بالاستماع إلى نفسه، كنوع من الغرور ربما، حتى وإن قال أشياء تتعارض مع ما يؤمن به أو يعتقد فيه، فقط لاستعراض براعته في الجدال.

بقي الرجل في منزل «إبس» طوال فترة الصيف، وكان يزور «ماركسفيل» مرة واحدة كل أسبوعين. وكلما رأيته اقتنعت أنه الرجل الذي يمكنني أن أفضي له بسرّي. ومع ذلك، علّمني سوء حظي السابق أن أكون حذراً للغاية. لم يكن وضعي يتيح لي الحديث

إلى رجل أبيض إلا إذا بدأ هو الحديث معي، ولكنني لم أُضع فرصة لإلقاء نفسي في طريقه وسعيت طوال الوقت وبكل طريقة ممكنة لجذب انتباهه. وفي أوائل شهر أغسطس، كنا نعمل أنا وهو وحدنا في المنزل وقد ذهب النجّارون وكان «إبس» في الحقل. وشعرت أن تلك هي الفرصة المناسبة وقد لا تتكرّر كي أتحدث معه في الموضوع، وقرّرت أن أفعل، وأن أتحمل العواقب أياً كانت. كنا منشغلين بالعمل عصر ذاك اليوم حين توقّفت فجأة وقلت له: «سيد «باس»، هل لي أن أسألك من أي مدينة أتيت؟».

فأجابني: «لماذا يا «بلات»؟ فيم تفكر؟ فلن تعرف على أي حال حتى لو قلت لك». ثم أردف بعد لحظة: «لقد وُلدت في كندا، فخمّن الآن أين توجد».

«أوه، أنا أعرف أين توجد كندا، وقد كنت هناك من قبل».

فقال وهو يضحك متشككاً: «نعم، أتوقع أن تعرف جيداً أرجاء تلك البلاد كافة».

فأجبته: «أعرف يقيناً يا سيدي، لقد كنت هناك. كنت في «مونتريال» و«كينغستون» و«كوينستون»، والكثير من الأماكن في كندا، كما ذهبت إلى ولاية «يورك»؛ في «بافالو» و«روتشستر» و«ألباني»، ويمكنني أن أخبرك بأسماء القرى على قناتي «إيري» و«شامبلين»».

استدار «باس» ناحيتي وحدّق فيَّ فترة طويلة من من دون أن ينبس ببنت شفة، ثم سألني أخيراً:

«كيف أتيت إلى هنا؟».

«سيد «باس» لو تحقّقت العدالة بالفعل، فما ما كنت أنا هنا الآن».

«حسناً، ومن تكون؟ لا شك لديَّ الآن أنك كنت في كندا، فأنا أعرف كل الأماكن التي ذكرتها. فكيف انتهى بك الأمر إلى هنا؟ هيا، أخبرني بكل ما حدث».

فأجبته: «ليس لديَّ أي أصدقاء هنا كي أخبرهم بسرّي. وأخشى أن أخبرك برغم أنني لا أعتقد أنك سوف تخبر السيد «إبس» إذا ما رويت لك قصتي».

أكّد لي الرجل بمنتهى الجدية أنه سوف يحفظ السرّية التامة لكل كلمة أخبره بها، وبدا جلياً أنه أصبح بالغ الفضول لمعرفة قصتي. فأخبرته أنها قصة طويلة سوف تستغرق بعض الوقت لأقصّها عليه، ومن المتوقّع أن يعود السيد «إبس» في أي لحظة، ولكن إذا كان في وسعه أن يلقاني تلك الليلة بعد أن ينام الجميع، فسوف أخبره بما حدث. وافق على الفور على هذه الترتيبات، وطلب مني أن آتي إلى المبنى الذي كنا نعمل فيه آنذاك، وسوف أجده في انتظاري. ونحو منتصف الليل، عندما ساد الهدوء والصمت، انسللت بحذر من كوخي ودخلت في صمت إلى المبنى الذي لم يزل قيد البناء، ووجدته في انتظاري.

وبعد المزيد من التأكيد من جانبه بأنه لن يخونني أبداً، بدأت أقص عليه تاريخ حياتي ومأساتي. وكان شديد الاهتمام، ووجّه لي الكثير من الأسئلة فيما يتعلق بالأماكن والأحداث. وعندما انتهيت من حديثي، رجوته أن يكتب إلى أصدقائي في الشمال ليعرّفهم بحقيقة موقفي، وأن يطلب منهم أن يرسلوا أوراق حريتي، أو اتخاذ أي إجراء من

شأنه ضمان عتقي من عبوديتي. ووعدني بأن يفعل، ولكنه فكّر في المخاطر التي تحفّ بمثل هذا الإجراء في حال انكشف، وشدّد عليّ بضرورة أن ألتزم الصمت والحذر التام. وقبل أن نفترق في تلك الليلة كنا وضعنا الخطة.

اتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي في مكان محدّد بين الأعشاب العالية على ضفة النهر، على مسافة من مسكن سيدي. وكان هو هناك ليكتب على ورقة أسماء وعناوين الكثير من الأشخاص والأصدقاء القدامى في الشمال حتى يوجّه لهم الخطابات في زيارته التالية إلى «ماركسفيل». فلم يكن من الفطنة أن نلتقي في المنزل الجديد ونضيء الأنوار اللازمة حتى يستطيع الكتابة فينفضح أمرنا. وفي غضون اليوم نجحت في الحصول على بعض من أعواد الثقاب وشمعة صغيرة من المطبخ من دون أن يلحظني أحد في أثناء الفترة القصيرة التي تغيب فيها العمة «فيبي» عن المطبخ. وكان «باس» يحتفظ بقلم رصاص وورقة ضمن أدواته.

تقابلنا في الساعة المحددة على ضفة النهر، وزحفنا بين الأعشاب العالية، فأضأت الشمعة بينما أخرج هو القلم الرصاص والورقة واستعددنا للعمل. أعطيته أسماء «وليام بيري» و«سيفاس باركر» والقاضي «مارفن»، حيث جميعهم من «ساراتوغا سبرينغز»، مقاطعة «ساراتوغا» في نيويورك. وكنت أعمل لدى الأخير في فندق الولايات المتحدة، وتعاقدت على كثير من الأعمال مع الأول، وكنت على ثقة من أن أياً منهم لم يزل على قيد الحياة ويعيش في ذاك المكان. فكتب كل الأسماء بدقة، ثم قال وهو يفكر بعمق:

«لقد مضت سنوات عديدة منذ أن تركتَ «ساراتوغا»، وقد يكون جميعهم قد ماتوا أو انتقلوا. أنت تقول إنك حصلت على الأوراق من مصلحة الجمارك في «نيويورك». ربما كان هناك قيد بها هناك، وأرى أنه ربما من الأفضل لو كتبنا إليهم واستيقنّا الأمر».

وافقته على ذلك وسردت عليه مجدداً التفاصيل المتعلقة بتلك الفترة وزيارتي إلى مصلحة الجمارك مع «براون» و«هاملتون». وبقينا على ضفة النهر ساعة أو أكثر نتحدث عن هذا الموضوع الذي استهلك تفكيرنا، ولم أعد أشك في إخلاصه، وتحدثت إليه بحرية عن المآسي والأحزان الكثيرة التي تحمّلتها في صمت. وحكيت له عن زوجتي وأبنائي، وذكرت له أسماءهم وأعمارهم، والسعادة التي لا توصف إذا ما استطعت ضمّهم إلى صدري مجدّداً قبل أن أموت. وأمسكت بيده، وناشدته بدموعي وتوسّلاتي أن يكون صديقاً لي، وأن يعيد إليَّ أسرتي وحريتي، ووعدته بأن أملأ السماوات صلوات له بقية سنين حياتي، بأن يهبه الله البركة والنعمة والرخاء. وأنني لن أنسى هذا الوعد أبداً متى نعمت بمسرّة الحرّية وأحاط بي رفاق الشباب وعدت إلى أحضان أسرتي، وأنني لن أتوقف أبداً مادامت بي قوة لأن أرفع عيني عالية فأناشد الخالق:

«يا إلهي أنعم ببركاتك على صوته العطوف وشعره الفضي،
وبارك له في عمره طوال حياته حتى يلقاني عندك».

غمرني الرجل بوعود الصداقة والإخلاص، وأكّد بأنه لم يحدث

أن اهتم من قبل بمصير أي شخص كما اهتم بأمري. وتحدّث عن نفسه ببعض الأسى؛ كونه رجلاً وحيداً ومتجولاً في هذا العالم، وأنه يهرم وسرعان ما سيصل إلى نهاية رحلته الدنيوية، ويستقر في مرقده النهائي من من دون صديق أو قريب يحزن عليه، أو يتذكّره، وأن لحياته قيمة زهيدة لنفسه، وأن عليه أن يكرّس ذاته لتحقيق حرّيتي، وأن يواصل حربه المستمرة ضدّ عار العبودية.

صرنا بعد ذلك نادراً ما نتحدث أو يلتفت أحدنا إلى الآخر، بل أصبح أقل انفتاحاً في حديثه مع «إبس» عن موضوع العبودية. ولم يتسلّل أبداً إلى نفس «إبس» أو أي شخص آخر في المزرعة- أبيض كان أو أسود - أي شك ولو طفيفاً بوجود صداقة غير معتادة- أو أي سرّ- بيننا.

كثيراً ما أُسأل ببعض التشكّك كيف نجحت عدة سنوات في أن أخفي عن صحبتي اليومية والمستمرة حقيقة اسمي وتاريخي. كان الدرس الرهيب الذي علّمني إياه «بيرش» قد ترك أثره العميق على عقلي، وأدركت خطر هراء تشديدي على أنني رجل حرّ. لم يكن هناك أي احتمال لأن يتمكّن أي عبد من مساعدتي، بينما يمكن الوشاية بي، من ناحية أخرى. وعندما تستجمع كل أفكاري على مدى اثني عشر عاماً، ويُتأمّل في فكرة الهروب، لن يُتعجّب أنني كنت دائماً حذراً ومنتبهاً. وكان من الحماقة لو أنني طالبت بحقي في الحرّية؛ كان هذا يخضعني لرقابة أكثر عنفاً فحسب، بل ربما كنت نُفيت إلى منطقة أبعد من «بايو بوف» يتعذّر الوصول إليها. وبغض النظر عن حقوق أو أخطاء أي رجل أسود، كان «إدوين إبس»- كما عرفته جيداً - رجلاً

معدوم الإحساس بالإنصاف. ومن ثم، كان من الأهمية بمكان، ليس فقط لأن هذا هو أملي في النجاة، وإنما أيضاً بالنظر إلى الامتيازات الشخصية القليلة التي كان مسموحاً لي الاستمتاع بها، أن أخفي تاريخ حياتي عن الجميع.

في مساء يوم السبت عقب لقائنا على حافة المياه، ذهب «باس» إلى «ماركسفيل». واستغرق اليوم التالي، باعتباره يوم الأحد، في كتابة الرسائل في غرفته؛ فوجّه إحداها إلى جابي الجمارك في «نيويورك»، ورسالة أخرى إلى القاضي «مارفين»، ورسالة ثالثة إلى السادة «باركر وبيري» مجتمعين. وكانت هذه الرسالة الأخيرة هي التي أنقذتني. ووقّع «باس» باسمي الحقيقي ولكنه ألمح في حاشية إلى أنني لم أكن كاتب الرسالة. أما الرسالة ذاتها فأعربت عن أنه يدرك أنه بهذا إنما يشارك في مهمة خطيرة لا تقل عن أنه «وضع حياته على المحك». لم أرَ الرسالة قبل إرسالها، ولكنني حصلت على نسخة منها، وهي كالتالي:

«بايو بوف، 15 أغسطس 1852

«السيد وليام بيري أو السيد سيفاس باركر،

«تحية طيبة- سنوات كثيرة مضت منذ المرة الأخيرة التي تقابلنا أو تحدثنا فيها. أكتب لك هذه الرسالة وأنا على غير يقين من أنك ما زلت على قيد الحياة، غير أن الضرورة المُلِحة هي عذري الوحيد في ذلك.

«تعلم أنني وُلدت حراً على الضفة الأخرى من النهر حيث تعيش،

ولا شك لديّ في معرفتك إياي، بيد أنني هنا الآن أعيش عبداً. أرجو أن تستخرج لأجلي وثائق الحرّية وترسلها لي إلى «ماركسفيل»، «لويزيانا»، أبرشية أفويليس.

مع كل احترامي وتقديري،

سولمون نورثوب»

«أما عن سقوطي في شرك العبودية، فقد أُخذتُ مريضاً ومغشياً عليّ من مدينة «واشنطن». وعندما استعدت وعيي كانت أوراقي قد سُرقت مني، وقيّدت في الأغلال الحديدية طوال طريقي إلى هذه الولاية، ولم تسنح لي أي فرصة كي أكتب لك حتى الآن؛ وهذا الشخص الذي يكتب لك هذه الرسالة إنما يُعرض حياته للخطر إذا انكشف أمره».

الإشارة الضمنية لشخصي في الرواية التي صدرت حديثاً بعنوان «كوخ العم توم» تتضمن الجزء الأول من هذه الرسالة مع حذف التذييل، ولم يتم أيضاً ذكر الأسماء الكاملة للرجلين المحترمين اللذين وُجّهت إليهما الرسالة بشكل صحيح، بل مع اختلاف بسيط ربما لأخطاء مطبعية. والحق أنني مدين بحريتي للحاشية أكثر من الجزء الرئيس في الرسالة، كما سنرى لاحقاً.

عندما عاد «باس» من «ماركسفيل» أخبرني بما فعل، وتابعنا مشاوراتنا الليلية، ولم يكن أحدنا يتحدّث إلى الآخر أبداً في أثناء النهار، إلا عند الضرورة التي يقتضيها العمل. وكان يرى في تقديره أن أقل فترة زمنية تستغرقها الرسالة للوصول إلى «ساراتوغا» بالبريد العادي هي أسبوعان، وفترة مماثلة كي يصل الردّ. وخلصنا إلى أننا سوف نتلقّى رداً، إذا كان هناك رد، في غضون ستة أسابيع. وكان

هناك قدر كبير من الاحتمالات، واستغرق الأمر أحاديث كثيرة بيننا فيما يتعلق بالطريقة الأمثل والأسلم لاستلام أوراق إثبات الحرّية. فهي سوف تحول من دون إيقاع الضرر به في حال انكشف أمرنا واعتقلنا وتركنا البلدة بأكملها. قد لا يعد هذا خرقاً للقانون، ولكن مساعدة رجل حرّ على استعادة حريته سوف يثير عداء فردياً.

وبعد انقضاء أربعة أسابيع كان في «ماركسفيل» مجدداً، ولكن لم يكن هناك أي رسائل. ولكم أصابني ذلك بخيبة أمل بالغة، ولكنني كنت أواسي نفسي في التفكير بأن الوقت الكافي لم ينقضِ بعد، وأنه قد يكون هناك بعض التأخير، وأنه لا يمكنني توقّع وصول أي رد بسرعة. ولكن مرّت ستة أسابيع، وسبعة أسابيع، وثمانية، وعشرة أسابيع ولم يصلنا أي شيء. كنت أصاب بحُمّى الانتظار والترقّب كلما ذهب «باس» إلى «ماركسفيل»، ولم أكن أهنأ بأي نوم حتى يعود. وأخيراً انتهى العمل في منزل سيدي، وبات من الضروري أن يرحل «باس». كنت مفعماً بالأسى في الليلة السابقة على رحيله. وتشبّثت به كرجل يتعلق بقشّة تنجيه من الغرق وكأني إن أفلته فسوف أغرق في الأعماق إلى الأبد. وتحوّل الأمل العظيم الذي عقدت عليه انتظاري طوال تلك الفترة إلى رماد تذروه الرياح. شعرت وكأنني أغرق في أعماق أمواج العبودية المريرة، أعماق لا يسبر غورها ولا منجى منها.

امتلأ قلب صديقي السخيّ والمتبرّع بمساعدتي بالأسى والشفقة لمرأى حزني ويأسي. وحاول جاهداً رفع معنوياتي، ووعدني بأن يعود في اليوم السابق لأعياد الميلاد، وإذا لم تصلنا أي معلومات حتى ذاك الوقت ستكون هناك تدابير أخرى يمكننا اتخاذها لتنفيذ خطتنا.

وطلب مني استبقاء الأمل والاعتماد على جهوده التي سيواصلها بالإنابة عني، مؤكّداً لي بلغة هي الأكثر جدية وتأثيراً أن استرداد حرّيتي بات هدفه الرئيس.

مرّ الوقتُ بطيئاً في غيابه، ورحت أتطلع إلى أعياد الميلاد بمنتهى القلق ونفاد صبر، وأصبحت على وشك التخلّي عن توقّع تلقّي أي ردود على رسائلي؛ ربما ضاعت أو لم يتم تسليمها في العناوين الصحيحة. أو ربما كان الأشخاص الموجّهة إليهم الرسائل في «ساراتوغا» قد وافتهم المنية جميعاً؛ أو ربما كانوا مشغولين فلم يعبؤوا بمصير رجل أسود غامض وتعيس. انعقدت كل آمالي على «باس». وكان يقيني الذي وضعته فيه يطمئنني دائماً، ويمكّنني من الصمود أمام تيار خيبة الأمل الذي غمرني.

انغمست تماماً في التفكير في وضعي والتوقّعات المنتظرة لي حتى لاحظ زملائي في الحقل شرودي. فتسألني «باتسي» إذا كنت مريضاً، بينما يعرب العم «أبرام» و«بوب» و«ويلي» عن فضولهم المستمر ورغبتهم في معرفة ما يشغل بالي على هذا النحو. ولكنني كنت أتجنّب تساؤلاتهم بإبداء ملاحظات طفيفة، وأغلقت على أفكاري في صدري فلا تنفلت مني أبداً.

الفصل العشرون

صدق الرجل! وفي عشية عيد الميلاد أتى «باس» إلى الفناء ممتطياً جواده.

فقال «إبس» وهو يصافحه باليد: «كيف حالك؟ سررت لرؤيتك».

لم يكن ليسعد كثيراً لو عرف الهدف من هذه الزيارة.

أجابه «باس» قائلاً: «أنا بخير حال. لديَّ بعض العمل على النهر، ورأيتُ أن أقوم بزيارتك وأمكث عندك هذه الليلة».

أمر «إبس» أحد عبيده ليتولّى أمر الفرس، وبكثير من الحديث والضحك دخلا إلى المنزل معاً، إلا أن «باس» نظر إليَّ نظرة ذات معنى وكأنه يقول لي: «ابقِ الأمر سراً، نحن نفهم أحدنا الآخر».

كانت الساعة العاشرة ليلاً عندما انتهى العمل في ذلك اليوم ودخلت كوخي. وكان العم «أبرام» و«بوب» يقيمان معي في الكوخ ذاته آنذاك. فاستلقيت فوق اللوح الخاص بي وادعيت النوم. وعندما راح رفيقاي في سباتهم العميق، تسلّلت خارجاً من الباب ثم راقبت الطريق وأرهفت السمع في حذر متلمساً أي علامة أو صوت من «باس». ووقفت كذلك كثيراً حتى بعد منتصف الليل، بيد أنني لم أسمع ولم أرَ شيئاً. فكما توقعت، لم يجرؤ الرجل على ترك المنزل خشية

إثارة ارتياب أي من أفراد الأسرة. وصحّ تخميني أنه سينهض في وقت أبكر من عادته، وينتهز فرصة أن يراني قبل أن يستيقظ «إبس». ومن ثم أيقظت العم «أبرام» ساعة مبكراً عن المعتاد، وأرسلته إلى المنزل لإشعال بعض النيران، وهو الدور الذي يُناط به في مواسم الأعياد.

كما أيقظت «بوب» بعنف وأنا أسأله إذا كان يعتزم النوم حتى الظهيرة، وقلت له إن السيد سوف يستيقظ قبل إطعام البغال. وكان يعلم جيداً العواقب الوخيمة لمثل هذا الأمر، فقفز على قدميه واقفاً وتوجّه إلى مرعى الجياد في طرفة عين.

وفور أن ذهب الاثنان، انسل «باس» إلى الكوخ قائلاً: «لم تصل أي خطابات بعد يا «بلات»!»، وسقط حديثه على قلبي كحجر من الرصاص.

فقلت له باكياً: «اكتب مجدداً سيد «باس». سوف أعطيك أسماء أخرى كثيرة لأناس أعرفهم. لا بد من أن أحدهم لم يزل على قيد الحياة؛ أحدهم سوف يرّق لحالي».

«لا فائدة من ذلك، لا فائدة. لقد حسمت أمري. أخشى أن يرتاب موظف البريد في «ماركسفيل» في شيء ما. لقد تردّدت كثيراً على مكتبه للسؤال، وهذا جدّ خطير».

قلت متألماً: «انتهى الأمر إذن. يا إلهي، هل ستنتهي حياتي هنا؟».

«لن تنتهي حياتك هنا إلا إذا وافتك المنية سريعاً. لقد فكرت في هذا الأمر جيداً ووصلت إلى قرار. هناك طرق كثيرة لإنجاز هذه المسألة أفضل وأكثر فعالية من كتابة الخطابات. لديَّ الآن عمل أو اثنان سوف أنتهي منهما بحلول مارس أو أبريل. وعندئذٍ سيكون لديَّ

قدر وافر من المال يا «بلات»، وسوف أذهب بنفسي إلى «ساراتوغا».

لم أكد أصدق ما يقول، ولكنه أكّد لي بما لا يدع مجالاً للشك في صدق نواياه، وصدّقت أنه إذا أمهلته الأقدار حتى الربيع فسوف يذهب في هذه الرحلة ولا شك.

وواصل حديثه قائلاً: «لقد عشت في هذه المنطقة فترة طويلة بما يكفي. قد أتنقّل من مكان لآخر، لكنني أفكر مؤخراً في العودة مجدداً إلى مسقط رأسي. أنا متعب من العبودية بقدر تعبك منها. وإذا نجحت في تخليصك من هنا فسوف يكون ذلك عملاً جيداً يسعدني أن أفكر فيه طوال حياتي. وسوف أفعل يا «بلات».. أعدك أني سأفعل. والآن دعني أخبرك ما أريده منك. سرعان ما سيستيقظ «إبس»، ولن يكون من الجيد أن يراني هنا. أريدك أن تفكر في كل الرجال العظام في «ساراتوغا» و«ساندي هِلْ» وفي المناطق من حولها الذين عرفتهم ذات يوم. وسوف أجد عذراً آخر كي أعود إلى هنا في الشتاء وأكتب أسماءهم، فأعرف من يجب عليَّ زيارته حين أذهب إلى هناك. فكّر في كل الأشخاص الذين تتذكرهم. وتفاءل! لا تدع خيبة الأمل تأكل قلبك. أنا معك في الحياة أو الموت. مع السلامة، وليباركك الرب».

قال هذا وغادر الكوخ على الفور ودخل المنزل الكبير.

كان ذلك صباح عيد الميلاد؛ اليوم الأسعد بالنسبة إلى العبيد على مدار العام. ففي هذا اليوم لا يضطر إلى الإسراع إلى الحقل حاملاً ثمرة القرع وحقيبة القطن. كانت السعادة تلمع في العيون وترتسم على ملامح الجميع. ثم حلّ وقت الولائم والرقص، وباتت حقول القصب والقطن مهجورة. كان ذاك هو اليوم المخصص لارتداء

الثياب النظيفة والشرائط الحمراء؛ يوم التجمّعات والمرح والضحك، والذهاب هنا وهناك. كان يوماً للحرّية بين أبناء العبيد، يسعدون فيه ويمرحون.

بعد الإفطار، كان «إبس» و«باس» يتسكعان حول الفناء، ويتحدثان عن سعر القطن وموضوعات أخرى مختلفة، حين سأله «باس»: «أين يحتفل زنوجك بعيد الميلاد؟»

«سوف يذهب «بلات» إلى منزل «تانر» اليوم. فالطلب شديد على كمنجته. ويريدونه في منزل «مارشال» يوم الاثنين، وكتبت لي الآنسة «ماري ماكوي» من مزرعة العجوز «نوروود» تخبرني أنها تريده أن يعزف لزنوجها يوم الثلاثاء».

قال «باس»: «يبدو فتى ذكياً، أليس كذلك؟»، ثم أردف وهو ينظر لي وأنا أقترب منهما، كما لو أننا لم نتقابل معاً بشكل خاص من قبل: «تعال يا «بلات»».

«نعم»، قال «إبس» وهو يمسك بذراعي ويتحسّسه، «كل عضلاته تعمل بشكل جيد. ولا يوجد فتى في المنطقة أعلى منه ثمناً؛ سليم تماماً ولا يلجأ إلى الحِيل القذرة. اللعنة عليه، إنه ليس كبقية الزنوج؛ لا يشبههم ولا يتصرف مثلهم. تلقّيت عرضاً بألف وسبعمائة دولار لشرائه الأسبوع الماضي».

فسأله «باس» وقد بدا مندهشاً: «ولم تقبل العرض؟»

«أقبله؟ .. لا، صفقة خاسرة تلك! إنه عبقري؛ يمكنه تشغيل المحراث، وقيادة العربة، وأي شيء، تماماً كما تستطيع أن تفعل أنت. لقد أراد «مارشال» أن يضع زنجياً من زنوجه في مقابل «بلات» وأن

نقامر عليهما، ولكنني قلت له: فليأخذه الشيطان قبل أن أخسره».

فقال «باس»: «ولكنني لا أرى فيه شيئاً مميزاً».

فقال «إبس» مؤكداً: «لماذا؟! تحسّس جسده. قلّما تجد فتياناً آخرين متسّقة أجسادهم على هذا النحو. جلده رقيق ولا يتحمل الكثير من الجلد مثل بعضهم، ولكن عضلاته لا تشوبها شائبة».

تحسّسني «باس»، وجعلني أستدير، وفحصني بعمق بينما «إبس» يشير إلى مزاياي طول الوقت. ولكن بدا أن الزائر لم يتحمّس كثيراً لما يراه، ومن ثم أسقط الحديث عن الموضوع. وسرعان ما غادر «باس» بعد أن أعطاني نظرة خبيثة أخرى ذات معنى وهو ويبرح الفناء.

بعد أن ذهب حصلت على تصريح وتوجّهت إلى منزل «تانر»، ليس منزل «بيتر تانر» الذي ذكرته من قبل، وإنما أحد أقربائه. وعزفت على الكمان في أثناء اليوم وغالبية الليل، وقضيت اليوم التالي، يوم الأحد، في كوخي. وفي يوم الاثنين عبرت النهر إلى منزل «دوغلاس مارشال» ومعي كل عبيد «إبس»، ثم ذهبت يوم الثلاثاء إلى مزرعة «نوروود» العجوز، وهي ثالث مزرعة بعد مزرعة «مارشال» على الجانب نفسه من النهر.

تمتلك الآنسة «ماري ماكوي» هذه الضيعة الآن، وهي فتاة لطيفة في العشرينيات من عمرها. وهي جميلة «بايو بوف» وفخرها. كما أنها تمتلك نحو مائة من الأيدي العاملة إلى جانب الكثير من الخدم في المنزل، والفتيان في الفناء، والأطفال الصغار. ووكيل أعمالها العام هو زوج أختها الذي يعيش في ضيعة مجاورة. وهي محبوبة من كل عبيدها، والحق أن لديهم من الأسباب الجيدة ما يجعلهم ممتنين للوقوع في أيدٍ

بمثل هذه الفتاة الرقيقة. فما من مكان آخر على النهر يقيم الولائم ويصنع المرح على النحو الذي تفعله السيدة «ماكوي». ولا يوجد مكان آخر يحب الكبار والصغار على مسافة أميال حول المكان أن يتوجّهوا إليه في عطلات عيد الميلاد، حيث هنا يجدون ألذ الأطعمة، وهنا يجدون من يتحدث إليهم بلطف، أكثر من أي مكان آخر. ولا يوجد من ينعم بحب الجميع، ويحتل مساحة كبيرة في قلوب الآلاف من العبيد، مثل السيدة «ماكوي» الصغيرة، سيدة ضيعة «نوروود» اليتمية.

وعند وصولي إلى ضيعتها وجدت مائتين أو ثلاثمائة مجتمعين بالفعل. كانت المائدة مُعدّة في بناية طويلة تم بناؤها خصيصاً لعبيدها كي يرقصوا فيها. وكانت المائدة مغطّاة بكل صنوف الطعام التي تتيحها البلدة، ووُصفت من قِبل الجميع بأنها مائدة العشاء الأكثر ندرة في المنطقة؛ الديك الرومي المشوي، ولحم الخنزير، والدجاج، والبط، وأنواع اللحوم المقلية والمشوية كافة، والتي شكّلت خطاً بطول المائدة المتمدة، بينما امتلأت الفراغات بالفطائر وحلوى الهلام والكعك المُجمّد، ومخبوزات من كل الأنواع. وكانت السيدة الصغيرة تحرص على التجوّل مبتسمة حول المائدة وإلقاء كلماتها الطيبة على الجميع، وبدت في منتهى السعادة.

وعندما انتهى العشاء، أزيلت المائدة وأُعدت الغرفة للرقص، فضبطت كمنجتي وبدأت في إطلاق أنغامها؛ وبينما انضم بعضهم للرقص في دوائر رشيقة، اكتفى آخرون بشدو أغانيهم الإيقاعية البسيطة، حتى امتلأت الغرفة الكبيرة بالموسيقى ممتزجة بالأصوات

البشرية وإيقاع الكثير من الأقدام.

وفي المساء، عادت السيدة ووقفت عند الباب فترة طويلة تنظر إلينا. كانت رائعة الجمال؛ أتى اللون الداكن لشعرها وعينيها مناقضاً لبشرتها الفاتحة والرقيقة. وكان قوامها رقيقاً ولكن ملفتاً للنظر، وحركتها مزيجاً من النبل والكياسة. وبينما كانت تقف هناك، مرتدية ثيابها الباهظة الثمن، والحبور يغمر وجهها، شعرت أنني لم أطالع قط شخصاً بنصف هذا الجمال. ولكم يسرّني وصف هذه السيدة المنصفة الرقيقة، ليس فقط لأنها ألهمتني بمشاعر الامتنان والإعجاب، ولكن لأنها جعلتني أدرك أن ليس كل مالكي العبيد في «بايو بوف» على شاكلة «إبس» أو «تيبيتس» أو «جيم بيرنز». فمن وقت لآخر- وإن كان نادراً- يمكنك أن تجد رجلاً جيداً مثل «وليام فورد»، أو ملاكاً من اللطف مثل السيدة «ماكوي» الصغيرة.

كان يوم الثلاثاء نهاية أيام العطلة الثلاثة التي يسمح لنا بها «إبس» سنوياً. وفي طريق عودتي إلى المنزل في صباح يوم الأربعاء، وفي أثناء مروري بمزرعة «ويليام بيرس»، حيّاني هذا الرجل وهو يقول إنه تلقّى خطاباً من «إبس» أوصله له «وليام فارنيل» يسمح له باستبقائي تلك الليلة عنده كي أعزف لعبيده. وكانت تلك المرة الأخيرة التي قُدّر لي فيها أن أرى زنجياً يرقص على ضفاف «بايو بوف». واستمر الحفل في منزل «بيرس» بكل بهجته حتى أشرق النهار وعدت إلى منزل سيدي منهكاً وأحتاج إلى الراحة، ولكنني كنت سعيداً بقطع النقود الكثيرة التي أعطاها لي البيض في غمار سعادتهم بعزفي الموسيقيّ.

في صباح يوم السبت، أطلت النوم للمرة الأولى منذ عدة سنوات.

وخشيت أن أخرج من كوخي لأجد العبيد قد ذهبوا إلى الحقل بالفعل، وكانوا قد سبقوني بنحو خمس عشرة دقيقة. فأسرعت إلى الحقل لألحق بهم تاركاً غدائي وثمرة القرع التي تحمل المياه. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد ولكن «إبس» كان في الفناء عندما تركت الكوخ، وقال: إن هذا وقت متأخر من اليوم للاستيقاظ. وببعض المجهود الإضافي، استطعت الانتهاء من الصف الخاص بي عندما عاد من إفطاره. إلا أن هذا لم يكن عذراً يمحو ذنب إفراطي في النوم، فطلب مني خلع ثيابي والاستلقاء على وجهي، وتلقّيت عشر أو خمس عشرة جلدة، وانتهى متسائلاً ما إذا كان هذا سوف يذكرني بالنهوض في الصباح. فأجبته نعم وذهبت لمواصلة عملي والجلدات اللاذعة تلهب ظهري.

وفي صباح اليوم التالي، يوم الأحد، كنت أفكر في «باس» والاحتمالات والآمال المعلّقة على تصرّفه وعزيمته. وأخذت أتأمل تصاريف الأقدار؛ ماذا لو شاء الخالق أن يقبض روحه؟ ستكون هذه نهايةً حتميةً لكل احتمالات نجاتي، وتدميراً لآمال سعادتي في هذا العالم. غمرني ذلك بالأسى والحزن طوال اليوم، وعندما أويت إلى النوم ليلاً فوق ذاك اللوح، كان قلبي مهموماً بأحمال الحزن حتى خِلتُه سينفطر.

في صباح يوم الاثنين، الثالث من يناير لعام 1853، كنّا نعمل في الحقل. كان ذاك صباحاً رطباً وبارداً على نحو غير معتاد في هذه المنطقة. كنت في المقدمة ومن بعدي العم «أبرام»، ومن خلفه «بوب» و«باتسي» و«ويلي»، وكلنا نحمل حقائب القطن في أعناقنا. وحدث

أن أتى «إبس» إلى الحقل هذا الصباح (وهو أمر نادر الحدوث بالفعل) من من دون سوطه. كان يسبّ ويشتم على نحو يخجل منه القراصنة، زاعماً أننا لم نكن نفعل شيئاً. وتجرّأ «بوب» فقال إن أصابعه خدِرة من البرد ما يمنعه من الالتقاط سريعاً، فلعن «إبس» نفسه لأنه لم يحضر معه السوط، وقال إنه حين يعود مجدداً سوف يعمل على تدفئتنا جيداً. نعم؛ سوف يجعلنا أكثر حرارة من ذاك الجحيم الذي أؤمن أحياناً أنه سيبقى فيه إلى الأبد.

ثم تركنا بعد قوله هذا وذهب. وما إن أصبح بعيداً بحيث لا يسمعنا، شرعنا نتحدث إلى بعضنا بعضاً حول صعوبة أن نضطر للقيام بمهامنا نفسها وأصابعنا على هذا النحو؛ وكيف أن السيد «إبس» كان يتصرّف بشكل غير معقول، وكان حديثنا عنه سيئاً بشكل عام. وقطعت حديثنا عربة كانت تأتي مسرعة صوب المنزل. وعندما نظرت رأيت رجليْن يقتربان نحونا عبر حقل القطن.

****

الآن وقد وصلت في روايتي إلى الساعة الأخيرة التي اضطررت فيها إلى البقاء في «بايو بوف»، وآخر مرة كنت فيها في حقل القطن، وأصبحت على وشك وداع السيد «إبس»، عليّ أن أرجو القارىء أن يعود معي إلى شهر أغسطس حتى نتتبع مسار الرسالة التي أرسلها «باس» في رحلتها الطويلة إلى «ساراتوغا»، لنتعرف على التأثير الذي أحدثته، وأنه بينما كنت أذوي حزناً ويأساً في كوخ العبودية لدى «إدوين إبس»، وعبر صداقة «باس» ورعاية السماء، كانت كل الأمور تمضي صوب عتقي.

الفصل الحادي والعشرون

أدين للسيد «هنري بي نورثوب» وآخرين للعديد من التفاصيل المتضمنة في هذا الفصل.

كانت الرسالة التي كتبها «باس» ووجّهها إلى «باركر وبيري»، والتي أودعها مكتب البريد في «ماركسفيل» بتاريخ 15 أغسطس 1852، كانت قد وصلت إلى «ساراتوغا» في أوائل شهر سبتمبر. وفي وقت سابق على ذلك، كانت «آن» قد انتقلت إلى مقاطعة «غلينز فولز» حيث تولّت مهام المطبخ في «كاربنترز أوتيل». ولكنها احتفظت بمنزل خاص بها حيث مكثت مع أبنائنا ولم تغب عنهم في تلك الأوقات التي كانت تُعفى فيها من مهامها في الفندق.

عندما استلم السيدان «باركر» و«بيري» الرسالة قاما بإحالتها إلى آن على الفور. وبعد قراءتها، تحمّس الأبناء كثيراً وذهبوا من من دون تأخير إلى «ساندي هيل» لاستشارة «هنري بي نورثوب»، والحصول على نصيحته ومساعدته في هذا الشأن.

وعند دراسة المسألة وجد ذلك الرجل أن هناك من بين قوانين الولاية قانوناً ينص على استرداد المواطنين الأحرار من العبودية تم إقراره في 14 مايوم 1840، تحت عنوان «قانون أكثر فعالية لحماية المواطنين الأحرار في الولاية من خطفهم أو إخضاعهم للعبودية».

وينص هذا القانون على أن الحاكم يتحمل المسؤولية عند استلامه معلومات مؤكّدة بأن أي مواطن أو ساكن حرّ في هذه الولاية قد تم اصطحابه خطأً إلى ولاية أو منطقة أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية بزعم أو ادعاء أن هذا الشخص عبد، أو اعتُبر بسبب اللون، وفق أي استخدام أو قاعدة قانونية، اعتُبر أو تم أخذه باعتباره عبداً، فيتعين على الحاكم عندئذ اتخاذ التدابير الضرورية لاسترداد هذا الشخص لحرّيته. وتحقيقاً لهذه الغاية، يُخوّل له تعيين وتوظيف وكيل له، يحقّ له تزويده بكل وثائق التفويض والتعليمات اللازمة لتحقيقه الغرض الذي تم تعيينه من أجله. ويستلزم الأمر أن يمضي الوكيل المعيّن على هذا النحو في جمع الإثبات المناسب لترسيخ حقّ هذا الشخص في حرّيته؛ وكذلك القيام بأي رحلات، واتخاذ أي تدابير، وإقامة أي إجراءات قانونية، وغير ذلك، على النحو الذي يلزم لإعادة هذا الشخص إلى الولاية، على أن يتم تحميل المصروفات المتكبدة كافة في تفعيل هذا القانون على أموال مخصّصة لهذه الغاية في الخزانة[1].

كان من الضروري إثبات حقيقتين لإقناع الحاكم؛ الأولى، أنني كنت مواطناً حراً من نيويورك؛ والثانية، أنني قد أُسِرت في أغلال العبودية عن طريق الخطأ. لم تكن هناك صعوبة فيما يتعلق بالنقطة الأولى، فكل كبار السن الذين يعيشون في المنطقة كانوا على استعداد كي يشهدوا على هذا. أما النقطة الثانية فكانت تعتمد بالكامل على الرسالة المرسلة إلى «باركر» و«بيري» بخط يد غير معروف لهما، وعلى

(1) انظر الملحق (أ).

الرسالة المرسلة على متن الباخرة «أورليانز»، والتي ضلّت طريقها للأسف أو فُقِدت عمداً.

تم بالفعل إعداد مذكرة موجّهة إلى سعادة الحاكم «هنت»، أوضحت فيها زواجها، ورحيلي إلى مدينة «واشنطن»، واستلامها الرسالة، وأنني كنت بالفعل مواطناً حراً، وكل الوقائع الأخرى التي تعتبر مهمة، وتم التوقيع عليها والتحقّق منها من قِبل «آن». كما أرفقت بهذه المذكرة العديد من الإفادات من مواطنين بارزين من «ساندي هِلْ» و«فورت فوروارد»، تؤيّد جميعها الحقائق المتضمنة في المذكرة، وكذلك طلب من العديد من الرجال المعروفين للحاكم، تعيين «هنري بي نورثوب» وكيلاً بموجب القانون التشريعي.

وبعد قراءة المذكرة والإفادات، بدا الحاكم مهتماً جداً بالمسألة، وفي 23 نوفمبر 1852، وتحت ختم الولاية، «تم تعيين وتوظيف «هنري بي نورثوب» الموقّر كي يكون وكيلاً، له مطلق الصلاحيات لتنفيذ» استعادتي، واتخاذ كل تلك التدابير التي تلزم لتحقيق هذا الغرض، ووجّه له التعليمات للسفر إلى «لويزيانا» مع الوفد المناسب للمهمة[2].

ولكن الطبيعة المُلحّة للتعاقدات المهنية والسياسية للسيد «نورثوب» قد تسبّبت في تأخير مغادرته حتى شهر ديسمبر. وفي اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ترك «ساندي هِلْ» وتابع حتى واشنطن. وعند سماع الإفادة بالوقائع، وفحص المذكرة وبعض الوثائق المعتمدة من المذكرة والإفادات الملحقة بها، عمد كل من الموقّر «بيير سولي»، سيناتور الكونغرس من «لويزيانا»، والموقّر السيد كونراد، وزير

(2) انظر الملحق (ب).

الحرب، والقاضي نيلسون من المحكمة العليا للولايات المتحدة، إلى تسليم «نورثوب» خطابات مفتوحة إلى نبلاء في «لويزيانا»، يحثّونهم على المساعدة في تحقيق هذا الغرض.

اهتم السيناتور «سولي» بصفة خاصة بهذه المسألة، وشدّد بلغة قوية على أنه من واجب ومصلحة كل مزارع في هذه الولاية أن يساعد على استردادي حريتي، وأعرب عن ثقته في أن أصول الشرف والعدالة الكامنة في نفس كل مواطن في الكومنولث سوف تدفعه على الفور إلى العمل والتصرّف بالإنابة عني. فور الحصول على هذه الخطابات القيّمة، عاد «نورثوب» إلى «بالتيمور»، ومنها إلى «بيتسبيرغ». وكانت نيته الأصلية، وفق نصائح من أصدقاء له في «واشنطن»، أن يمضي مباشرة إلى «نيو أورليانز» والتشاور مع السلطات في المدينة. إلا أنه غيّر رأيه عند وصوله إلى مصبّ نهر «رد ريفر». ولو أنه تابع طريقه لما كان قد قابل «باس»، وربما بات البحث عني عقيماً.

اتخذ الرجل الباخرة الأولى التي وصلت إلى مصبّ النهر ثم تابع رحلته أعلى تيار النهر البطيء الملتوي، المتدفق عبر منطقة واسعة من الغابات البدائية والمستنقعات التي لا يمكن اختراقها، والتي تكاد تخلو تماماً من السكان. وفي حوالي الساعة التاسعة من مساء الأول من يناير لعام 1853، ترك السيد «نورثوب» الباخرة في «ماركسفيل» ومضى مباشرة إلى «محكمة ماركسفيل» في قرية صغيرة تبعد أربعة أميال بالداخل.

نظراً إلى أن الرسالة الموجّهة إلى السيدين «باركر» و«بيري» كانت مرسلة من مكتب بريد في «ماركسفيل»، فقد افترض أنني في هذا

المكان أو بالقرب منه. وعند وصوله هذه البلدة عرض الأمر على الموقّر «جون بي واديل»، وهو قانوني محترم ومميّز، ورجل يتسّم بالعبقرية وأسمى آيات النبل. وبعد قراءة الرسائل والوثائق المقدمة له، والاستماع إلى عرض الملابسات التي أوصلتني إلى الأسر، عرض السيد «واديل» خدماته على الفور، واستقبل الأمر بحماسة وجدية حقّة. وشأن الآخرين ذوي الشخصيات الراقية، استاء كثيراً من موقف الخاطفين. فسندات الملكية الشرعية لأبناء أبرشيته وعملائه في الممتلكات، والتي تمثّل القاسم الأكبر من ثرواتهم، لا تعتمد فقط على حسن النية في معاملات بيع العبيد، ولكنه كان ينقم كذلك على مثل هذا التصرفات الغاشمة.

وعلى الرغم من أن «ماركسفيل» تحتل مكانة وموقعاً بارزين على خارطة «لويزيانا»، فإنها في واقع الأمر قرية صغيرة وتافهة. وباستثناء الحانة التي يمتلكها رجل مرح وكريم، ودار القضاء التي تسكنها الأبقار والخنازير غير الشرعية في مواسم الإجازات، ومنصات الإعدام العالية التي تتدلّى حبائلها ذات العقد في الهواء، هناك القليل الذي قد يجذب انتباه أي غريب يأتي إلى البلدة.

لم يكن السيد «واديل» قد سمع أبداً باسم «سولمون نورثوب»، ولكنه كان على ثقة من أنه لو كان هناك عبد يحمل هذا الاسم في «ماركسفيل» أو في المنطقة من حولها، فلا شك أن فتاه الأسود «توم» سوف يعرفه. ومن ثم استُدعي «توم»، ولكنه لم يكن على علم بتلك الشخصية في محيط معارفه.

كان الخطاب الموجَّه إلى «بارِكر» و«بيري» مؤرخاً في «بايو بوف»،

فانتهى إلى أن هذا هو المكان الذي ينبغي أن يبحث عني فيه. وهنا نشأت صعوبة كبيرة بالفعل. كانت أقرب نقطة في «بايو بوف» تقع على مسافة ثلاثة وعشرين ميلاً، وكان هذا الاسم ينطبق على جزء المقاطعة الممتد بين خمسين ومائة ميل على جانبي التيار المائي. وهناك الآلاف والآلاف من العبيد الذين يعيشون على ضفافه، حيث ثراء التربة وخصوبتها المميّزة تجتذبان العديد والعديد من المزارعين. وكانت المعلومات المتضمنة في هذه الرسالة غامضة جداً وغير محدّدة، حتى أصبح من الصعب الاستقرار على المسار الذي يجدر اتباعه. وبدا أن الخطة الوحيدة التي قد يحالفها النجاح هي أن يذهب «نورثوب» وأخو «واديل»، وهو طالب في مكتب أخيه، إلى النهر، فيجوبا أحد جانبيه صعوداً والجانب الآخر هبوطاً على طول المسافة، ويسألا في كل مزرعة عني. واقترح السيد «واديل» استخدام عربته، وتم بالفعل إعدادها حتى يبدأ رحلتهما في الصباح الباكر ليوم الاثنين.

بالطبع يبدو من أول وهلة، احتمال فشل هذه الخطة. فمن المستحيل أن يمضيا في كل الحقول ويتفحصا كل المجموعات التي تعمل فيها؛ لا سيّما وهما لا يعلمان أنني معروف هنا باسم «بلات»؛ وحتى إن وصلا إلى «إبس» ذاته، فسوف يجدونه على غير عِلم على الإطلاق بـ «سولمون نورثوب».

وإذا قرّرا اتخاذ هذا الترتيب بالفعل، فلم يكن هناك ما يمكن فعله حتى انقضاء يوم الأحد ذاك، وتحوّل النقاش بين «نورثوب» و«واديل» طيلة بعد الظهيرة إلى الحديث عن السياسة في نيويورك.

فقال السيد «واديل»: «بالكاد أفهم الفروق والظلال الطفيفة بين

الأحزاب السياسية في ولايتكم. فأنا أقرأ عن أحزاب تحت مسميات «سوفت شيلز» و«هارد شيلز» و«هانكرز» و«بارنبينرنز» و«وولي هيدز» و«سيلفر جرايز»، ولكنني أعجز تماماً عن فهم الفروق الدقيقة بينهم. بحقك، ما الفرق بين كل هذه الأحزاب؟».

أعاد السيد «نورثوب» ملء غليونه ودخل في حوار مطوّل عن أصل هذه الأقسام الحزبية المختلفة، واختتم بقوله إن هناك حزباً آخر في نيويورك يُعرف باسم «نيو سويلرز» أو حزب «إبطال الاسترقاق». وأضاف: «أعتقد أنك لم ترَ أيّاً من هؤلاء في هذا الجزء من البلاد، أليس كذلك؟».

أجابه «واديل» ضاحكاً: «أبداً، باستثناء واحد. لدينا واحد هنا في «ماركسفيل»؛ وهو مخلوق غريب الأطوار يبشّر بإبطال الاسترقاق بشدة كأي متعصّب في الشمال. هو شخص كريم وغير مؤذٍ، ولكنه دائماً يتبنّى الجانب الخطأ في الجدال. ولكننا نتسلّى به كثيراً، فضلاً عن أنه ميكانيكي ماهر ولا غنى عنه في هذا المجتمع. وهو نجار، يُدعى «باس»».

واصل الرجلان حديثهما اللطيف قليلاً عن «باس» وغرابة أطواره، عندما استغرق «واديل» فجأة في تفكير عميق وطلب الاطلاع على الخطاب الغامض مجدداً.

قال مردّداً وهو يفكر بعمق وينظر إلى الرسالة مجدداً: «دعني أرى .. دعني أرى. (***«بايو بوف» في 15 أغسطس***) ومرسلة من مكتب بريد من هنا.. (***وهذا الشخص الذي يكتب لك هذه الرسالة بالإنابة عني..***)»، وأردف متسائلاً وهو يستدير فجأة نحو أخيه، «أين كان

«باس» يعمل في الصيف الماضي؟». ولم تكن لدى أخيه إجابة عن هذا السؤال، ولكنه ترك المكتب وعاد ليقول: «كان يعمل في مكان ما في «بايو بوف» في الصيف الماضي».

فقال «واديل» وهو يضع الرسالة بشدة فوق المنضدة: «هو إذن الرجل الذي في وسعه أن يخبرنا كل شيء عن سولمون نورثوب».

وبالفعل بدأ البحث عن «باس» ولكن من دون جدوى. وبعد بعض التحقيق، تأكدوا من أنه في «رد ريفر». دبّر «واديل» الصغير و«نورثوب» وسيلة مواصلات ولم يمضِ وقت طويل حتى قطعا تلك الأميال القليلة ووصلا إلى هذا المكان؛ حيث وجدا «باس» على وشك أن يغادر لمدة أسبوعين أو نحوهما. وبعد أن قدّما نفسيهما، طلب منه «نورثوب» أن يتحدّثا بمفردهما للحظة. وسار الرجلان معاً صوب النهر ودار بينهما هذا الحوار:

قال «نورثوب»: «سيد «باس».. اسمح لي أن أسألك ما إذا كنت قد قضيت بعض الوقت في «بايو بوف» في شهر أغسطس الماضي؟».

«نعم يا سيدي، كنت هناك في شهر أغسطس».

«وهل كتبت رسالة لرجل أسود من هذا المكان وجّهتها إلى رجل في «ساراتوغا سبرينغز»؟».

«معذرة يا سيدي إن قلت لك إن هذا ليس من شأنك»، أجابه «باس» وهو يتوقّف وينظر بإمعان في وجه هذا الرجل الذي يحقق معه.

«ربما قد تعجّلت السؤال يا سيد «باس»، أعتذر عن هذا؛ ولكنني أتيت من ولاية نيويورك لتحقيق هدف رجل كتب لي رسالة مؤرخة

في 15 أغسطس، ومرسلة من بريد «ماركسفيل». وقد قادتني الظروف إلى التفكير بأنه ربما كنت أنت من كتب هذه الرسالة. أنا أبحث عن «سولمون نورثوب». فإذا كنت تعرفه أرجوك أن تخبرني صراحة عن مكانه، وأؤكد لك أنني سوف أحفظ سرية مصدر أي معلومات قد تكشف لي عنها إذا أردت هذا».

نظر «باس» في عيني محدثه فترة طويلة من دون أن ينبس ببنت شفة، وبدا متشككاً في ما إذا كانت هذه محاولة لخداعه. وأخيراً قال وقد اتخذ قراره:

«أنا لم أفعل شيئاً قد أخجل منه. نعم، أنا من كتب هذه الرسالة. وإذا كنت قد أتيت كي تنقذ «سولمون نورثوب»، فأنا جدّ سعيد لرؤيتك».

«متى كانت آخر مرة رأيته، وأين هو؟»

«رأيته في عيد الميلاد منذ أسبوع واحد. وهو عبد لدى «إدوين إبس»؛ مزارع في «بايو بوف» بالقرب من «هولمزفيل». وهو ليس معروفاً هنا باسم «سولمون نورثوب» بل يدعونه «بلات».»

وهكذا تم الكشف عن السرّ، وحُلّ غموض الأحجية. وعبر السحابة السوداء السميكة، ومن بين ظلالها السوداء البائسة التي سِرت في جنباتها اثني عشر عاماً، نفذ هذا الضوء حتى يردّ لي حرّيتي. هنا تخلّى الرجلان عن كل التردّد والتشكك، وتحدثا طويلاً وبحرية عن الموضوع الذي بات الأهم في تفكيرهما الآن. أوضح «باس» اهتمامه بالموضوع بالإنابة عني، واعتزامه السفر إلى الشمال في الربيع، وقال إنه قد قرّر تحقيق عِتقي بكل ما أوتي من قوة. ثم وصف له بداية

وتدرّج معرفتي به، واستمع بكل الفضول عن أسرتي وتاريخ حياتي الأولى. وقبل أن يفترقا رسم له خريطة النهر بطبشور أحمر على قطعة من الورق، وأوضح له موقع مزرعة «إبس» وأقصر طريق مباشر إليها.

رجع «نورثوب» وصاحبه الشاب إلى «ماركسفيل»؛ حيث تقرّر البدء في الإجراءات القانونية لاختبار مسألة أحقّيتي في الحرّية. جُعلت أنا المدّعي في القضية ويمثّلني السيد «نورثوب»، وكان «إدوين إبس» هو المُدعى عليه. وأقيمت القضية على أساس دعوى الاسترداد، موجّهة إلى مسؤول شرطة الأبرشية، تأمره بأخذي واحتجازي لحين صدور قرار المحكمة. وبحلول الوقت الذي تم فيه استخراج الأوراق حسب الأصول، كان منتصف الليل وقتاً متأخراً جداً للحصول على التوقيع الضروري من القاضي الذي يسكن على مسافة خارج البلدة. ومن ثم تأجّلت الإجراءات مجدداً حتى صباح يوم الاثنين.

من الواضح أن كل الأشياء كانت تتحرّك بيسر حتى ظهيرة يوم الأحد، عندما أتى «واديل» إلى غرفة «نورثوب» ليخبره أنهم يواجهون بعض المصاعب غير المتوقّعة. شعر «باس» بالخطر، وأوكل شخصاً آخر ليتولى شؤونه في المنطقة وأفضى إليه باعتزامه ترك الولاية. ويبدو أن هذا الرجل قد خان ثقته إلى حدّ ما وشرعت الإشاعات تسري في المدينة من أن غريباً في الفندق قد شوهد في صحبة المحامي «واديل»، وقد أتى لتحرير أحد عبيد «إبس» على النهر. وكان «إبس» معروفاً في «ماركسفيل»، وكثيراً ما كان يزور المنطقة في أثناء جلسات المحاكم.

وخشي ناصح السيد «نورثوب» من أن تصل هذه المعلومات إليه ليلاً وتسنح له فرصة إخفائي قبل أن يصل مسؤول الشرطة.

وكان لهذه المخاوف أثرها في دفع الإجراءات بشكل كبير، وطُلب من مسؤول الشرطة الذي يعيش في أحد أطراف القرية أن يستعد على الفور بعد منتصف الليل، وأُخطر القاضي بأنه على وشك استقبال زائرين في الوقت ذاته. ومن الإنصاف القول إن السلطة في «ماركسفيل» قد رحّبت وبذلت كل ما لديها من سلطة وقوة.

في أقرب وقت يمكن تنفيذ الاحتجاز فيه بعد منتصف الليل، وبعد الحصول على توقيع القاضي، انطلقت عربة تحمل السيد «نورثوب» ومسؤول الشرطة ويقودها ابن المالك، مسرعة خارج قرية «ماركسفيل» على الطريق إلى «بايو بوف».

كان من المفترض أن يعترض «إبس» على القضية التي تتضمن حقّي في الحرّية، ومن ثم فكّر السيد «نورثوب» في أن إفادة مسؤول الشرطة التي تصف لقائي الأول مع «إبس» سوف تصبح جوهرية في القضية. لذا تقرّر حسب الترتيبات التي وضعاها في الطريق أنه قبل أن تتاح لي فرصة الحديث إلى السيد «نورثوب»، ينبغي أن يوجّه لي مسؤول الشرطة بعض الأسئلة المتفق عليها؛ مثل عدد أبنائي وأسمائهم، واسم زوجتي قبل زواجي بها، والأماكن التي أعرفها في الشمال، وما إلى ذلك. وإذا اتفقت إجاباتي مع الإفادات التي استلمها، ينبغي اعتبار ذلك دليلاً حاسماً.

أخيراً، وبعد فترة وجيزة من مغادرة «إبس» للحقل»، مع تأكيده أنه سيعود كي يدفئنا كما أوضحت في نهاية الفصل السابق،

ظهر الرجلان في المزرعة، ووجدانا في العمل لم نزل. ثم ترجّلا من العربة وطلبا من السائق المضي إلى المنزل الكبير مع تعليمات بألا يخبر أحداً بالغرض من هذه الزيارة حتى يلقاهما مجدداً. ابتعد «نورثوب» ومسؤول الشرطة عن الطريق السريع واتجها إلينا عبر حقل القطن. ورأيناهما حين النظر إلى العربة، أحدهما يسبق الآخر بمسافة قصيرة. وكان مشهداً نادراً وغير معتاد أن نرى رجالاً من البيض يقتربون منا على هذا النحو، خاصة في الساعات الأولى من الصباح، وأبديت أنا والعم «أبرام» و«باتسي» بعض الملاحظات التي تنم عن الدهشة. وعندما وصل مسؤول الشرطة إلى «بوب»، سأله:

«أين الفتى الذي يدعونه «بلات»؟».

فأجابه «بوب» وهو يشير تجاهي ويخلع قبعته: «إنه هناك يا سيدي».

وتساءلتُ عمّا قد يريده مني، فاستدرت ورحت أحدّق فيه حتى غدا على بُعد خطوة مني. وفي أثناء فترة إقامتي الطويلة على النهر، أصبحت على معرفة بوجوه كل المزارعين على مسافة أميال عديدة، ولكن هذا الرجل كان غريباً تماماً، وقطعاً لم أره من قبل.

سألني: «اسمك «بلات»، أليس كذلك؟».

«نعم يا سيدي».

فأشار تجاه «نورثوب» وهو يقف على مسافة قصيرة وسألني: «هل تعرف هذا الرجل؟»

نظرت في الاتجاه الذي أشار إليه، واستقرت عيناي فوق ملامحه، وراحت كل صور العالم تجتاح عقلي؛ آلاف من الوجوه التي أعرفها

جيداً- وجه «آن» ووجوه أبنائي، ووجه أبي الراحل؛ كل المشاهد المرتبطة بطفولتي وشبابي؛ وكل الأصدقاء من الأيام الأخرى السعيدة، كلها راحت تظهر وتختفي، وتطفو كخيالات تتشكّل وتتحلّل أمام عيني خيالي، حتى أتتني الذكرى المحدّدة لهذا الرجل، فرفعت يديَّ إلى السماء، وبصوت أعلى من أي صوت كنت أطلقه في أي من لحظات الإثارة قلت:

«*هنري بي نورثوب!* شكراً لله .. شكراً لله!»

وفي لحظة أدركت طبيعة ما يحدث، وشعرت أن ساعة عتقي قد حلّت أخيراً. وشرعتُ أسير تجاهه إلا أن مسؤول الشرطة وقف أمامي، وقال:

«انتظر لحظة، هل لك أي اسم آخر سوى «بلات»؟».

«اسمي هو «سولمون نورثوب» يا سيدي».

«وهل لديك أسرة؟».

«لديَّ زوجة وثلاثة أبناء».

«وما أسماء أبنائك؟».

«أسماؤهم «إليزابيث ومارغريت وألونزو».

«وما اسم زوجتك قبل الزواج؟».

«آن هامبتون».

«ومن زوّجك إياها؟»

«تيموثي إيدي من فورت إدوارد».

«وأين يعيش ذلك الرجل؟»، سألني وهو يشير نحو «نورثوب» مجدداً، الذي ظلّ في مكانه على تلك المسافة التي عرفته منها.

«إنه يعيش في «ساندي هِلْ»، مقاطعة «واشنطن»، نيويورك».

وكان الرجل على وشك توجيه المزيد من الأسئلة، ولكنني اندفعت من جواره غير قادر على كبح جماح ذاتي. وأمسكت بصديقي القديم بكلتا يديَّ وعجزت عن الكلام، وبكيت.

أخيراً قال: «كم أنا سعيد برؤيتك يا «سول»».

جاهدت لأجيبه بأي شيء إلا أن اجتياح مشاعري منعني واختنق في حلقي الكلام، فالتزمت الصمت. أربك هذا المشهد كل العبيد بشدة، ووقفوا يحدقون فيما يحدث بأفواه فاغرة وعيون دهشة، في تعبير عن استغراب واندهاش بالغين. عشر سنوات وأنا أعيش بينهم في الحقول وفي الأكواخ، وأتحمل معهم المصاعب نفسها، وأنال الأجر عينه، وتختلط أحزاني بأحزانهم، وأشاركهم الأفراح الهزيلة ذاتها؛ ومع ذلك، حتى هذه الساعة الأخيرة التي قضيتها بينهم، لم يكن لديهم أدنى شك أن اسمي ليس حقيقياً، أو أي معرفة بقصتي الحقيقية، وعلى قناعة بأنني أنتمي إليهم.

بقينا صامتين عدة دقائق، تشبّثت فيها بشدة بـ «نورثوب» وأنا أنظر إلى وجهه وكأنني أخشى أن أستفيق فأجد أن كل هذا كان أضغاث أحلام.

أخيراً تحدّث نورثوب فقال: «اخلع عنك هذه الحقيبة، فقد انتهت أيامك في جمع القطن. تعالَ معنا إلى الرجل الذي تعيش معه».

أطعته، ومشيت بينه وبين مسؤول الشرطة نحو المنزل الكبير. لم أكن حين قطعنا هذه المسافة ووصلنا إلى هناك، قد استعدت بعد صوتي بالقدر الكافي كي أسأل عن أسرتي وأحوالها. أخبرني أنه قد

رأى «آن» و«مارغريت» و«إليزابيث» مؤخراً؛ وأن «ألونزو» لم يزل على قيد الحياة، وأن الجميع بخير، بيد أن أمي فقدت بصرها. وبينما كنت أستعيد وعيي بقدر ما من جرّاء تلك الإثارة المفاجئة والعظيمة التي غمرتني، شعرت بالضعف والوهن حتى بات من الصعب أن أسير، فأمسك مسؤول الشرطة بذراعي وساعدني، ولولاه لكنت سقطت. وحين دخلنا الفناء كان «إبس» يقف عند البوابة ويتحدّث إلى السائق، وقد التزم هذا الشاب الصغير بالتعليمات ولم يُفضِ إلى «إبس» بأي معلومات على الإطلاق على الرغم من الأسئلة الكثيرة التي وجّهها له. وحين وصلنا إليهما كان مندهشاً ومرتبكاً بقدر «بوب» أو العم «أبرام».

صافح «إبس» مسؤول الشرطة الذي عرّفه إلى السيد «نورثوب»، ودعاهما لدخول المنزل، وأمرني في الوقت ذاته بإحضار بعض الأخشاب. ومضى بعض الوقت قبل أن أنجح في قطع مجموعة منها وقد فقدت لأسباب مجهولة القدرة على الضرب بالفأس بدقة. وعندما دخلت بها أخيراً كانت الأوراق منثورة فوق المنضدة و«نورثوب» يقرأ إحداها. ولعلّني اتخذت وقتاً أطول في وضع أعواد الخشب في المدفئة، وصرت أدرك وضع كلٍ منهم تماماً. وسمعت كلمات مثل «سولمون نورثوب» و«كما يقول المُحلّفون» و«مواطن حرّ من نيويورك»، وقد تكرّرت أكثر من مرة، وفهمت من تلك العبارات أن السرّ الذي أبقيته عن السيد والسيدة «إبس» طوال تلك السنوات قد كُشف أخيراً. وبقيت في المكان بقدر ما سمحت به الكياسة، وكنت على وشك ترك المكان حين سألني «إبس»:

«بلات»، هل تعرف هذا الرجل؟».

«نعم يا سيدي، أذكر أنني كنت أعرفه».

«وأين يعيش؟».

«يعيش في نيويورك».

«وهل سبق لك أن عشت هناك؟»

«نعم يا سيدي، وُلدت وترعرعت هناك».

«كنتَ رجلاً حراً إذاً، وأنت الآن مجرد زنجي حقير. ولماذا لم تخبرني حين اشتريتك؟».

أجبته بنبرة تختلف نوعاً عن تلك التي اعتدت مخاطبته بها: «إنك لم تسألني سيد «إبس»، كما أنني أخبرت أحد الذين امتلكوني من قبل- ذاك الذي اختطفني- وجُلدت حتى كدت أن أموت».

سألني بنبرة لا تخلو من سطوة: «يبدو أن أحدهم قد كتب رسالة بالإنابة عنك. فمن هو؟»، ولم أجبه.

فكرّر سؤاله: «أسألك، من كتب لك الرسالة؟».

«ربما كتبتها بنفسي».

«ولكنك لم تذهب إلى مكتب بريد «ماركسفيل» وتعُد قبل الشروق!».

أصرّ على أن أخبره، وأصررت على ألا أفعل. وهنا صبّ جام غضبه وتهديده على الرجل أياً كان، وألمح إلى أنه سوف ينتقم منه انتقاماً دموياً ووحشياً ما إن يعثر عليه. وظهر الغضب جلياً في كل ما كان يقوله «إبس» أو يفعله تجاه ذلك الشخص الذي كتب لي الرسالة، والاضطراب الشديد لفقدانه هذه الملكية. ثم توجّه إلى

السيد «نورثوب» وأقسم إنه لو كان علم بخبر قدومه قبل ساعة واحدة لكان قد جنّبه مشقة إعادتي إلى نيويورك؛ ولكان اصطحبني إلى المستنقع أو إلى أي مكان آخر ما كان يصل إليه أي شرطي.

خرجت إلى الفناء، وكنت على وشك الدخول إلى المطبخ حين شعرت بشيء ما يرتطم بظهري. كانت تلك العمة «فيبي» تخرج من الباب الخلفي للمنزل الكبير، ومعها وعاء من ثمار البطاطا وقد رمتني بواحدة منها بعنف غير مبرّر لتخبرني بأنها تريد أن تتحدث معي سراً للحظة. فما كان منها إلا أن أسرعت نحوي وهمست في أذني باهتمام بالغ:

«يا إلهي! لن تصدق يا «بلات»! لقد أتى هذان الرجلان لأجلك. لقد سمعتهما يخبران السيد بأنك رجل حرّ، وأن لك زوجة وأبناء من البلد الذي أتيت منه. هل ستذهب معهما؟ تكن أحمق إن لم تفعل - أتمنى لو أنني أستطيع الذهاب». وواصلت العمة «فيبي» حديثها هذا على نحو متسارع.

ثم ظهرت السيدة «إبس» في المطبخ، وقالت أشياءً كثيرة، وسألتني لماذا لم أخبرها بالحقيقة من قبل. ثم أعربت عن أسفها، وجاملتني بقولها إنها كانت تفضل خسارة أي من الخدم الآخرين في المزرعة. ولو أن «باتسي» كانت محلّي هذا اليوم لكانت السعادة قد غمرت السيدة «إبس». والآن حين لم يعد هناك من يستطيع إصلاح كرسيّ أو أي قطعة أثاث، أو أي شخص مفيد للعمل في المنزل، أو أن يعزف على الكمان، لم تتمالك السيدة «إبس» نفسها وبكت بالفعل.

نادى «إبس» على «بوب» كي يحضر له جواده مُسرّجاً. أما العبيد

الآخرون، وقد خشوا من إنزال العقاب بهم، فقد تركوا أعمالهم وأتوا إلى الفناء، ووقفوا خلف الأكواخ بعيداً عن عيني «إبس». وكانوا ينتظرون ذهابي إليهم. وبكل الرغبة والفضول حتى أقصى درجاته، راحوا يتحدثون معي ويوجّهون إليَّ الأسئلة. ولو أن في وسعي أن أعيد كلماتهم نفسها وبالتشديد نفسه، لو كان في وسعي أن أرسم مواقفهم المختلفة والتعابير التي علت وجوههم، لكنت رسمت صورة مثيرة للاهتمام بالفعل. ففي تقديرهم ارتفعت فجأة إلى درجة عالية جداً، وأصبحت شخصاً بالغ الأهمية.

وهكذا تم تقديم الأوراق الرسمية، ووضعت الترتيبات مع «إبس» للقائهم في اليوم التالي في «ماركسفيل»، ومن ثم دخل «نورثوب» ومسؤول الشرطة إلى العربة ليعودا إلى «ماركسفيل». وبينما كنت على وشك اعتلاء مقعد السائق، قال مسؤول الشرطة إنه ربما يجدر بي أن أودّع السيد والسيدة «إبس». فعدت أدراجي إلى الفناء حيث كانا يقفان، وخلعت قبعتي، وقلت:

«الوداع يا سيدتي».

فأجابتني السيدة إبس بلطف: الوداع يا بلات».

«الوداع يا سيدي».

فتمتم «إبس»: «أيها الزنجي الملعون»، وأردف في نبرة خبيثة «لا داعي لأن تشعر أنك قد تفلت من يدي، فأنت لم تذهب بعد، سوف أنظر في هذا الأمر غداً في «ماركسفيل».

لم أكن سوى «زنجي»، وكنت أعرف مكاني، ولكنني شعرت بقوة أكبر بكثير كما لو أنني رجل أبيض، وربما كنت سأشعر بارتياح داخلي

لو أنني استطعت ركله مرة واحدة قبل ذهابي. وفي طريق عودتي إلى العربة، أسرعت «باتسي» نحوي وعانقتني، وهي تقول باكية: «آه يا «بلات»!»، والدموع تنهمر على وجهها: «هل ستصبح حراً؟ - هل ستذهب بعيداً ولن نراك ثانية؟ لقد أنقذتني من الكثير من الجلدات يا «بلات». وأنا سعيدة لأنك سوف تصبح حراً - ولكن، يا إلهي! ماذا سيحدث لي هنا؟».

أفلتّ من بين يديها وصعدت إلى العربة، فأعمل السائق سوطه وابتعدنا. وعندما نظرت ورائي، رأيت «باتسي» محنية الرأس تكاد تسقط على الأرض؛ وكانت السيدة «إبس» عند مدخل البيت؛ والعم «أبرام» و«بوب» و«ويلي» و«العمة فيبي» جميعهم عند البوابة يحدّقون ورائي. لوّحت لهم جميعاً ولكن العربة استدارت مع انحناء النهر وغابوا جميعاً عن عيني إلى الأبد.

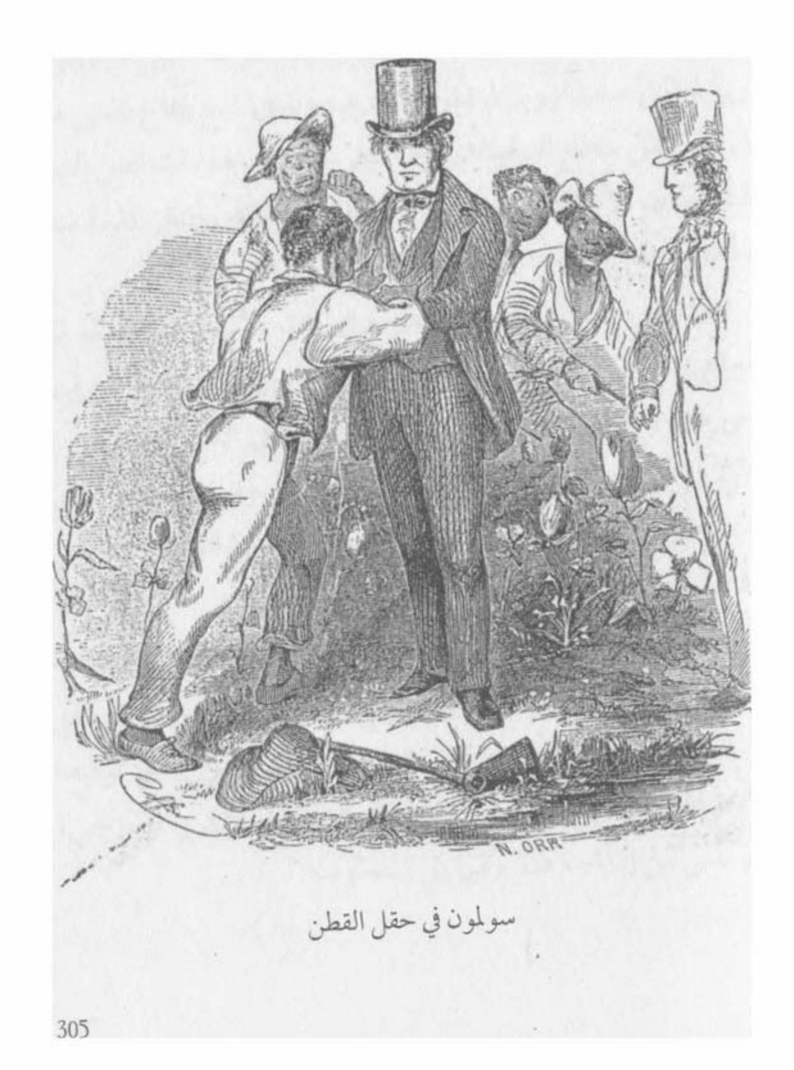
توقّفنا لحظة عند مصنع سكر «كاري»، حيث كان عدد كبير من العبيد يعملون، ومثل هذه المنشأة محطّ فضول أي رجل من الشمال. واندفع «إبس» بجانبنا على جواده بسرعة هائلة في طريقه- كما علمنا في اليوم التالي- إلى «باين وودز» لمقابلة «وليام فورد» الذي جلبني إلى البلدة.

في يوم الثلاثاء، الرابع من شهر يناير، اجتمعنا أنا، و«إبس»، ومستشاره، والموقّر «إتش تايلور»، و«نورثوب»، و«واديل»، والقاضي، ومسؤول الشرطة في «أفويليس»، في غرفة في قرية «ماركسفيل». أوضح السيد «نورثوب» الوقائع المتعلقة بي، وقدّم مذكرته والإفادات المصاحبة لها. كما وصف مسؤول الشرطة المشهد الذي جرى بيننا

في حقل القطن، وخضعت لتحقيق طويل جداً. وأخيراً أكّد السيد «تايلور» لموكّله أنه راضٍ تماماً، وأن التقاضي لن يكون فقط مكلفاً بل بلا فائدة. وبناء على هذه النصيحة، وقّع الأطراف المعنيون على وثيقة يقرّ فيها «إبس» باقتناعه بحقي في الحرّية، وتسليمه لي رسمياً لسلطة نيويورك. كما نصّت هذه الوثيقة على تسجيلها في مكتب التوثيق في «أفويليس»[3].

وعلى الفور أسرعت أنا والسيد «نورثوب» إلى المرفأ واتخذنا الطريق إلى أول باخرة وصلت إلى الميناء، وسرعان ما كنا نطفو أسفل «رد ريفر»، الذي حملني إلى هذا المكان قبل اثني عشر عاماً.

(3) انظر الملحق (ج).



سولمون في حقل القطن

الفصل الثاني والعشرون

بينما كانت الباخرة تنحدر في طريقها صوب «نيو أورليانز»، ربما لم أكن سعيداً؛ ربما لم تكن هناك صعوبة في كبح جماح نفسي من الرقص على سطح السفينة؛ ربما لم أشعر بالامتنان لهذا الشخص الذي قطع مئات الأميال لأجلي؛ ربما لم أشعل له غليونه وأنتظر كلمة منه، وأجري عند أقل استدعاء. وإذا لم أفعل- حسناً، لا بأس.

مكثنا في «نيو أورليانز» يومين. وفي تلك الأثناء، أشرتُ له إلى موقع حظيرة العبيد الخاصة بـ «فريمان»، والغرفة التي اشتراني فيها «فورد». وصادف أن التقينا بـ «ثيوفيلوس» في الشارع، ولكنني لم أفكر في أن الأمر يستأهل عناء تجديد معرفتي به. ومن بعض المواطنين المحترمين، علمنا أن الحال قد تدنّى به وأصبح من البؤساء وضيعي الحال؛ مفلساً وسيئ السمعة.

كما قابلنا في قلم التسجيل السيد «جينوا» الذي وجّهنا إليه رسالة السيناتور «سولي»، ووجدناه يستحق السمعة الواسعة والموقّرة التي يحملها. وكان سخياً حين زوّدنا بتصريح مرور قانوني يحمل توقيعه وختم المكتب، وينطوي على وصف قلم التسجيل لمظهري الخارجي، ولا بأس من إدراجه هنا. وفيما يلي نسخة منه:

«ولاية لويزيانا- مدينة نيو أورليانز:

مكتب قلم التسجيل، المقاطعة الثانية.

«إلى من تُقدَّم له هذه الأوراق:

«نشهد بأن هنري بي نورثوب المحترم، من مقاطعة واشنطن، نيويورك، قد قدَّم لنا إثبات الحرية الكافي الخاص بـ «سولمون»، وهو رجل أسمر البشرة، في الأربعين من عمره أو نحوه، يبلغ طول قامته خمس أقدام وسبع بوصات وستة خطوط، وله شعر أجعد، وعينان بنيّتان، وهو مواطن ولد في ولاية نيويورك. ونشهد أن السيد نورثوب المذكور يقوم بجلب سولمون إلى مسقط رأسه عبر المسارات والطرق الجنوبية، ومن ثم يُطلب من السلطات المدنية السماح بمرور الرجل الأسود المذكور سولمون من دون مضايقة أو إهانة، ومعاملته بشكل جيد وعلى النحو الصحيح.

«صدر بتوقيعي وبختم مدينة نيو أورليانز في السابع من يناير عام 1853.

«قلم التسجيل؛ تيل جينوا».

في اليوم الثامن من الشهر نفسه، وصلنا إلى بحيرة «بونتشارترين» عن طريق السكة الحديد، ثم اتبعنا الطرق التقليدية ووصلنا إلى «شارلستون» في الوقت المناسب. وبعد الصعود على متن الباخرة، ودفع رسم عبورنا هذه المدينة، تم استدعاء السيد «نورثوب» من قِبل مكتب مصلحة الجمارك لتفسير لماذا لم يقم بتسجيل هذا الخادم. فقال إنه لم يكن لديه أي خادم، وإنه بوصفه وكيلاً عن نيويورك يصطحب مواطناً حراً من هذه الولاية من العبودية إلى الحرية، ولا يشاء ولا يعتزم أن يقوم بأي تسجيل بأي حال. وفهمت من حديثه وطريقته،

وقد أكون مخطئاً تماماً، أن الأمر لن يستلزم عناء كبيراً لتجنّب أي مصاعب قد يثيرها المسؤولون في «تشارلستون». لكن في النهاية، سُمح لنا بالمُضي ومررنا عبر «ريتشموند» حيث لمحت حظيرة «غودين»، ووصلنا واشنطن في 17 يناير 1853.

تيقّنا من أن كلاً من «بيرتش» و«رادبيرن» لا يزالان يعيشان في تلك المدينة. وعلى الفور تقدمنا بشكوى لدى قاضي شرطة «واشنطن» ضد «جيمس إتش بيرتش» لاختطافي وبيعي عبداً. وتم القبض عليه بناء على طلب اعتقال أصدره القاضي «غودارد»، ثم مثل أمام القاضي «مانسل» واعتُقل رهن كفالة بمبلغ ثلاثة آلاف دولار. وكان «بيرتش» في غاية الانزعاج حين تم القبض عليه، وبدت عليه أقصى أمارات الخوف والهلع، وقبل أن يصل إلى مكتب العدالة في جادة «لويزيانا»، وقبل معرفة طبيعة الشكوى المقدّمة ضدّه على وجه التحديد، توسّل إلى الشرطة كي تسمح له باستشارة «بنجامين أ شِكلز»، وهو تاجر عبيد منذ سبعة عشر عاماً وشريكه السابق. ودفع هذا الأخير كفالته.

وفي الساعة العاشرة من اليوم الثامن عشر من يناير، مثل الطرفان أمام القاضي. وكان كل من السيناتور «تشيس» من «أوهايو»، والموقر «أورفيل كلارك» من «ساندي هيل»، والسيد «نورثوب» هم محامي الادعاء، و«جوزيف إتش برادلي» للدفاع.

تم استدعاء الجنرال «أورفيل كلارك» الذي كان يعرفني منذ طفولتي، ويعرف أنني كنت رجلاً حراً، كما كان والدي من قبلي. كما شهد بذلك السيد «نورثوب»، وأثبت الوقائع المرتبطة بهذه المهمة إلى

«أفويليس».

ثم حلف «إبينزر رادبيرن» القسم، وشهد بأنه يبلغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً؛ وأنه كان يقيم في «واشنطن»، ويعرف «بيرتش» من أربعة عشر عاماً؛ وأنه في عام 1841 كان حارساً لحظيرة عبيد «وليام»؛ وأنه يذكر واقعة احتجازي في تلك الحظيرة في ذاك العام. وفي تلك اللحظة، أقّر محامو الادعاء أنني قد أودعت في الحظيرة من قِبل «بيرتش» في ربيع عام 1841، وهنا استراح الادعاء.

هنا تم تقديم «بنجامين أ شِكلز» شاهداً لصالح السجين. وكان «بنجامين» رجلاً ضخم الجثة خشن الملامح، وقد يصل القارئ إلى تصوّر حقيقي عنه بقراءة اللغة التي استخدمها للإجابة عن السؤال الأول الذي وجهه له محامي المدّعى عليه؛ سأله عن محل ميلاده فأجابه بطريقة مشاكسة على النحو التالي:

«ولدت في مقاطعة «أونتاريو» في نيويورك، وكنت *أزن أربعة عشر رطلاً!*»

كان «بنجامين» وليداً ضخماً! كما أفاد أنه بقي في «ستيمبوت أوتيل» في «واشنطن» في عام 1841، ورآني في ربيع هذا العام. وكان على وشك أن يمضي في إفادته ليقول ما قد سمعه من رجلين عندما اعترض السيناتور «تشيز» اعتراضاً قانونياً على أن الاستماع إلى أقوال أطراف ثالثة، باعتبارها إشاعات، ليس إثباتاً صحيحاً. إلا أن القاضي لم يقبل هذا الاعتراض، وتابع «شكلز» ليقول إن رجلين قد أتيا إلى الفندق وأكّدا أن لديهما رجلاً أسود يريدان بيعه؛ وإنهما قابلا «بيرتش» وأخبراه أنهما قد أتيا من «جورجيا» ولكنه لا يتذكر المقاطعة؛ وقدّما

له تاريخاً كاملاً عن هذا الفتى منه أنه كان يعمل في وضع البلاط، وأنه يعزف على الكمان؛ وأن «بيرتش» قال إنه سوف يشتريه إذا اتفقوا، وبالفعل خرجوا واشترى هو الفتى، وإنني كنت هذا الفتى الذي يتحدثون عنه. وأفاد بكثير من اللامبالاة كما لو أنه يقول الحقيقة، لقد أكدت آنذاك أنني وُلدت في «جورجيا»، وأن أحد الشباب كان سيدي؛ وأنني أشعر بالأسى لافتراقي عنه، بل يذكر أنني «بكيت!» لذلك، واستسلمت لفكرة أنه يحق لسيدي أن يقوم ببيعي، وأنه حريّ به أن يقوم ببيعي؛ وكان السبب الذي قدّمته لهذا الاضطرار هو أن سيدي «كان مقامراً ووقع في الدين!».

وواصل حديثه بتلك الكلمات التي أنسخها من محضر التحقيق:

«استجوب «بيرتش» الفتى على النحو المعتاد، وأخبره أنه سوف يرسله إلى الجنوب إذا اشتراه. ولم يبدِ الفتى أي اعتراض على حقيقة أنه سوف يذهب إلى الجنوب. ودفع «بيرتش» مبلغ 650 دولاراً أمريكياً ثمناً له حسب علمي. ولا أعرف الاسم الذي أعطوه له، ولكن أعتقد أنه لم يكن «سولمون». ولم أعرف اسمي الرجلين الآخرين كذلك، فلقد مكثوا في حانتي ساعتين أو ثلاث ساعات كان الفتى يعزف فيها على الكمان. وتم التوقيع على الأوراق في الحانة. كانت *فاتورة مطبوعة وفارغة وقد ملأها «بيرتش»*. وقبل عام 1838 كان «بيرتش» قد أصبح شريكي في شراء العبيد وبيعهم. ثم أصبح شريكاً لـ «ثيوفيلوس فريمان» من «نيو أورليانز». فأصبح «بيرتش» يشتري هنا، و«فريمان» يبيع هناك!»

وقبل الإدلاء بإفادته، كان «شكلز» قد سمع روايتي بالظروف

المتصلة بهذه الزيارة إلى «واشنطن» مع «براون» و«هاملتون»، ومن تحدث- بلا شك- عن «الرجلين» وعن عزفي على الكمان. كان ذلك من تأليفه وقطعاً لم يكن حقيقياً، ومع ذلك وُجد في «واشنطن» شخص حاول تأييد إفادته.

تابع «بنجامين إيه ثورن» أنه كان عند «شكلز» في عام 1841، ورأى فتى أسود يعزف على الكمان، و«قال «شكلز» إنه للبيع، وإنه قد سمع سيده يقول له إنه يجب عليه بيعه. وأكّد لي الفتى أنه عبد، ولكني لم أكن حاضراً وقت دفع المال. لا أستطيع أن أقسم بأن هذا هو الفتى. وكان السيد *على وشك أن يذرف الدمع؛ وأعتقد أن الفتى قد فعل!* كنت أعمل في مجال أخذ العميل إلى الجنوب ومنها على مدار عشرين عاماً. وعندما يتعذر عليَّ القيام بهذا، أفعل شيئاً آخر».

ثم تم تقديمي شاهداً، ولكن تم الاعتراض على ذلك، وقرّرت المحكمة عدم قبول إفادتي. لقد كان الرفض فقط على أساس أنني رجل أسود؛ وأن حقيقة كوني مواطناً حراً من نيويورك لم تزل قيد النزاع.

أضاف «شكلز» بأنه قد تم التوقيع على صك بيع، واستُدعي «بيرتش» من قِبل الادعاء لتقديم هذا الصك، بقدر أن هذه الوثيقة سوف تثبت الإفادة التي أدلى بها كل من «ثورن» و«شكلز». ورأى محامي السجين ضرورة في عرض هذه الوثيقة، أو إبداء سبب معقول لعدم تقديمها. وتنفيذاً لذلك، تم عرض «بيرتش» بصفته شاهداً بالأصالة عن نفسه. ورأت النيابة أنه ينبغي ألا يُسمح بهذه الإفادة؛ كونها مخالفة لكل قواعد الإثبات، وأن السماح بها من شأنه

أن يحبط أهداف العدالة. إلا أن المحكمة قبِلت إجراء تلك الإفادة، فأقسم على أن صك البيع قد أُبرِم وتم التوقيع عليه، *ولكنه فقده ولا يعرف ماذا حلّ به!* وبناء على ذلك طُلب من القاضي إرسال شرطي إلى منزل «بيرتش» مع تعليمات بجلب دفتره الذي يتضمن صكوك البيع عن عام 1841. وتم قبول الطلب، وقبل اتخاذ أي تدابير لمنع هذا الإجراء حصل الشرطي على حيازة الدفاتر وأحضرها إلى المحكمة. وفي الدفتر وُجدت كل عمليات البيع التي تمّت في عام 1841، وجرى فحصها بعناية، إلا أنها لم تتضمن أي صك بيع باسمي على الإطلاق!

وبهذه الإفادة، رأت المحكمة حقيقة أن «بيرتش» بريء وتعامل معي بأمانة، ومن ثم أُطلق سراحه.

ثم حاول «بيرتش» وأتباعه أن يلصقوا بي تهمة التآمر مع الرجلين الأبيضين للاحتيال عليه، في مقتطف مأخوذ من مقال نشرته «نيويورك تايمز» بعد انعقاد المحكمة بيوم أو اثنين، جاء فيه: «وقد قدّم محامي المدعى عليه- قبل أن يطلق سراح الأخير- إفادة موقّعة من «بيرتش»، ومذكّرة ضد الرجل الأسود يتهمه فيه بالتآمر مع الرجلين الأبيضين للاحتيال عليه «بيرتش» والحصول منه على مبلغ ستمائة وخمسة وعشرين دولاراً. وتم تقديم هذه المذكرة والقبض على الرجل الأسود ومَثَلَ أمام «غودارد». ومَثَلَ «بيرتش» وشهوده أمام المحكمة، وكذلك «إتش بي نورثوب» بصفته المحامي عن الرجل الأسود، وذكر أنه على استعداد للمضي بهذه الصفة، ولم يطلب أي تأجيل أياً كان. وبعد أن تشاور «بيرتش» مع «شكلز» برهة خاصة، أعلن للقاضي عن رغبته في التنازل عن الشكوى وأنه لن يمضي في

الدعوى. وصرّح محامي المدعى عليه أنه في حالة سحب الدعوى، ينبغي أن يتم ذلك من من دون طلب أو موافقة المدعى عليه، وهنا طلب «بيرتش» من القاضي أن يحصل على الشكوى والمذكرة، وأخذهما. واعترض محامي المدعى عليه على أخذها، وأصرّ على أنه يجب أن تظل الوثيقتان جزءاً من سجل المحكمة، وأنه على المحكمة أن تؤيد الإجراء المتخذ بموجب هذه الدعوة. وسلّم «بيرتش» الوثيقتين، وأصدرت المحكمة حكماً بوقف طلب المدعي وأودعته في مكتبه».

قد يكون هناك من يتأثر ويصدق إفادة تاجر العبيد، وهم هؤلاء الذين تمثل مزاعمهم لديهم وزناً أثقل من مزاعمي. فأنا رجل أسود فقير، من عِرق وضيع وذي مكانة متدنية، قد لا يلتفت الظالم إلى صوته المتواضع، ولكن بمعرفة الحقيقة، وبإحساس تام بالمسؤولية، أعلن أمام البشر وأمام الرب أن أي تهمة أو تأكيد، وأي مؤامرة اضطلعت بها بشكل مباشر أو غير مباشر مع أي شخص أو أشخاص لبيع نفسي؛ وأن أي رواية أخرى لزيارتي «واشنطن» واعتقالي واحتجازي في حظيرة «وليام» للعبيد، على غير النحو المتضمن في هذه الصفحات، كلها كاذبة تماماً وبشكل مطلق. فأنا لم أعزف على الكمان في «واشنطن» أبداً، ولم أكن في «ستيمبوت هوتيل» مطلقاً، ولم أرَ «ثورن» أو «شكلز» في حياتي حسبما أذكر حتى شهر يناير الماضي. والقصة التي قدّمها ثلاثي تجار العبيد هي محض خيال فضلاً عن كونها سخيفة ولا أساس لها. ولو كانت حقيقية ما كنت حاولت الاقتصاص من «بيرتش» في طريق عودتي إلى الحرّية؛ بل كان يجب

أن أتجنّبه بدلاً من البحث عنه. وكان يجب أن أعرف أن هذه الخطوة من شأنها إداناتي. وفي ظل هذه الظروف، وتوقي إلى احتضان أسرتي، ورغبتي في العودة إلى أسرتي، لم يكن احتمال أن أفترض التعرّض لأي مخاطر ممكناً، وليس فقط التعرّض لها بل المحاكمة الجنائية والإدانة، من خلال وضع نفسي طوعاً في هذا الموقف إذا كانت إفادات «بيرتش» ومعاونيه تحتوي على جوانب من الحقيقة. لقد تجشّمت عناء البحث عنه لمواجهته في محكمة قانونية، وأن أدينه بجريمة الاختطاف، وكان الدافع الوحيد لاتخاذ مثل هذه الخطوة شعوراً حاداً بالظلم الذي أوقعه بي، ورغبة مني في تقديمه للعدالة. وها هو قد أفلت على هذا النحو وبالطريقة التي ذكرتها. لقد سمحت له محكمة الإنسان بالفرار، ولكن هناك محكمة أخرى أعلى، لا تفيد فيها الشهادات الكاذبة، التي أرغب كثيراً أن تنظر في قضيتي، لا سيما تلك الإفادات.

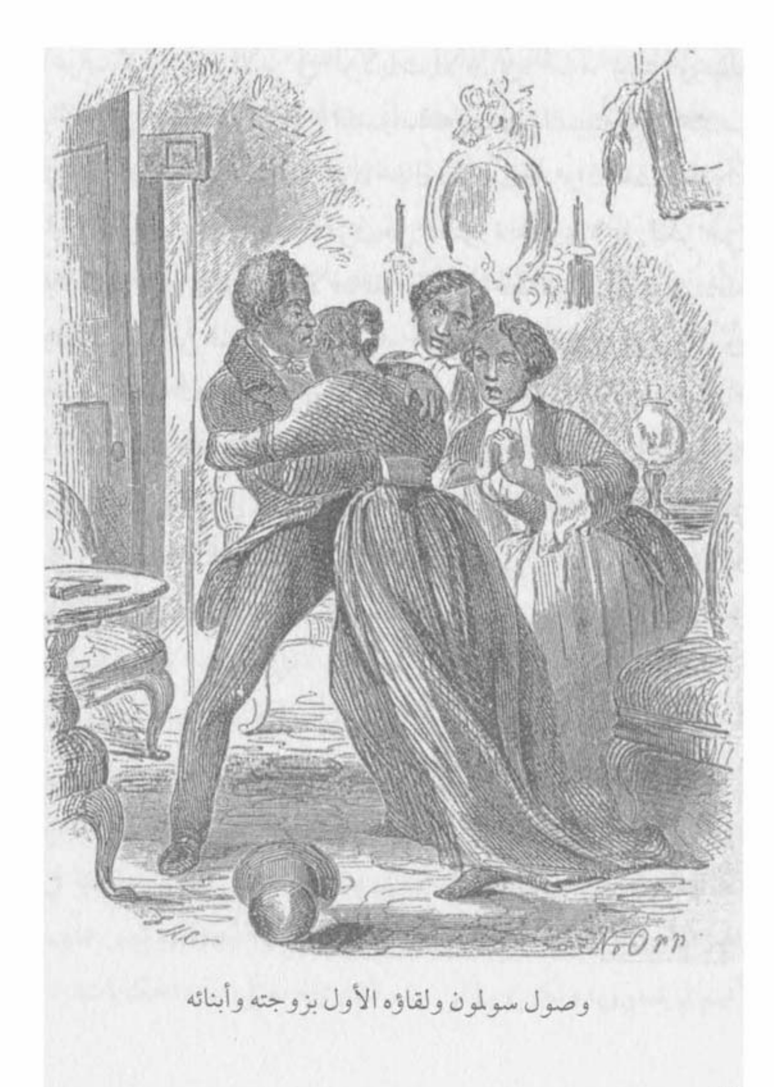
وفي 20 يناير، تركنا «واشنطن» وتابعنا إلى «فيلادلفيا»، «نيويورك»، و«ألباني»، حتى وصلنا «ساندي هِلْ» في ليل يوم 21. وغمرت قلبي سعادة بالغة وأنا أنظر حولي إلى المشاهد القديمة المألوفة، وأجد نفسي بين الأصدقاء القدامى. وفي الصباح التالي، وفي صحبة العديد من معارفي، شرعتُ الذهاب إلى «غلينز فولز» حيث تقيم «آن» وأبنائي.

وحين دخلت كوخهم المريح، كانت «مارغريت» أول من قابلني. ولم تتعرّف عليَّ، فقد كانت في السابعة من عمرها حين تركتها؛ مجرد فتاة صغيرة وشقية تلعب بالدّمى. أما الآن فقد أصبحت امرأة متزوجة ولديها ابن مشرق العينين يقف بجانبها. وتذكراً لجدّه المستعبد سيئ الحظ، أسمته «سولمون نورثوب ستاونتون». وعندما أخبرتها من

أكون، غلبت عليها مشاعرها حتى إنها عجزت حتى عن الكلام. وفي هذه اللحظة، دخلت «إليزابيث» الغرفة، وجاءت «آن» تجري من الفندق وقد علمت بوصولي. وتعانقنا جميعاً والعبرات تجرى أنهاراً فوق وجناتنا، وتعلّقوا جميعاً بعنقي. ولكنني بهذا أنتقص من مشهد حريّ بالقارىء أن يتخيله أفضل من أن أصفه.

وعندما هدأت عاصفة المشاعر إلى سعادة مقدّسة، حين اجتمعت الأسرة حول المدفأة التي أطلقت دفئها وطقطقة نيرانها المطمئنة عبر الغرفة، تحدثنا عن آلاف الأشياء التي حدثت؛ والآمال والمخاوف، والأفراح والأتراح، والمحاولات والمصاعب التي اختبرناها جميعاً طوال سنوات الفرقة الطويلة تلك. كان «ألونزو» غائباً في الجزء الغربي من الولاية، وكان قد كتب لأمه رسالة منذ فترة قصيرة يخبرها بحصوله على المال الكافي لشراء حريتي. فمنذ نعومة أظفاره، كان هذا هدفه الأساسي وجُلّ تفكيره وطموحه. كانوا يعرفون أنني في الأسر. فالرسالة التي كُتبت على متن البارجة وسلّمها لهم «كليم راي»، قد أخبرتهم بذلك. ولكن مسألة مكاني، كانت محض تخمين حتى أتتهم رسالة «باس». وأخبرتني «آن» كيف أن «مارغريت» و«إليزابيث» قد بكتا وانتحبتا عند عودتهما من المدرسة ذات يوم. وعند سؤالهما عن سرّ حزنهما، عرفت أنهما في دراستهما للجغرافيا طالعتهما صور العبيد الذين يعملون في حقل القطن ويتبعهما المشرف والسوط في يده. وذكّرهما هذا بمعاناة والدهما في الجنوب؛ التي كانت حقيقية في واقع الأمر. والكثير من هذه الحكايات رويت؛ أحداث تعبر عنهم لأنهم لم ينسوني، ولكن ربما لن يهتم القارىء بمثل هذه الحكايات.

وهنا تنتهي قصتي، وليس لديَّ أي ملاحظات أو تعليقات أخرى على مسألة العبودية. ولهؤلاء الذين يقرؤون هذا الكتاب، الحق في تشكيل آرائهم الخاصة حول هذه «المؤسسة الخاصة». ولا أزعم أنني أعرف كيف كان الأمر في الولايات الأخرى؛ أما ما يجري ويحدث بالفعل في منطقة «رد ريفر» فقد وصفته بمنتهى الصدق والإخلاص في هذه الصفحات، من من دون خيال ولا مبالغة. وإذا أخفقت في أي شيء فهو تصوير الجانب المشرق من الصورة للقارىء على نحو جلي. فلا شك لديَّ أن هناك الآلاف قد صادفوا الحظ العاثر الذي صادفته، وأن المئات من المواطنين الأحرار قد تم اختطافهم وبيعهم للرِقّ، وهم في هذه اللحظة يبلون حياتهم في مزارع «تكساس» و«لويزيانا». ولكنني صبرت، وهذّبت وروّضت روحي بالمعاناة التي احتملتها، وكنت ممتناً للخالق الذي برحمته عدت إلى السعادة والحرية، وآمل من الآن فصاعداً أن أعيش حياة مستقيمة على تواضعها، وأن تكون راحتي الأخيرة في ساحة الكنيسة التي يرقد فيها والدي.



وصول سولمون ولقاؤه الأول بزوجته وأبنائه

الملحـــق

أ)- صفحة 291

الفصل 375

قانون فعّال لحماية المواطنين الأحرار في هذه الولاية من الخطف أو الاستعباد

[تم تمريره في 14 مايو 1840]

سنّ شعب ولاية نيويورك، عبر ممثليه في مجلس الشيوخ والجمعية، القانون التالي:

المادة (1): متى تلقّى حاكم هذه الولاية معلومات مُقنعة بالنسبة إليه تفيد بأن أحد المواطنين الأحرار أو أياً من ساكني هذه الولاية قد تم خطفه أو نقله بعيداً عن هذه الولاية إلى أي ولاية أخرى أو إقليم آخر في الولايات المتحدة؛ بغرض استعباده هناك؛ أو أنه قد تم اعتقال أو سجن أو استعباد هذا المواطن الحرّ أو الساكن عن طريق الخطأ في أي من الولايات أو الأقاليم في الولايات المتحدة؛ بزعم أو ادعاء أن هذا الشخص عبد، أو بسبب لون بشرته لأي استخدام أو قاعدة قانونية سائدة في هذه الولاية أو هذا الإقليم، يعتبر عبداً أو لا حق له في الحرية الشخصية التي

يتمتع بها أي مواطن؛ يصبح من واجب الحاكم المذكور أن يتخذ التدابير التي تعتبر ضرورية لاستعادة هذا الشخص لحريته وعودته إلى هذه الولاية. وبموجب هذا القانون، يخوّل الحاكم في تعيين وتوظيف أي وكيل أو وكلاء على النحو الذي يراه ضرورياً لتفعيل استرداد حرية هذا الشخص وإعادته؛ كما يتعيّن عليه تزويد الوكيل المذكور بكل الاعتمادات والتعليمات التي يحتاجها لتحقيق الهدف من هذا التعيين. ويجوز للحاكم أن يحدد الأتعاب المسموح بها لهذا الوكيل نظير خدماته، إلى جانب ما يلزمه من نفقات ومصروفات.

المادة (2): يتعين على هذا الوكيل المُضي في جمع الدليل المناسب لإثبات حق هذا الشخص في حريته، وعليه أن يقوم بتلك الأسفار واتخاذ تلك التدابير، وكذلك بدء العمل على تنفيذ الإجراءات القانونية- وفق توجيهات الحاكم- على النحو الضروري لاسترداد هذا الشخص حريّته وعودته إلى الولاية.

المادة (3): تخضع الحسابات المتعلّقة بكل الخدمات والمصروفات المتكبدة في إطار تنفيذ هذا القانون، للتدقيق من قِبل المراقب المالي، وتدفعها الخزانة على ضمانته من أي أموال تخص الولاية في هذه الخزانة، ولم يتم اعتمادها لشأن آخر. ويجوز لأمين الخزانة أن يدفع، بناء على أمر من المراقب المالي، لهذا الوكيل أي مبلغ أو مبالغ يشهد الحاكم أنها

مبالغ معقولة مدفوعة مقدماً لتمكينه من إنجاز المهام التي تم تعيينه من أجلها، ويُسأل الوكيل عن هذه المبالغ المدفوعة مقدماً عند التدقيق النهائي لحسابه.

المادة (4): يدخل هذا القانون حيز التنفيذ على الفور.

الملحق (ب)

مذكرة «آن»

صاحب السعادة حاكم ولاية نيويورك

تنص المذكرة الخاصة بـ «آن نورثوب»، من قرية «غلينز فولز»، من مقاطعة «وارين»، من الولاية المذكورة آنفاً، على ما يلي:

على أن مقدمة المذكرة، واسمها قبل الزواج «آن هامبتون»، كانت في الرابعة والأربعين من عمرها في 14 مارس الماضي، وأنها قد تزوجت «سولمون نورثوب»، من «فورت إدوارد» آنذاك، في مقاطعة واشنطن والولاية المذكورة آنفاً، في 25 ديسمبر 1828، على يد «تيموثي إيدي»، قاضي الصلح آنذاك. وأن المذكور «سولمون» قد عاش بعد هذه الزيجة وامتلك منزلاً مع مقدمة المذكرة في البلدة المذكورة حتى عام 1830، ثم انتقل مع أسرته المذكورة إلى بلدة «كينغسبري» في المقاطعة المذكورة، وظل هناك نحو ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى «ساراتوغا سبرينغز» في الولاية المذكورة سالفاً وأقام هناك في البلدة المجاورة حتى عام 1841 تقريباً- حسب ما تسعف به الذاكرة- عندما بدأ «سولمون» الذهاب إلى مدينة واشنطن، في مقاطعة كولومبيا، ولم ترَ مقدمة المذكرة زوجها أبداً منذ ذلك الحين.

كما تذكر مقدمة المذكرة أنها تلقّت معلومات في عام 1841 عن طريق خطاب موجّه إلى «هنري بي نورثوب» المحترم، من «ساندي هِلْ»، مقاطعة واشنطن، نيويورك، ومُرسل من مكتب بريد في «نيو أورليانز»، يفيد بأن المذكور «سولمون» قد اختُطِف في واشنطن، ووُضِع على متن سفينة أبحرت به إلى «نيو أورليانز»، ولكنه لا يعرف كيف وصل إلى هذا الوضع ولا الوجهة التي كان متجهاً إليها.

ومنذ تلك الفترة الأخيرة التي ذكرتها مقدمة المذكرة، لم تستطع أبداً الوصول إلى أي معلومات عن مكان «سولمون» حتى شهر سبتمبر الماضي عندما استلمت رسالة أخرى من المذكور «سولمون»، مرسلة من مكتب بريد في «ماركسفيل»، أبرشية «أفويليس»، ولاية «لويزيانا»، يذكر فيها أنه قد وقع في أسر العبودية، وهو الأمر الذي ترى مقدمة المذكرة أنه ما حدث لزوجها بالفعل.

وجدير بالذكر أن «سولمون» يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً تقريباً ولم يعِش أبداً خارج ولاية نيويورك التي وُلد فيها، حتى ذاك الوقت الذي ذهب فيه إلى مدينة واشنطن على النحو المذكور آنفاً. و«سولمون نورثوب» هو مواطن حر من ولاية نيويورك، وهو محتجز كعبد الآن عن طريق الخطأ في «مارسكفيل» أو بالقرب منها، في أبرشية «أفويليز»، ولاية «لويزيانا»، وهي إحدى الولايات المتحدة الأمريكية، بزعم أو ادعاء أن المذكور «سولمون» من الرقيق.

كما تذكر مقدمة المذكرة أن «مينتاس نورثوب» هو والد المذكور «سولمون»، وكان زنجياً يتمتع بسمعة طيبة، وقد وافته المنية في «فورت إدوارد» في يوم 22 نوفمبر 1829؛ وأمه كانت سمراء البشرة

بعض الشيء، أو من البيض بنحو ثلاثة أرباع، وتوفيت في مقاطعة «أوزويغو»، نيويورك، منذ نحو خمس أو ست سنوات مضت، حسب ما علمته مقدمة المذكّرة وتصدقه، ولم تكن من الرقيق أبداً.

وجدير بالذكر أن مقدمة المذكّرة وأسرتها من الفقراء، ولا تستطيع على الإطلاق دفع أي من نفقات استرداد المذكور «سولمون» لحريته.

ونلتمس من سيادتكم توظيف وكيل أو وكلاء على النحو اللازم لتفعيل استرداد «سولمون نورثوب» لحريته وعودته إلى الولاية، بمقتضى قانون المُشرّع في ولاية نيويورك، الذي تم إقراره في 14 مايو 1840، بعنوان «قانون فعّال لحماية المواطنين الأحرار في هذه الولاية من الخطف أو الاستعباد». مع خالص توسلات مقدمة المذكرة.

(توقيع) **آن نورثوب**

مؤرخ في 19 نوفمبر 1852

ولاية نيويورك:

مقاطعة واشنطن،

بعد تحليفها حسب الأصول، توقّع «آن نورثوب» من قرية «غلينز فولز» في مقاطعة «وارين»، في الولاية المذكورة، على المذكرة أعلاه، وتشهد بصحة البيان المتضمن فيها.

(توقيع) **آن نورثوب**

تم التوقيع والحلف أمامي في يوم 19 نوفمبر 1852

تشارلز هيوز، قاضي الصلح

نوصي بأن يقوم الحاكم بتعيين «هنري بي نورثوب»، من قرية «ساندي هيل»، مقاطعة واشنطن، نيويورك، بصفة أحد الوكلاء للعمل على استرداد «سولمون نورثوب» لحريته وإعادته إلى الولاية، على النحو المذكور في مذكرة «آن نورثوب» أعلاه.

مؤرخ في «ساندي هِلْ»، مقاطعة واشنطن، ولاية نيويورك.

20 نوفمبر 1852 (توقيع)

بيتر هولبروك دانييل سيوت

بي إف هوغ أليمون كلارك

تشارلز هوغز بنجامين فيريس

إي دي بيكر جوزيه إتش براون

أورفيلي كلاك

ولاية نيويورك:

مقاطعة واشنطن،

يقول «جوشيا هاند»، من قرية «ساندي هِلْ»، في المقاطعة المذكورة، بعد تحليفه حسب الأصول، إنه في السابعة والخمسين من عمره. ولد في القرية المذكورة، ولطالما أقام هناك؛ وأنه قد عرف «مينتاس نورثوب» وابنه «سولمون»، المذكور في المذكرة الملحقة الخاصة بـ «آن نورثوب»، من قبل عام 1816؛ وأن «مينتاس نورثوب» آنذاك وحتى وفاته عمل في زراعة مزرعة ببلدتي «كينغزبري» و«فورت إدوارد»، منذ بدء معرفة الشاهد به وحتى وفاته؛ وعليه، فإن «مينتاس» وزوجته- والدة «سولمون نورثوب»- كانا من مواطني نيويورك الأحرار، ويعتقد الشاهد أنهما كانا كذلك؛ ومن ثم فإن «سولمون نورثوب» ولد في مقاطعة واشنطن المذكورة، وفق اعتقاد الشاهد، وتزوّج في 25 ديسمبر 1828 في «فورت إدوارد» المذكورة آنفاً، وأن زوجته وأبناءه الثلاثة- بنتين وصبياً- يعيشون الآن في «غلينز فولز»، مقاطعة «وارين»، نيويورك، وأن «سولمون نورثوب» المذكور قد عاش في مقاطعة واشنطن هذه ومحيطها حتى عام 1811 تقريباً، ولم يره الشاهد منذ ذاك. ولكن نما إلى عِلم الشاهد- وهو يصدّق- أن المذكور «سولمون» محتجز الآن عن طريق الخطأ كعبد في ولاية «لويزيانا». ويضيف الشاهد أن «آن نورثوب» المذكورة في المذكّرة السابقة أهل للثقة، وأنه يعتقد في صحة البيانات المتضمنة في المذكرة السالفة الذكر.

(توقيع) جوشيا هاند

تم التوقيع والحلف أمامي في يوم 19 نوفمبر 1852

تشارلز هيوز، قاضي الصلح

ولاية نيويورك

مقاطعة واشنطن،

أفاد «تيموثي إيدي» من «فورت إدوارد»، بالمقاطعة المذكورة، بعد تحليفه حسب الأصول، بأن عمره الآن تجاوز الـ______ عاماً، وأنه يعيش في البلدة المذكورة من أكثر من______عاماً حتى العام الماضي، وأنه كان على معرفة وثيقة بـ «سولمون نورثوب»، المذكور في المذكرة المرفقة التي قدّمتها «آن نورثوب»، وأن أباه «مينتاس نورثوب» كان زنجياً وأمه سمراء البشرة قليلاً؛ وأن «مينتاس نورثوب» وزوجته وابنيه- «جوزيف» و«سولمون»- أقاموا في بلدة «فورت إدوارد» المذكورة عدة سنوات قبل عام 1828، وأن المذكور «مينتاس» قد توفي في البلدة المذكورة في عام 1829، وفق اعتقاد الشاهد. كما أفاد الشاهد أنه كان قاضياً للصلح في البلدة المذكورة في عام 1828، وأنه بهذه الصفة أبرم زواج المذكور «سولمون نورثوب» في يوم 25 ديسمبر 1828 على «آن هامبتون»، وهي الشخص نفسه الموقّع على المذكرة الملحقة. وأفاد الشاهد صراحة أن «سولمون» كان مواطناً حراً من ولاية نيويورك، وكان يعيش في هذه الولاية حتى عام 1840 تقريباً، ولم يره الشاهد منذ ذلك الحين، ولكنه علم مؤخراً- ويصدّق كشاهد- أن «سولمون نورثوب» محتجز عن طريق الخطأ كعبد في «ماركسفيل» أو بالقرب منها، في أبرشية «أفويليس»، في ولاية «لويزيانا». ويفيد الشاهد أن «مينتاس نورثوب» المذكور كان في الستين من عمره تقريباً حين وافته المنية، وأنه لأكثر من ثلاثين عاماً قبل وفاته كان مواطناً حراً في ولاية نيويورك.

وأضاف هذا الشاهد أن «آن نورثوب»، زوجة المدعو «سولمون نورثوب»، تتمتع بشخصية جيدة وبسمعة طيبة، وأن بياناتها- على النحو المتضمن في المذكرة الملحقة- أهل للثقة والاعتماد.

(توقيع) تيموثي إيدي

تم التوقيع والحلف أمامي في يوم 19 نوفمبر 1852

تيمي ستاوتون، قاضٍ

ولاية نيويورك

مقاطعة واشنطن،

أفاد «هنري بي نورثوب»، من قرية «ساندي هِلْ»، في المقاطعة المذكورة، بعد تحليفه حسب الأصول، أنه يبلغ من العمر سبعة وأربعين عاماً، وأنه لطالما كان يعيش في هذه المقاطعة؛ وأنه كان يعرف «مينتاس نورثوب»، المذكور في المذكرة الملحقة من وقت مبكر جداً حسب ذاكرته وحتى وفاته التي وقعت في «فورت إدوارد»، في المقاطعة المذكورة، في عام 1829. وكان الشاهد على معرفة بابني المذكور «مينتاس»، «سولمون» و«جوزيف»؛ وأنهما ولدا في مقاطعة واشنطن المذكورة آنفاً حسبما يرى الشاهد؛ كما أنه يعرف «سولمون» حقّ المعرفة، وهو الشخص المذكور عينه في المذكرة الملحقة التي قدّمتها «آن نورثوب»، مذ كان طفلاً. وأفاد كذلك أن «سولمون» كان يعيش طوال عمره في مقاطعة «واشنطن» والمقاطعات المجاورة لها حتى عام 1841 أو نحوه؛ وأنه يستطيع القراءة والكتابة؛ وأن «سولمون» وأمه وأباه كانوا مواطنين أحراراً من ولاية نيويورك؛ وأنه في وقت ما نحو عام 1841 تلقّى الشاهد رسالة من المذكور «سولمون»، مرسلة من مكتب بريد «نيو أورليانز»، يقول فيها إنه في أثناء قيامه بعمل ما في مدينة واشنطن تم اختطافه وسرقة الأوراق التي تثبت حريته، وإنه الآن على متن سفينة، مصفد بالحديد بزعم أنه عبد، وأنه لا يعرف الوجهة المتجه إليها، وصدّق الشاهد على اعتقاده في صحة هذه المعلومات، وحثّ على المساعدة في استعادة هذا الرجل حريته، وقال إنه فقد هذه الرسالة ولم يستطع العثور عليها، وإنه يسعى من

يومها إلى العثور على المذكور «سولمون»، ولكنه لم يستطع تعقبه حتى شهر سبتمبر الماضي حين تأكّدت شكوك الشاهد برسالة ذكر كاتبها أنه قد كتبها بتوجيه من المذكور «سولمون»، قال فيها إن «سولمون» محتجز بزعم أنه عبد في «ماركسفيل» أو بالقرب منها، في أبرشية «أفويليس»، «لويزيانا»، وإن الشاهد يصدق بها لا يدع مجالاً للشك صحة هذه المعلومات، وإن «سولمون» محتجز عن طريق الخطأ في أغلال العبودية في «ماركسفيل» المذكورة آنفاً.

(توقيع) **هنري بي نورثوب**

تم التوقيع والحلف أمامي في يوم 20 نوفمبر 1852

تشارلز هيوز، قاضي الصلح

ولاية نيويورك

مقاطعة واشنطن،

أفاد «نيكولاس سي نورثوب»، من قرية «ساندي هِلْ»، من المقاطعة المذكورة، بعد تحليفه حسب الأصول، وقال إنه يبلغ من العمر الآن ثمانية وخمسين عاماً، وإنه يعرف «سولمون نورقوب» المذكور في المذكرة الملحقة التي قدّمتها «آن نورثوب» منذ ولادته. وأفاد هذا الشاهد أن «سولمون» يبلغ من العمر الآن نحو خمسة وأربعين عاماً، وأنه ولد في مقاطعة واشنطن المذكورة آنفاً، أو في مقاطعة «إسيكس»، في الولاية المذكورة، ولطالما كان يعيش في ولاية نيويورك حتى عام 1841 أو نحوه، ولم يحدث أن رآه الشاهد من وقتها أو عرف مكانه حتى نما إلى علمه منذ بضعة أسابيع- وهو يصدّق- أن المذكور «سولمون» قد وقع في أسر العبودية في ولاية «لويزيانا». كما أضاف الشاهد أن المذكور «سولمون» قد تزوج في بلدة «فورت إدوارد»، في المقاطعة المذكورة، منذ نحو أربعة وعشرين عاماً، وأن زوجه وابنتيه وابنه يعيشون الآن في قرية «غلينز فول»، بمقاطعة «وارين»، في ولاية نيويورك. كما يقسم الشاهد إن «سولمون نورثوب» قد وّلد حراً، وإنه كان يعيش منذ طفولته المبكرة ويقيم في مقاطعات «واشنطن» و«إسيكس» و«وارين» و«ساراتوغا»، في ولاية نيويورك، وإن زوجته وأبناءه المذكورين لم يتركوا المقطاعات المذكورة أبداً منذ أن تزوج «سولمون». وأفاد الشاهد أنه كان يعرف والد «سولمون نورثوب»، وأنه كان زنجياً يدعى «مينتاس نورثوب»، وقد توفي في بلدة «فورت إدوارد» في مقاطعة «واشنطن»، بولاية نيويورك، في

يوم 22 نوفمبر 1829، وأنه دُفن في مقبرة في «ساندي هِلْ» المذكورة سالفاً، وأنه لأكثر من ثلاثين عاماً قبل وفاته كان يعيش في مقاطعات «إسيكس» و«واشنطن» و«رينسيلار»، وولاية نيويورك، وأنه قد ترك زوجة وابنين- «جوزيف» والمذكور «سولمون»- من بعده، وأن والدة «سولمون» كانت سمراء البشرة بعض الشيء وهي الآن في عداد الأموات، وقد توفّيت- حسبما يرى الشاهد- في مقاطعة «أوسويغو»، نيويورك، في غضون السنوات الخمس أو الست الماضية. ويضيف الشاهد أن والدة «سولمون نورثوب» لم تكن من الرقيق في وقت ولادته، ولم تكن كذلك في أي وقت خلال الخمسين عاماً السابقة.

(توقيع) **نيكولاس سي نورثوب**

تم التوقيع والحلف أمامي في يوم 19 نوفمبر 1852

تشارلز هيوز، قاضي الصلح

ولاية نيويورك

مقاطعة واشنطن،

أفاد «أورفيل كلارك»، من قرية «ساندي هِلْ»، في مقاطعة «واشنطن»، ولاية نيويورك، بعد تحليفه حسب الأصول، وقال إنه- البالغ من العمر أكثر من خمسين عاماً- في العامين 1810 و1811، أو في غالبية فترات هذين العامين، كان يسكن في «ساندي هِلْ» المذكورة آنفاً وفي «غلينز فولز»، وأنه كان يعرف «مينتاس نورثوب» الذي كان رجلاً أسود أو ملوناً، وكان حراً وفق اعتقاد الشاهد وفهمه؛ وإن زوجة «مينتاس نورثوب»، وهي والدة «سولمون»، كانت امرأة حرة؛ واعتباراً من عام 1818 وحتى وفاة «مينتاس نورثوب» المذكور في نحو عام 1829 كان هذا الشاهد على صلة وثيقة به؛ ويشهد أنه كان رجلاً محترماً في مجتمعه حيث كان يقيم، وأنه كان رجلاً حراً كما كان كل معارفه يرون ويعتقدون. وأفاد الشاهد كذلك أنه كان على معرفة بـ «سولمون» نورثوب» من عام 1818 المذكور حتى رحيله عن ذاك الجزء من المدينة في عام 1840 أو 1841؛ وأنه تزوّج آن هامبتون»، ابنة «وليام هامبتون»، وهو أحد جيران الشاهد؛ وأن المذكورة «آن»، زوجة «سولمون»، تعيش الآن في هذه المنطقة؛ وأن المذكورين «مينتاس نورثوب» و«وليام هامبتون» كانا يتمتعان بسمعة طيبة واحترام في هذا المجتمع. وأضاف الشاهد أنه منذ بداية معرفته بـ «مينتاس نورثوب» وأسرته، وبـ «وليام هامبتون» وأسرته (والتي ترجع إلى عام 1810) حسبما يتذكّر، وهم جميعاً ذوو سمعة طيبة واحترام، ويعتقد تماماً بأنهم مواطنون أحرار من ولاية نيويورك. كما يعرف هذا

الشاهد أن المذكور «وليام هامبتون»- وفق قوانين الولاية- كان يحق له التصويت في انتخاباتنا، وهو يؤمن أن «مينتاس نورثوب» كان يحق له نفس الحق باعتباره مواطناً حراً ذاً أهلية. كما ذكر هذا الشاهد أن «سولمون نورثوب» المذكور، ابن «مينتاس» وزوج «آن هامبتون»، عندما غادر الولاية كان مواطناً حراً من ولاية نيويورك. وقال كذلك إن «آن هامبتون» المذكورة، زوجة «سولمون نورثوب»، هي امرأة محترمة وتتمتع بشخصية جيدة، وإنه يصدق البيانات التي أدلت بها، ويصدق كذلك صحة الحقائق التي ضمّنتها المذكرة التي قدّمتها إلى سعادة الحاكم فيما يتعلق بزوجها.

(توقيع) **أوفريل كلارك**

تم التوقيع والحلف أمامي في يوم 19 نوفمبر 1852

يو جي باريس، قاضي الصلح

ولاية نيويورك

مقاطعة واشنطن،

أفاد «بنجامين فيريس»، من قرية «ساندي هِلْ»، من المقاطعة المذكورة، بعد تحليفه حسب الأصول، وقال إنه يبلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً الآن، وإنه قد عاش في القرية المذكورة طوال خمسة وأربعين عاماً؛ وإنه كان على معرفة جيدة بـ «مينتاس نورثوب» المذكور في المذكرة الملحقة التي قدمتها «آن نورثوب»، من عام 1816 حتى وقت وفاته، التي حدثت في «فورت إدوارد» في خريف عام 1829؛ وإنه كان يعرف ابني «مينتاس»- «جوزيف نورثوب» و«سولمون نورثوب»- وإن «سولمون» المذكور هو الشخص نفسه محل المذكّرة. وأضاف أنه حتى وقت وفاقه، وقبلها في أثناء كل ذلك الوقت، كان مواطناً حراً من ولاية نيويورك كما يعلم الشاهد يقيناً؛ وأن مقدمة المذكرة «آن نورثوب»، هي امرأة صالحة وأن البيانات الذي ذكرتها في المذكرة موثوق بصحتها.

(توقيع) بنجامين فيريس

تم التوقيع والحلف أمامي في يوم 19 نوفمبر 1852

يو جي باريس، قاضي الصلح

ولاية نيويورك

الغرفة التنفيذية، ألباني، 30 نوفمبر 1852

أشهد بموجب هذه الوثيقة أن ما سبق هو نسخة صحيحة من بعض الأدلة المقدمة إلى الإدارة التنفيذية، والتي بمقتضاها تم تعيين «هنري بي نورثوب» وكيلاً للولاية لاتخاذ الإجراءات القانونية بالإنابة عن «سولمون نورثوب» المذكور في هذه الوثائق.

(توقيع) **وحدة واشنطن**

من قِبل الحاكم

جيه، إف، آر، السكرتير الخاص

ولاية نيويورك

الإدارة التنفيذية

واشنطن هنت، حاكم ولاية نيويورك،

إلى من يهمه الأمر، بعد التحية:

حيث إنني قد تلقّيت معلومات مُحلّفة، وأجدها مُرضية ومقنعة لي بأن «سولمون نورثوب»، وهو مواطن حرّ من هذه الولاية، محتجز في أسر العبودية عن طريق الخطأ، في ولاية لويزيانا؛

وحيث إنه من واجبي بمقتضى قوانين الولاية، اتخاذ هذه التدابير على النحو الذي أراه ضرورياً لاسترداد أي مواطن يُحتجز خطأً في أغلال العبودية، وردّ حريته له وإعادته إلى الولاية:

وللعِلم، فإنه وفق الفصل 375 من قوانين هذه الولاية، والذي تم إقراره في عام 1840، قمت بتعيين وتوظيف «هنري بي نورثوب» المحترم، من مقاطعة «واشنطن»، في هذه الولاية، ليكون وكيلاً له كامل الصلاحيات لتفعيل استرداد «سولمون نورثوب» المذكور، ويخوّل الوكيل المذكور بموجب هذه الوثيقة وأن تكون له سلطة اتخاذ التدابير القانونية المناسبة للحصول على الإثباتات، وعلى المشورة، وأخيراً لاتخاذ التدابير التي من شأنها تحقيق الهدف من تعيينه.

كما أنه تلقّى التعليمات للمُضي إلى ولاية لويزيانا حاملاً كل الرسائل المناسبة لتنفيذ الوكالة محل هذه الوثيقة.

وإثباتاً لذلك، أوقّع باسمي على هذه الوثيقة، وأضيف ختمي

الشخصي الخاص بالولاية، في ألباني، في هذا اليوم بتاريخ 24 نوفمبر، لعام 1852.

(توقيع) **واشنطن هنت**

جيمس إف روغلز، السكرتير الخاص

الملحق (ج)

صفحة 309

ولاية لويزيانا:

أبرشية أفويليس

مَثَلَ أمامي بشخصه «أريستيد باربين»، قلم تسجيل أبرشية «أفويليس»، ومَثَلَ كذلك «هنري بي نورثوب» من مقاطعة «واشنطن»، ولاية نيويورك، وأعلن أنه بموجب المهمة الموكلة إليه كوكيل لولاية «نيويورك»، والتي كلّفه بها سعادة الحاكم «واشنطن هنت»، حاكم ولاية نيويورك، بتاريخ 24 نوفمبر 1852، وتخوّل للمذكور «نورثوب» وتعطيه الصلاحية لإنقاذ واسترداد المذكور «سولمون نورثوب» من الأسر، باعتباره رجلاً أسود حراً، وهو مواطن حرّ من ولاية نيويورك تم اختطافه وبيعه للرِق في ولاية «لويزيانا»، وهو الآن في حيازة «إدوين إبس» من ولاية «لويزيانا»، أبرشية «أفويليس». ويوقّع الوكيل المذكور على هذه الوثيقة ويقّر بأن المذكور «إدوين» قد سلّمه المدعو «سولمون نورثوب» الملوّن الحر على النحو المذكور آنفاً؛ لإعادته إلى حرّيته واصطحابه إلى ولاية نيويورك، وفق المهمة المذكورة، حيث اقتنع المذكور «إدوين إبس» من الأدلة

التي قدّمها له الوكيل أنه يحق لـ «سولمون نورثوب» استرداد حريته.

وصدّق الطرفان على أن نسخة موثقة من التوكيل المذكور مرفقة بهذا الإجراء.

تمّ إبرامه والتوقيع عليه في «ماركسفيل»، أبرشية «أفويليس»، في هذا اليوم من شهر يناير لعام ألف وثمانمائة وثلاثة وخمسين، بحضور الموقع أدناه، والشهود القانونيين ذوي الأهلية، الذين وقّعوا كذلك على هذه الوثيقة.

(توقيع) **هنري بي نورثوب**

إدوين ابس

أدي باربين، قلم التسجيل

الشهود:

إتش تايلور

جون بي واديل

ولاية لويزيانا

أبرشية «أفويليس»

أقّر بموجب هذه الوثيقة بأن ما سبق هو نسخة صحيحة وحقيقية من الوثيقة المحفوظة في الملف والمسجلة في مكتبي.

وأوقّع باسمي وختمي كقلم تسجيل في ولأجل أبرشية «أفويليس»، في 4 يناير 1853.

(توقيع) **أدي باربين، قلم التسجيل**

– النهاية –

نبذة عن المؤلّف:

ولد سولمون نورثوب في ولاية نيويورك في يوليو عام 1808. حصل على قسط من التعليم وعمل في الزراعة والنجارة والعزف على الكمان. تزوج «آن هامبتون» في عام 1829 وأنجب ثلاثة أبناء. اختُطف في عام 1841 وبيع في سوق العبيد، ومكث في العبودية اثني عشر عاماً حتى تم إنقاذه في عام 1853.

سجل «سولمون نورثوب» سيرته الذاتية في هذا الكتاب، وكرّس حياته عقب استعادته الحرية في مناهضة العبودية، وعرض تجربته في عدة ولايات أمريكية. بيد أن تفاصيل السنوات الأخيرة من حياته ووفاته غير معروفة، وإن كان يعتقد أنه توفي في سنة 1863.

نبذة عن المترجمة:

درست الأدب الإنجليزي بكلية الآداب في جامعة القاهرة، وقامت بإجراء دراسات في الترجمة التحريرية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

عضو باتحاد كتاب مصر.

صدر لها أكثر من اثني عشر كتاباً مترجماً منها: «ظلال الاستهلاك» و«التطريز في الهند وباكستان»، و«الحلقة المفقودة»، والمجموعة القصصية «ترجمان الأوجاع» عن مشروع «كلمة»، وكتاب «عبودية الكراكيب» عن المركز القومي للترجمة، كما ترجمت كتاب: «كيف تصبح ممثلاً موهوباً.. حول أسلوب التمثيل»، وكتاب «تقنيات الأداء المسرحي.. بناء الشخصية»، وكتاب «فن الحياة» عن دار شرقيات.

اثنا عشر عاماً من العبودية

يكشف هذا النص كيف عاش نورثوب في ظروف العبودية القاسية، وكابد المرض والجَلْد وتعرّض لمحاولة شنق. ويصف الحياة اليومية للعبيد في لويزيانا، ونظامهم الغذائي، وظروف حياتهم، والعلاقة بين السيّد والعبد، وكيف كان مطاردو العبيد يلاحقون الفارّين ويعيدونهم إلى نير العبودية. كما يوضح الظروف التي أحاطت باستعادته الحرّية بعد سنوات العبودية الطويلة.

سجل «سولمون نورثوب» سيرته الذاتية بعد أشهر قليلة من عودته إلى الحرية، بمساعدة ديفيد ويلسون الذي قام بتحرير هذا الكتاب الصادر في عام 1853، وكان من الكتب التي أسهمت في النقاش الوطني بشأن العبيد في السنوات التسع التي أفضت إلى الحرب الأهلية الأمريكية.







